

مآثر من سعاده

• الكتاب: مأثر من سعادة
• المؤلف: الياس جرجي قنيزح
• الطبعة الثانية 2013
ISBN: 978-9953-417-
© جميع الحقوق محفوظة
تصميم الغلاف والإخراج: نغم عرنوق

مؤسسة سعادة للثقافة
هاتف: +961 1 753363
فاكس: +961 1 753364
e-mail: saadehcf@idm.net.lb
e-mail: contactus@saadehcf.org
العنوان: شارع الحمراء الرئيسي، بناية رسامي، الطابق الرابع.
بيروت - لبنان

الياس جرجي قنيزح

مآثر من سعاده

زعيم الحزب السوري القومي الاجتماعي

مقالات نُشرت في مجلّة «البناء» الأسبوعية

في بيروت، خلال 1976 - 1977

الإهداء

إلى أبناء الحياة
رؤاد الحرية والواجب والنظام والقوة في سوريا
أهدي هذا الكتاب

الياس جرجي قنيزح

مقدّمة الطبعة الثانية

مُعَلِّمٌ فِي الْحَوَارِ كَمْ نَحْتَاجُ الْيَوْمَ أَنْ نَتَعَلَّمَ

نغم رزق الله عرنوق

ذاتَ حديثٍ مع صديق، سألتني: مَنْ مِنْ خَارِجِ أُسْرَتِكَ، الشَّخْصَ الَّذِي تَرِكَ فِيكَ أَثْرًا أَكْبَرَ مِنْ غَيْرِهِ؟ ... أَهوَ خَالِكَ الْيَاسِ؟
فاجأني.. لأنّه لم يكن يعرفه، بل أبتّ تعرّفت إلى صديقي هذا بعد وفاة خالي بسبع سنوات، لكنّ جوابه كان في سؤاله، إذ لطالما كان «خالي» حاضراً في أحاديثي عن كلّ أمور الحياة التي نتحدّث بها.

أعادني سؤاله إلى تذكّر تاريخ علاقتي مع خالي الياس منذ بداياتها، وأقول هذا لأبّي أتذكّر أوّل لقاء لي معه، حيث كان مقيماً في لبنان وممنوع عليه زيارة الشام إثر أحداث عام 1955، فيما كنت مقيماً في طرطوس وأسمع عن خالي الياس أحاديث يلتبس فيها الغموض بالأسى، والحب بالمهابة.. إلى أن

سحت لي الفرصة لزيارة بيروت مع أهلي، وعمري لا يتجاوز الثانية عشرة إلاً بقليل. كان يومها لقاء التعارف الذي اكتشف فيه الطفل في داخلي، حناناً رصيناً، وحكمة لا تراود أحلامه وخياله، لكنّ السؤال بقي غلالة شقافة تحيط الوجه البشوش الهادئ.

بعد سنوات، وقد تعدّدت اللقاءات متقطّعة، وقد بدأت أعني ما يدور حولي من أمور وقضايا تبدأ من المهموم الحياتية الشخصية، ولا تنتهي عند حدود الوطن، بل تتجاوزها محاولة رسم خطوط فهم واضح للمنظومة الإنسانية ككلّ، وحدثني لا أترك فرصة إلاً وأفتح مع «الأمين الياس» الحوار إثر الحوار.

ولعلّ الفترة التي كانت الأكثر تواصلًا معه، وكانت البداية لصداقة استمرّت حتى وفاته، كانت في عام 1985 حين أقمت في بيته في بيروت مدّة ثلاثة أشهر، كنّا يومياً نمضي الجزء الأخير من السهرة معاً وبعد أن ينام الجميع، ليستمع إلى الأخبار، وليدور بعدها الحديث مدة تتراوح بين نصف الساعة والساعة، أذكر تماماً كيف أدركت يومها أنّ الصداقة لا تقف عند فارق العمر، وكيف أنّ هناك من العظماء من تشعر أمامهم بأنك ضئيل، لكنّ منهم من تشعر، فعلاً، وكأنّ عظمتهم امتدّت وفاضت إليك، حتى تشعر بعظمتك أنت، وأنت أمامهم؛ وهذا ما قاله لي هو في واحدة من تلك السهرات، نقلاً عن قول لأحدهم.

لو حاولت اعتصار ذهني لكي أحدّد ما الذي تركه فيّ من أثر لما وجدت أوضح وأبهي من أسلوبه في الحوار. كان الحوار متعته وهوايته، إذ لم يكن، في مفهومه، نزاعاً، ولا هو براعة في إثبات وجهة نظر، بقدر ما هو رغبة في التواصل قائمة أولاً على البراعة في الإصغاء. كم كان يصمت مسترسلاً في

إصغائه واهتمامه، تاركاً لمخاوره أن يتدقق في طرح ذاته، ثم وبكلّ الحب والتفهم، يبدأ بوضع النقاط على الحروف، مثبتاً ومصوّباً، ومنتسلاً وتاركاً الباب مفتوحاً على احتمالات واردة. أو محرّضاً ذهن مخاوره بأسئلة ذكيّة وعميقة، كان الحوار معه شكل من أشكال التفكير الجماعي، بل والتأمل الجماعي، إذ تشعر بنشوة كونك إنساناً تستطيع أن تتحاور وتتطوّر وتتفتح أمامك نوافذ العقل، مع من تفهم وتحب.

«حدّدوا المصطلحات»، كم كان يقول لنا هذا، وكم من سوء تفاهم نشأ نتيجة استخدام أحد المحاورين لمصطلح بغير المعنى الذي يستخدمه فيه الآخر.

«حدّدوا الهدف من الحوار»، وكم كان هذا أيضاً سبباً في حوار الطرشان، حيث كلّ واحد يدور في فلك، ولا يمكن أن تتقاطع المدارات. «اسمعي بدل أنّ تفكّر بماذا ستجيب»، يقولها بروح الدعابة التي يمتاز بها، ولكنّه يصيب بما عين الحقيقة، وكم من حوار نجد فيه الأطراف لا يسمعون بعضهم بل يعتبرون الحوار مباراة لا بدّ فيها من منتصر ومهزوم.. لم يكن لديه مسلمات لا تطرح للنقاش والحوار، حتّى الثوابت التي يتمسك بها ويعتمدها كمبادئ في حياته وتفكيره، كان على استعداد للحوار بها وإعادة النظر، لم أشعر به يوماً يحاور وهو متّخذ قراراً مسبقاً بعدم التراجع، وكم من مرّة اختلفنا في الرأي، لكنّ أسلوبه جعلني أدرك أن لا ضير في الاختلاف، والضير كل الضير في الخلاف، وأنّ الحوار هو تبادل لوجهات النظر وليس تنازعاً عليها.

أذكر سهرة في ظهور الشوير، قبل وفاته بأقلّ من عام على ما أذكر، وقد اجتمع لديه العديد من الرفقاء والأصدقاء والأقرباء، ودارت الأحاديث لتطال

الوضع السياسي برمته، ووضع الحزب السوري القومي الاجتماعي، وإمكانية النهوض بالوسيلة المخوّلة بالنهوض بالأمة، ورأيته يومها صامتاً، يحدّق بالمتكلمين، وكلّ يدي بدلوه ويطرح آراءه، وأنا أراقبه مخمّناً ما يدور في خاطره، من ألم أو أمل، وكنت مدركاً لوضعه الصحي وقد تجاوز الثمانين من عمره، وقدّرت أنّه قد أخذ به التعب والنعاس، متمنياً للحديث أن ينتهي من أجل أن يستريح، ولشدّ ما كانت دهشتي حين اعتدل في مجلسه وانطلق في حديث طويل بصوته المرتفع الواضح ونبرته القويّة، مراجعاً كلّ التفاصيل التي دُكرت، دون أن يترك أمراً يستدعي الملاحظة، إلا ونوّه به، محدّداً النقاط التي اتّفق عليها، ومشيراً إلى ما يستحقّ البحث أكثر، ومرجّحاً وجهة نظر على أخرى، إلى أن أمّهي كلامه بإحدى دعاياته التي يلوّن بها الأحاديث بدكاء، لتبقى تدور وتدور وترتفع بالعقول والنفوس محلّقة في رحابة الفكر التي لا تحدّ.

أذكر يومها، بعد تلك السهرة، أنّ حديثاً دار بيني وبين ابنه تمّوز، كان قد لفت انتباهه حضور والده الذهني وتوقّد بصيرته وسرعة خاطره رغم تقدّمه في السن وتراجع صحّته، وقلت له يومها أنّ أكثر ما لفت انتباهي وإعجابي هو قدرة الخال على الإصغاء، رغم حرارة الموضوع التي تتمّ مناقشته، إذ لم يندفع في مقاطعة أحد رغم الهفوات التي مرّت، ولم يهزأ من رأي، رغم تدبّي بعض الطروحات عن روح الموضوعية، ولم يستخفّ وجهة نظر، رغم انجياز بعض الأفكار إلى الأهواء والمزاج الشخصي. كان ثابتاً الذي لا يتزحزح، أنّه يتواصل مع إنسان يستحقّ الاحترام أولاً وأخيراً.

كم كان يطرح أمامنا أسئلة وكأنّه يفكّر بصوت مرتفع، ويدعونا لمشاركته في التساؤل، دون أن يكون لديه تصوّر واضح عن الإجابة، كأن يسأل مثلاً:

«هل من الممكن الفصل بين الحب والاحترام، أي هل من الممكن أن تحب شخصاً لا تحترمه، أو تحترم شخصاً لا تحبه؟؟» أو يتساءل مثلاً عن الفرق بين سوء الطبع وسوء الأخلاق... وهل يمكن الفصل بينهما؟ ويبدأ بطرح الأمثلة ويقلب بينها، وغالباً ما يبقى السؤال مفتوحاً، لكنّ التأثير الأكبر لهذه الأسئلة هو متعة التفكير والتساؤل، متعة أن تظنّ طفلاً تحدّق إلى الكون بدهشة ورغبة في التعلّم والاكتشاف، وأن لا تقبل بما هو موجود دون أن تدخله إلى مختبر عقلك وروحك وتشبعه درساً وتأملاً، إنّه نوع من الصلاة.

كان معلماً حقيقياً ككلّ المعلمين الحقيقيين لأنّه عرف كيف يتلمذ على يد معلّم رسوليّ النهج هو أنطون سعادة، باعثُ نخضة فكرية وثقافية رائعة في هذه الأمة العريقة، وواضعُ فلسفة ونظرة للحياة «إنسانية - اجتماعية» جديدة، ومناضلٌ ختم رسالته بدمائه وفاء لفكرة آمن بها وعمل لها حتى الرمق الأخير، فقد كانت مرافقته له على مدى سنوات خير مدرسة نهل منها واختمت مآثرها في نفسه، فصاغ لنا ثمرة تلك المآثر الحميّة في هذه المقالات التي صدرت تباعاً، إلى أن جُمعت في هذا الكتاب.

أجل، كان للأمين الياس الأثر الكبير، لأنّه كان معلماً حقيقياً بالقدوة: «لا تحفظ ما أقول من أفكار، بل تعلّم كيف تفكّر أنت... لعلّه لم يقلها، لكنّه مارسها، فتعلّمتُ منه أن أستشعر متعة كوني إنساناً مفكراً، ومن ثمّ متعة كوني محترّضاً على التفكير والتأمل وناقلاً لتلك «العدوى»، التي قد تكون بلسماً لكل ما يعاني منه هذا الكوكب الجميل من فقدان للغة التواصل، رغم الانترنت والستالايت.

إنّ وسائل التواصل هذه، قدّمت الكثير الكثير للإنسان من الإمكانيات، لكنّ ما نحتاجه اليوم فعلاً بعد أن امتلكننا الوسائل، هي روحية التواصل،

روحية الانفتاح والقدرة على الحوار، روحية أن نستشعر متعة كوننا بشراً
نستطيع أن نجد لغة للتخاطب فيما بيننا، وعلى نطاق الكوكب، من مبدأ
التعرّف على الآخر وفهمه والإصغاء إليه، وتبادل الثقافات والأفكار والقيم،
لا تنازعها والنزاع عليها. من أجل بناء غدٍ أجمل وأنبل لعالمنا الذي يحيا
بالتواصل والتناغم. ليس إلّا.

مقدّمة

الطبعة الأولى 1989

حيدر حاج إسماعيل

بيروت 1988/7/29

كتاب «مآثر من سعاد»، للأمين الياس جرجي قنيزح، يدخل في باب المرويّات، التي أراد لها الزعيم، من خلال طلبه، إلى الأمناء والمسؤولين والرفقاء، أن تُدوّن، خوفاً عليها من الضياع، لئُكوّن جزءاً من تاريخ النهضة، في جانبها الاجتماعي - البشري، وما ساهمت به من بعث للإنسان الجديد إنسان الحزب السوري القومي الاجتماعي...

وللكتاب أهمية خاصة، لأن مرويّاته تدور حول شخصية الزعيم أنطون سعاد، الفكرية والسياسية، والإدارية، والتنظيمية والإذاعية والإعلامية، وإبراز لمكنون هذه الشخصية الفدّة...

والأمين الياس واحد من رجالات النهضة الكبار، من الذين عرفوا النبع واستقوا من مورده، فهو حين يتحدّث عن تاريخ الحزب، يتحدّث بعقلية العالم العارف، الشاهد الخبير، لما يختزن من ثقافة حزبية غنية، وما يمتاز به منطقته من دقة وقدرة على الإقناع، إضافة لشفافية روحه، التي تتجلى في النكتة الذكية..

الأمين الياس مدرسة ضمن مدرسة النهضة، الجسدة بالتزامه القومي الاجتماعي بتعاليمها، فهو رائد في القدوة والالتزام، وعلى يديه ترقى أكثر من جيل... وهناك في ممرينتا حيث كانت مدرسة «النهضة» التقيت به في عام 1950، وكان يومها عميداً للدخلية، وممثلاً لمركز الحزب في كل الشؤون الثقافية والإذاعية وغيرها...

ولا يزال الأمين الأمين حتى اليوم، يمارس العقيدة فكراً وفعالاً بالرغم من تقدم سنّه /76 عاماً/ ولا زالت شعلة النور فيه تنشر الحرارة والعافية والفكر...

في هذا الكتاب حكايات صغيرة من حيث الحجم كبيرة من حيث المعنى، ساقها الأمين الياس من خلال علاقته بالزعيم، وفي الكتاب أقوال للزعيم من مثل:

«ضموا سورية إلى لبنان ولا تضموا لبنان إلى سورية».

«نحن من الشعب ونعمل في الشعب لأجل الشعب».

وعن حكاية «لا تكن يا رفيقي صعوبة فوق الصعوبات».

وعن قول الزعيم سعادته: «الشخص الآدمي الطيب أروجُّهُ ابنتي، لا أُسَلِّمُهُ مقدّرات البلاد».

وعن «الانضباط لا يحول دون إبداء العواطف السامية والمشاعر النبيلة».

وعن قول الزعيم سعادته: «لا تنتصر النهضة باعتمادها التسوية مع

الرجعة».

وعن قوله أيضاً: «الحياة مغامرة، يا رفيقي، والحزب مغامرة بقلب

مغامرة».

وعن «حق الإقناع هو حق الاعتناق».

وعن «لا يتفق من معه شيء مع من ليس معه شيئاً»..

وعن قوله: «مهما بلغت النصوص من بلاغة التعبير فالنفوس وحدها تظل ضماناً كل تشريع».

ونقرأ حكايات كثيرة أخرى... ونقرأ الكثير من مثل هذه الحكايات.

ونقرأ حكاية القول العظيم: «ليست حياة الزعيم ضماناً لبقاء النهضة إنما النهضة هي الضمانة للزعيم...».

والحكاية الأخيرة كان قبل ساعات من استشهاد الزعيم سعاد في وقفة العز الكبرى في الثامن من تموز عام 1949.

خلاصة الكلام هي أنّ في كتاب «مآثر من سعاد» زوادة كلّ راغب في التعرف على شريط من حقائق الحياة القومية الاجتماعية التي ضمّت الزعيم سعاد وأحد أكبر تلامذته وجنوده الأمناء الصادقين المخلصين الملتزمين الأمين الياس جرجي قنيزح فهنيئاً للقارئ.

مؤشّرات مشعّة كبيرة أبرزت تفوّق شخصية سعادته وشموخ تطلّعاتها البطولية منذ فجر تفتّحه على الحياة والوجود

إنّ ما يصدر عن المرء عفويّاً أو مدروساً يدلّ على نفسيّته. والسلوك الإنساني بطبيعة ميزاته الحضارية هو السبيل للكشف عن مكونات الذات، وبالتالي، وسيلة الاهتداء إلى معالم الحقيقة، لأنّه قدرة الإفصاح عن أبعاد الأعماق. من هنا يتفاوت السلوك، كسائر وسائل التعبير، بقوة البيان عن معاناة النفس حسب كفاءة الإنسان من حيث الاستيعاب والاستجابة للمحرّضات المحدقة والطاقة على التحقيق، والتباين في كفاءات السلوك، فضلاً عن كونه طبيعياً وعريقاً، فهو من أرق سمات الحياة وأغنى مزايا الحضارة عبر شواهد التراث. انطلق الإنسان منذ القدم معبراً عن كوامن نفسه بالخلق الفتيّ في مختلف العلوم، مؤكداً باستمرار نزوعه إلى التطور والارتقاء، ولم يقف عند حدّ في عملية النمو والإنتاج، ولن يكفّ عن البناء والعطاء. منذ أن كان الزعيم حدثاً، بدت رهافة الإحساس وصفاء الفكر، وصلابة الصمود والإقدام عبر ما سجّله من مواقف وتصرفات تشير إلى

شخصيته المتفوّقة، ممّا لفت الانتباه إليه، وأضحى موضع إكبار ومحطّ تقدير من الذين عرفوه.

*

حين كُلف أنطون سعادته بإعداد كلمة لإلقائها أمام الوالي التركي احتفاءً بقدمه «الميمون»، بمناسبة انتهاء العام الدراسي في مدرسة برمانا الإنكليزية العالية - والتي لا تزال قائمة حتى الآن - وكان حينها حدثاً لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره، إضافة إلى ارتدائه اللباس الرسمي المُعدّ خصيصاً لذلك اليوم، لأنه سيحمل العلم التركي وسيكون على رأس الصفوف الطلابية خلال العرض حين حضور الوالي، وبالرغم من أنّ هذا التكليف هو دليل جيبي قاطع على ما كان له من مكانة مرموقة بين أقرانه، والتقدير العميق من إدارة المدرسة لمؤهلاته ومواهبه الفدّة...

وبالرغم من هذا رفض!! رفض أن يشترك في استقبال الوالي التركي بكلّ رصانة وكبر، معلناً أنّه من المتعدّر عليه أن يقوم بعمل ما يكره، في حمل علم أجنبي لوالٍ مُتحكّم بشعبه وأهله، ولن يتمكن مطلقاً من الترحيب بهذا الوالي الذي يعتبر زيارته حدثاً تاريخياً ويأبى على نفسه أن يمرّ مُنكّساً رأسه تحت أقواس النصر، المزدانة بالأعلام التركية والتي تنبأه بإذلال الشعب، وإخضاعه لئير السلطنة العثمانية.

أعلن سعادته بصراحة الوثائق من نفسه انصياعه التام إلى نظام المدرسة، واستعداده الكامل لتلبية جميع ما يعهد إليه به وكل ما تشاء إدارة المدرسة اتخاذه من تدابير وإجراءات بصدد موقفه من استقبال الوالي. لكن إصرار أنطون سعادته على رفضه القاطع لتكريم العدو قوليل بتشديد من إدارة المدرسة على ضرورة تلييته الكاملة لقراراتها، معتبرة المسألة هي مدرسية محضة وليست سياسية ولذلك أنذر سعادته بحرمانه من شهادته

وطرده النهائي من المدرسة، لأنها ترى في سلوكه هذا تمرداً صريحاً على نظام المدرسة وعصيانياً لأوامر المسؤولين. وما عليه إلا أن يتحمل عواقب عصيانه المشهود ويحسن الاختيار السليم.

تقبّل الطالب سعادته العقوبة النكراء جزاء وعيه القومي من دون أيّ تذمّر وهو غير آسف على خسارة شهادته في يوم التخرج بالذات، اليوم الموعود لتكريم الطلاب المتفوقين أمثاله ومكافأته بما يستحقون. وأسدل الستار على الحادث.

ومهما طال الزمن فلن يستطيع أن يمسخ معالم البطولة من هذا الحدث التاريخي، وسيظل خالداً في ذاكرة الأجيال لأنه من تراث وأصالة النهضة السورية القومية الاجتماعية المتفوّقة.

كان هذا الحدث الدفعة البكر من سعادته سدّها بإيمان واعتزاز لصيانة كرامة الأمة وهيبتها. وهي أولى وقفات العز في حياة الزعيم التي أقسم على أن يّقَهها لخير الأمة السورية ومجدها. ثمّ تلتها دفعات ووقفات متلاحقة، كان أكرمها وأروعها وفاءً ونبلاً، العطاء الأذكي الذي جاد به الزعيم القائد لانتصار أعظم قضية لأعرق أمة في التاريخ. هكذا بدأ سعادته حياته بإصراره البطولي على رفض الترحيب بأيّ أجنبي والاحتفاء بقدومه المُدِلِّ مهما بلغ ثمن البذل في سبيل الكرامة السورية. واستمر على هذه الطريق طيلة حياته رافضاً لأيّ تسوية ومساومة تمسّ بشرف الأمة وحقها في سيادتها على نفسها إلى أن نال شرف الخلود مرفوع الرأس، ناصع الجبين، عزيز الجانب وهو يقول بيقين المنتصر على كلّ سلطان مكابر، على كلّ طاغية بطّاش: شكراً ولتحيا سورية.

*

توالى الأحداث وتتابعت مفاجآت الحرب العالمية الأولى بسرعة مذهلة بما فرضته من تغيّرات جذرية في أوضاع الدول وعلاقات الأمم والشعوب فيما بينها. وانتهت تلك المجزرة الطاحنة بانهيار الإمبراطورية العثمانية وحلفائها وتولت السيطرة على مصير عالم ما بعد الحرب الدولتان المنتصرتان فرنسا وبريطانيا. وقد أصابنا ما أصاب الضعيف المستسلم إلى إرادة الغير ليقرّر عنه، ويُحدّد له مكانته ويعيّن وجوده وقيّمته بين الأمم.

في تلك الأثناء كان الدكتور خليل سعادته والد الزعيم مغترباً في البرازيل، ويعتمد في تأمين اتصالاته مع عائلته الموجودة آنذاك في ضهور الشوير على صديق له حميم هو عمر الداوق، رئيس بلدية بيروت. وكان الفتى أنطون سعادته يتردد من حين لآخر إلى دار البلدية متفقداً رسائل والده وما كان يرسله لعائلته من إسعافات مالية وسواها، مما هي بحاجة ماسة إليها في تلك الظروف المضطربة والغارقة في المآسي والأهوال.

ذات يوم حضر أنطون سعادته إلى بلدية بيروت لمواجهة عمر الداوق مستوضحاً عمّا إذا كان قد وصله أية رسالة من أبيه بعد فترة كانت فيها قد انقطعت أخباره، وفرضت ذلك صعوبات الاتصال بين المهاجر والوطن إبان الحرب الضارية. فصوّدف وقتها وجود اجتماع حاشد في البلدية يضم كبار وجهاء بيروت. وكان الجمع مهمكاً في درس الأوضاع السياسية التي كانت تنذر البلاد بأوخم العواقب. وكانوا يتداولون توقعاتهم عن مصير الوطن بعد انسحاب الأتراك وانتصار الحلفاء عليهم. ومدار البحث الأساسي في لقاءهم يتناول ما آلت إليه أحوال البلاد أثناء الحرب وإثر انتهائها وحول الدولة الأجنبية المفضّلة لتحلّ في الوطن محلّ الدولة التركية. ترى من هو الأنسب لنا أن يأتي الفرنسيون أم الإنكليز أم الأميركيان أم سواهم وسواهم؟ توسّعت الأبحاث أو بالأحرى شردت عن منطلقها وتوزّعت الآراء بهذا الصدد، وتضاربت شتى التقديرات من كلّ جانب وفي كلّ اتجاه، حتى سادت البلبلة

جمهرة الوجهاء الغياري على مصلحة البلاد والناشطين لتأمين المستقبل الأفضل الذي يندشون، وتعدّر الوصول إلى أية نتيجة من البحث أو التوصل إلى ترجيح أية وجهة نظر على الأخرى. والفتى أنطون سعادة يقف متابعاً لسير الأحاديث ويراقب مستغرباً تفاقم الفوضى والضياح المسيطرين على عقول الحضور وعلى تعايرهم التي ظلت مشدودة بعنف طيلة النقاش. في خضم تلاطم الصياح المتزايد واختلاط الأصوات الصاخبة إلى درجة الصراخ المكثور سنحت برهة عابرة من الصمت والسكينة اغتنمها عمر الداعوق بسرعة ولباقة ليتوجّه إلى ابن صديقه الذي أتى لزيارته وطال انتظاره فرصة اللقاء به. التفت إليه والابتسامة الأبوية تسبق عباراته لتنمّ عن مدى حرصه على إراحة الفتى. وقال له بدعابة دمثة ما رأيك؟ يا أنطون، وقد رافقت بنفسك البحث الدائر؛ أية دولة تراها الأفضل لحكم هذه البلاد المنكودة الحظ؟ فأجابه سعادة فوراً، وكأنّه على موعد مع السؤال وقد أعدّ له الجواب: «الأفضل أن نَسْتَقِلَّ بأنفسنا ولا حاجة لنا إلى أيّ أجنبي كي يتولّى أمرنا، نحن مؤهلون لذلك ويجب أن نعمل». فاهتّر عمر الداعوق لجواب رجل واعٍ مثقفٍ يمليه فتى على الحاضرين وراح يتفرّس بوجه أنطون سعادة المضيء المُتَفَتِّح على الحياة المفعم بلامح الإقدام، ذلك الفتى الكبير بوعيه الشجاع الوائق بنفسه وبجدارة أمته للسيادة والاستقلال، الكبير بجرأته العظيمة على التصدي لتلك الفئة من الحكام الساعين وراء من يضع نير العبودية في الأعناق الجاهزة للرضوخ والركوع. لقد بهر جمهرة الوجهاء جواب الرجولة من الفتى الذي شاهد بنفسه تسابق هؤلاء في التفتيش عن مستعمر جديد يحكم البلاد عوضاً عن المستعمر التركي الذي دام ما يزيد على أربع مئة سنة، سرّ الداعوق حين رأى الفتى سعادة يقدّم له الحل بعد أن عجز عنه الرجال المجتمعون.

وقيل أن عمر الداعوق تناول من جيبه بطاقة صغيرة تحمل اسمه وخطَّ عليها بتأنيٍّ وعناية هذه العبارات: «أتوقَّع لك، يا أنطون، مستقبلاً عظيماً ونجاحاً كبيراً في حياتك، حالفك التوفيق الذي يليق بمواهبك وأمدك الله بالعمر الطويل». ثم قدم إليه البطاقة عربون الإعجاب والتقدير. وإمارات الفرح ترتسم على ملامحه معبرة عن مشاعر المحبة والاعتزاز المتدفقة التي غمرت فؤاده تجاه الصديق الجديد ابن الصديق.

*

لا بُدَّ للإنسان أن يتَحَلَّى بالقدرة البلاغية للتعبير عمَّا تكنه ذاته. ومهما امتازت لديه هذه القدرة لا بُدَّ أن يسقط في أخطاء تعبيرية عن قصد أو عن غير قصد وهذه من طبيعة العمل، فمن يعمل يخطئ وتتفاوت درجات الخطأ والصواب.

مذ كان سعادته يافعاً في فجر تفتَّحه على الحياة ومعانيها وأبعاد الوجود بدت عليه إمارات النجابة والنباهة. إذ لفتت إليه انتباه عارفيه من أقرانه.

كما أثارت اهتمام الجميع في تتبع تصرفاته والتوقف لدى ملاحظاته وآرائه. حتى استقطب نبوغه المبكر عنايتهم الدقيقة الحثيثة وجذب إعجابهم الكبير بالفتى الصغير. فصاروا يراقبون سلوكه ويتناولونه بالتعليق والتقريظ.

وبعضوية وسهولة بالغة مارس قوة التعبير الفكري والعملية وما كان يعتمل في مكونات ذهنه ووجدانه من أفكار ومن تأملات عميقة الأبعاد. ولا سيما عما يجيش في نفسه من معالم طموحاتٍ فدَّة ومن مؤشِّراتٍ فطنةٍ تتألف في تطُّعٍ متفتِّحٍ للمستقبل، مستقبل أمته ووطنه. ما أكثر ما كان يلتمع في قرارة عزيمة ذلك الفتى أنطون، من معطيات لأحداثٍ جسامٍ ومن بوادر لمهَّماتٍ وأعمالٍ فائقةٍ كان يعدُّ العُدَّة لها ليقدمها، ساعة يستكمل تجهيزها، في الوقت المناسب والظرف الملائم. فتكون ضرورة حياة اجتماعية

وإمكانية فعّالة إلى الانطلاق والتحرر والتقدم. لما تصبح دانية القطوف تعطي أشهى الثمار وأفضلها للشعب. لدى بزوغ شباب أنطون أخذ إيمانه بأصالة شعبه يتبلور. وَيُلحُّ عليه بوجوب الوفاء لأُمته وهدايتها إلى الحرية والسيادة. وأن يلتزم بمصيرها بكل وجوده وكل خلجة من فكره ونبضة من كيانه.

أوائل العشرينات كان والد الفتى أنطون، الدكتور خليل سعادة، يحزم أمره لإصدار مجلة «المجلة» في سان باولو - البرازيل. فراح سعادة الابن يعدّ العدة لمولد الحدث المهم ويباشر عملياً بالتفكير بشؤون المجلة والتحضير لجميع لوازم إصدارها إن من ناحية حاجاتها الطباعية أو من ناحية جهازها الإداري تحت إشراف أبيه وبتوجيه من إرشاداته وخبرته. وصار يلاحق كل أمر من أمورها اللازمة لتكون مجلة «المجلة» في طليعة الصحافة المهاجرة بين جميع الجاليات السورية في المغتربات كلها. فضلاً عن إسهام أنطون المباشر والحديث في إمدادها بالمقالات والأبحاث الفكرية العلمية والاجتماعية.

لقد لاقى في هذا السبيل شتّى الصعوبات والمشاق الكثيرة. لكنه عرف كيف يتجاوزها ويدلّها بقدرة الرجل المقدم وفطنة المجرّب الحكيم في تصريف شؤون العمل وفي الإعداد المتين لسيره واستمراره. وكان من أهمّ العقبات الجديدة، التي واجهته في البدء لدى التأسيس، هو افتقار المطبعة العربية الوحيدة آنذاك في سان باولو إلى فريق من العمال يحسنون صفّ الأحرف الطباعية وإجراء عمليات الطباعة تلبية لإصدار مجلة دورية يقتضي أن تصل إلى قرائها في انتظام. وكانت تلك المطبعة تخصّ شبّاناً من آل بندي المغتربين من حمص - الشام إلى البرازيل. وكان حال الطباعة في ذلك الوقت بدايئاً يعتمد الأيدي العاملة أكثر مما يعتمد على تقنية الآلة المتطورة الحديثة. فكان على أنطون إذن، وهو في مطلع حياته العملية،

ومطلع اغترابه، أن يخلق لمجلة «المجلة» فريق العمال القادرين على تأمين حاجتها وضمان انتظامها اللازم مع جهله التام بكل ما يتعلق بالطباعة.

سعى سعادته الابن إلى اختيار نواة عُمَّالة للطباعة من بين شبَّان الجالية الذين كان قد تعرّف إليهم تلك الفترة ليتدرَّب معهم على صفِّ الأحرف العربيَّة. فتَمَّ تشكيل الفريق الصالح للعمل المطلوب. ولم تمضِ أسابيع قليلة حتى صار هذا الفريق بقيادته وقدراته قادراً على أن يلبي الحاجات الطباعية للمجلة، لتصدر بمواعيدها الشهرية قدر الإمكان وبِحلَّة لائقة. هكذا تمكَّن الفتى، لأول مرة، أن يحقق أروع أمنياته الرسولية وهي توفير إحدى وسائل الاتصال الدؤوب بالشعب بدءاً من أبناء الجاليات السورية في البرازيل وسائر المغتربات الأميركيَّة على الأخصِّ. وهو القائل: «ليست معركتنا سوى معركة الوصول إلى الشعب». وتحقَّقت مزاوله عمله الصحافي الشيق بالرغم من جميع المشاق التي اعترضت سبيل طموحه وانتصاراته الأولى في فكر الشعب ووجدانه.

لقد تحمَّل الفتى أنطون سعادته عِظَمَ هذه المسؤوليات التأسيسية لعمل جدِّ هامٍ. وتَنكَّبَ هذه المهمات الفكرية والعملية إلى جانب والده مُنثني مجلة «المجلة»، الطبيب المعروف والمفكِّر اللامع الذي كان يتبوأ مركزاً مرموقاً ومكانة عالية محترمة بين مختلف فئات الجاليات السورية والأجنبية وبين المواطنين في البرازيل وسائر المهاجر. ثم سار العمل في المجلة بنجاح. بعد أن جعلها أنطون سعادته تتخطى المراحل الصعبة وتجتاز عوائق فترة التأسيس المهمة ومنطلق الانتشار الأهم.

وحدث أن كان أنطون سعادته منمكاً بصفِّ أحرفٍ تجهيزاً لمقالٍ سيدفعه إلى المطبعة مرَّ بقربه أحد زملائه العمال. فلاحظ أن الأستاذ أنطون، كما اعتادوا أن يدعونه، منمكٌ في صفِّ أحرفٍ لمقالٍ غير معيِّ

كتابة قبل الصفّ. استوقفه الأمر ولم يكلم به الأستاذ بل انصرف رأساً ليخبر أحد أصحاب المطبعة السيد بندقي عمّا يحدث. غير أن كلامه لم يلقَ في البدء أي قبول. إنما أُجيب أن الأستاذ ربما يتسلّى بصف بعض كلمات متفرقة لا تشكل لا جملاً ولا موضوعاً للنشر. إلا أن إصرار العامل على صحة ملاحظته جعل أحد شبان آل بندقي يتوجه إلى جهة الأستاذ ليتأكد بنفسه من صحة ما زعمه. ودهش عندما شاهد أن الأستاذ سعادته ينقل مباشرة من ذهنه مقالاً ليصفّه أحرفاً. ثم يدفعه إلى المطبعة دون أن يكلف نفسه عناء كتابته خطأً على ورق. لم يشأ السيد بندقي أن يقطع آنذاك على الأستاذ مجرى تفكيره ليتوجّه إليه بأي سؤال بهذا الصدد. بل تركه وشأنه يتابع عمله. لكنه، في اليوم التالي استوضحه عن المقال الذي كان يصف أحرفه دون أن يدبّجه قبل ذلك مكتوباً. كيف يمكن لمثل هذا العمل الغريب أن يصحّ أم أنه مجرد محاولة لصفّ كلمات متنوعة، لا رابط بينها ولا وحدة؟ ابتسم الأستاذ وأكد أن المسألة هي كما يرى وأنه يفعل ذلك مراراً.

هذه بعض النماذج من قدرة سعادته في السيطرة الكلية على تيقّظه الفكري وحضور بديهته، وهي مؤشّرات لطاقته على ممارسة التوازن المتفوّق بين ما يدور في خلدته من أفكار يؤلّف لحمتها وبين ما يقوم به من أعمال كبيرة وتصرفات فذة جبارة متوافقة.

*

ازداد سعادته نمواً وفتحتاً على الحياة والوجود وأخذ يغوص باحثاً عن كنوز المعرفة مستغلاً إياها في الخلق والإبداع زعيماً ومعلّماً وقدوة بالمعرفة والإرادة والإيمان. فأتانا بالكشف العبقري عن حقيقة من نحن، في النهضة السورية القومية الاجتماعية وحقيقة الأهداف والمرامي التي لا بدّ

للأصالة السورية من أن تسيّر إليها وتجسدها بالأعمال والأفعال السورية القومية الاجتماعية لتحيا سورية سعادته بازدهار وسعادة.

إبّان وجود سعادته في سان باولو البرازيل سنة 1928 كان هناك تقليد شائع يقضي على المرء أن يحتفظ دائماً بلباس لرأسه أمام الناس خاصة في الأماكن العامة. وكان من يخالف هذا العرف يتعرض للانتقاد الشديد ويجلب لنفسه المتاعب التي هو بغنى عنها.

تلك الأثناء بالذات تفاجأ الجالية السورية في سان باولو بأن أنطون سعادته يتجول في الأسواق وهو حاسر الرأس خلافاً للعرف المتبع ولا يبالي باستنكار الناس لتصرفه الشاذ. فهبت عاصفة حادة من الاستهجان لما أقدم عليه هذا الفتى من خروج عن التقاليد التي تجمع الجالية على احترامها والأخذ بها. هل هو تحديّ من قبله لـ «الرأي العام»، استخفاف هذا أم مجرد غلطة يقترفها من كان في مثل سنّه غير مكترث بالعواقب؟

وانطلقت الألسن بحقّه تتسابق في التفسير والتأويل للأسباب التي دفعته إلى القيام بهذا العمل. واتصل به العديد من المعارف والأصدقاء ينقلون إليه ردّة الفعل لاستخفافه بالعادات ويضمّون رأيهم إلى الاستغراب العام مستفهمين بدورهم عن الأسباب الداعية لخلق هذه المشكلة ناصحين إيّاه بالعدول عن سلوكه مراعاة لمشاعر الناس ودرءاً لتماديهم باللغظ وإثارة الإشاعات ونشر الأقاويل الجارحة المخرجة. وهو يعتصم بالإصغاء دون الإفصاح عن رأيه متسائلاً عما يدعو الناس إلى التدخّل بشؤونهم الخاصة التي لا يمكن أن تعني سواه ولا تسيء لأحد على الإطلاق. لكنه ظل مصراً على التخلي عن لباس الرأس. والناس من كل صوب يتابعون حملتهم على مخالفته النكراء لعاداتهم المقدسة. وبقي متذرعاً بالإصغاء والصمت وسط تفافم موجة الاستنكار الموجهة ضد شذوذه عن الموقف العام.

مرت الأشهر على هذه الحال ولم تهدأ الانتقادات والأقاويل حول أنطون سعادته لأنه لا يضع أي لباس على رأسه في بلد يُجمع سكانه على ضرورة تغطية الرأس بحرص شديد وإلحاح عنيف. وهو الصخرة الصامدة الصامته في خضمّ الأنواء والأمواج الصاخبة. غير أن المسألة لم تقف عند هذا الحد بل تطورت واتسعت النقمة على سعادته حين فاجأهم، والعاصفة على أشدها، بإطلاق لحيته دون أن يقيم أي اعتبار لردة فعل الناس وتصلبهم في محاولة إرغامه على التراجع عما يؤذي قدسية التقاليد والعادات العامة. فتجددت ردة الفعل هذه بنقمة أشدّ وإلحاح أقسى دون جدوى على الإطلاق. لأن سعادته لم يقلع في الذي أقدم عليه ولم يزغوا عن تشبّته بموقفه وليس لديه أي استعداد للدفاع عن تصرفاته الخارجة عن المألوف ولا إعطاء أي إيضاح عما يقوم به. ترى ما الذي يحمل سعادته على إثارة هذا السخط عليه وتأييب حملة شعواء ضده من جراء هذا السلوك الغريب؟ ما الفائدة من خوض معركة مع الرغبة العامة أو التوتر العام بسبب نزع لباس رأس ثم إطلاق لحية؟ ومطلب الناس احترام التقاليد والتقيّد بممارستها والأخذ بها بحذافيرها مهما كان نوعها ومضمونها وقيمتها بالنسبة لحياة الشعب وحاجاته العملية لها. كيف ستنتهي المشكلة التي أدارها سعادته مع الجالية السورية في سان باولو بتحدّيه تقاليدها وعاداتها وإصراره الصامد على العمل بموجب رأيه هو وقناعته الخاصة فيما دون الاهتمام برأي أحد. ولا يوضح شيئاً عما يدور في خَلده ويعتمل في نفسه بينما الجميع وفي طليعتهم أصدقاؤه يسعون لمعرفة أغراضه من كل ما حدث وحصل.

وأتاه ذات يوم أحد أقرب أصدقائه مستفسراً ومظهرًا الحرص على سمعته ومركزه في الجالية السورية. متوخيًا معرفة الحقيقة.

ابتسم سعادته متنفساً بعمق كمن يحاول تجاوز حاجز عالٍ خطر
يفصل ما بين الناس وامتلاك الحقيقة ثم قال:

«أنا بالأساس لم يبدر مني ما يسيء لأحد ولم تخطر لي الإساءة أبداً. فما
شأن الناس من أمر لا يعنهم فضلاً عن كونه لا يزعجهم على الإطلاق. فلماذا
يشغلهم أمر شخصي وعادي كأنه قضية كبرى تتناول جميع شؤونهم؟ ومن
جهة ثانية يا صديقي، فإنني عمدت إلى تصرف كنت أعرف مسبقاً أنه سيثير
اهتمام الناس ويحرك نغمتهم عليّ ويسبب لي كثيراً من المتاعب. لكنني أردت
أن أمتحن صمودي إزاء موقف أجمع الناس على مخالفتي به ورفضه لي
بالضغط واللفظ وشتى وسائل الممانعة والمقاومة. فهل أتراجع لكسب رضى
الآخرين تخلصاً من حملتهم على خروجي عن تقاليدهم وأعرافهم التي هي
مبدئياً لا مبرر لها ولا معنى لوجودها ولا تستحق لا الحرص عليها ولا إلزام
أحد بها. هل أتنازل عن قناعاتي بصحة موقف أو تدير معين تحت الضغط
والإكراه أم أصرّ وأصمد في موقعي وأستمر لأنبات حقي في الحرية والاختيار
لما أصبو إليه وأسعى لبلوغه؟».

*

كثيرة هي الشواهد على تفوق سعادته وعبقريته في التعبير عن
أصالة قد تفجرت في النهضة السورية القومية الاجتماعية زوبعة تعصف
وتقصفت لتؤسس وتشيد أمجاداً وبطولات لتحيا سورية رائدة خالدة.

بعد عودة سعادته من المغترب وقبل المباشرة بتأسيس الحزب السوري
القومي الاجتماعي أقام فترة في مدينة دمشق للاتصال بأوساط الطلبة
والصحافة. ثم غادرها إلى بيروت لاستكمال تلك الاتصالات إعداداً لمبادرة
التأسيس المرتقبة. حينذاك استأجر غرفة في منزل برأس بيروت مع اثنين من
أصحابه. وراح يعقد الصلوات الصميمة الهادفة مع طلاب من الجامعة

الأميركانية عن طريق إعطائهم دروساً خاصة باللغة الألمانية. إلى أن كان البدء الفعلي باكتشاف أولى اللبنة الصالحة لتأسيس النهضة.

إبان إقامة سعادته في تلك الغرفة مع صاحبيه، لاحظنا، ومنذ الأيام الأولى، بادرة منه استلقت انتباههما واستوقفتهما طويلاً وهي أن أنطون لا يستعمل قط في نومه الفراش ولوازمه بل يكتفي بإلقاء جسمه ساعات قليلة إلى البساط الممتد أمام سريره وهو شبه عارٍ صيفاً شتاءً، أو أن تساقط الثلوج وهطول الأمطار وأثناء عصف الرياح واشتداد البرد القارس. بينما كان رفيقه في الغرفة كسائر الشباب أقرانه يتخذان كامل الاحتياطات المعتادة التي لا غنى عنها لاتقاء مزعجات فصل الشتاء. سواء ما يتعلق بأنواع الألبسة الشتوية أو وسائل التدفئة الضرورية. تتبع رفيقه القسوة المذهلة التي كان يفرضها سعادته على نفسه دون تأقّف ولا تهرّب في مواجهته الجريئة لأقسى حالات الطقس وتقلبات الطبيعة الغاضبة دون أن يبدي أي استغراب أو ملاحظة أو يوجّهها إليه أدنى تساؤل أو استيضاح كأنّ الأمر جد طبيعي وعادي. لأن سعادته من طباعه المعروفة الاستقلالية المطلقة في سلوكه الخاص. لا يفسح لأحد أياً كان مجال التدخل بشؤونه الخاصة. ويرى أن له ملء الحق والحرية في التصرف بما يتعلق به شخصياً ما دام لا يسيء بسلوكه إلى أحد ولا يسبب له أدنى مضايقة أو إزعاج. وإذا ما تداول سعادته مع أحد من أصحابه بشأن خاص فهذا دليل على ما يكنّ له كصديق من وافر التقدير ويوليه من عميق الثقة. وهو يقصد من إشراكه صديقه في خصوصياته وشجونه تحقيق غرض في نفسه صميم وبلوغ غاية توجيهية بناءً بعيدة المرمى عميقة المعنى تجعله أشد التصاقاً به وأمضى تجاوباً وتفاعلاً معاً.

مضى فصل الشتاء وسعادته يواظب على طريقته عينها في النوم واليقظة وممارسة الرياضة البدنية صباح مساءً، متابِعاً منهجه الخاص بكل

دقة وإتقان دون انقطاع مهما يطرأ عليه من عوائق وموانع فهو مستمر بجدية وعفوية لا يداخلهما إجهاد ولا ملل.

وكان أحد صاحبي سعادته يترصّد مسلكه عن كذب بكل إعجاب وإكبار دون أن يسمح لنفسه بإبداء أي تعليق. ويرافقه خلال إقامته معه بأهم الأبحاث حتى حصل على كامل ثقته وبلغ من نفسه منزلة حميمة صميمة مما جعل سعادته يبادلّه الآراء في الكثير من شؤونه ويكاشفه بأدقّ تأملاته في الحياة والوجود وأحبّ مشاريعه إلى عقله وقلبه. كما كان يطلعه على أبعد تطلعاته المستقبلية بارتياح وانشراح. وقد أتيج لهذا الصديق مناسبة لاستفسار سعادته عن النمط الفريد الذي يلتزم به في حياته ويمارسه بعناية وقناعة تامة. فأوضح له سعادته مرامي سلوكه المستغرب، لأول وهلة، وأفصح عن مقاصده العليا به:

«الحياة، يا صديقي، عميقة الجدّة شديدة القسوة. لا تتوقف لحظة عن تحدي صمود الإنسان بالمصاعب والمصائب التي تقيمها في سياق مسيرته الشاقة. الحياة تثير عزيمة الإنسان وتحرض عنفوانه ليواجه فيض كنوزها وتدفق ويلاتها. وما عليه إلا أن يكون على مستوى المجابهة لأية مفاجأة ولو بلغت أقصى الشدة والعنف، يتصدى لها بما يليق بكرامة الإنسان وسمو رسالته في الحياة. فإما أن ينتصر فيبرهن أنه جدير بالحياة قادر على انتزاع حقه من أشدّاق المظالم وإمّا أن يتخاذل مُقَصِّراً عن إثبات وجوده وتأكيد أهليته للصمود، فيتلبسه عار الهزيمة ووصمة التسليم والاستسلام للأمر الحاصل.

الحياة، يا صديقي، مغامرة كبرى ومصدر جميع المغامرات التي لا تحصى ولا يحتمل تذليلها والتغلب عليها إلا بالنفسية الصراعية المجهزة بأمتن القوى النفسية المناقبية التي هي قدرة الإيمان والإرادة: الإيمان

بالحقيقة وإرادة تحقيق قضية الإيمان، وفرض الانتصار المحتوم دون مهادنة أو تمهون.

الأحياء فلذة من صلب الحياة بالصلابة والجمال وليسوا أتباعاً أذلياً ترممهم الحياة بما تفرزه من فضلات وفتات يتصدق بها الأحرار أو الأغرار الغادرون على الخانعين.

الحياة، يا صديقي، لا تتوانى عن صفع المولولين النائحين على عتبة الحياة كأنهم في مأتم فنائهم. فالحياة تسارع إلى سحقهم شامته بعجزهم وتأبى انتسابهم إليها. ليس مباحاً أن نستغيث ونستنجد مستجدين العون والإسعاف. لا يليق بمن يعي وجوده الإنساني أن يلجأ إلى المواربة في حضرة الحقيقة ويلوذ بالمداورة هرباً من تحمل مسؤولياته على غرار هروب النعامة ونذالتها. لا بدّ من الصمود والتصدي لأي احتمال مهما اقتضى من آلام عظيمة وتضحيات جسيمة. ندود أبدأً عن قضية الحياة الكلية الأزلية وروعة عظمتها، مؤكداً خطورة دور الإنسان في تشريف الحياة ورفع شأنها إلى مصاف إنسانيته كي يتسنى لنا الارتواء من فيض منابع لا تنضب من الحق والخير والجمال ليحق لنا الاعتزاز بعمق أصالة الإنسان في صميم أصالة الحياة.

من يدري، يا صديقي، قد تأتينا أيام وربما سنون عجاف تبلونا بأفطع النكبات والمحن. فلا يتوفر لنا مثل هذا البساط الذي ندوسه الآن بأقدامنا ونمسح به نعالنا لنفترشه آنذاك وننقى به شر الفاقة وبؤس المآسي. الحياة لنا أولاً وأخيراً ومطلبنا الحقيقي أن نستطيع التعبير بها عن أسى المثل وأنبل المقاصد. نجسد مآثر مفهومنا للحضارة ورؤيتنا الصحيحة للتراث هذا الشاهد الصادق على تفوق أصالتنا وتآلق طاقتنا».

*

هكذا بنى سعادته من نفسه قوة قادرة على مواجهة جسام الأحداث وتحمل روائع المسؤوليات منذ تفتحه على الحياة والوجود. هكذا أقام من نفسه منارة تطلق مشاعل رسالة تهدي إلى سراط الحق والخير والجمال فتلاقي الأمة السورية بقدوته أعظم انتصار لأعظم صبر في التاريخ. هذا هو المعلم الزعيم من جَسَد أصالة النفس السورية بأجمل معطياتها المادية الروحية وأعظم مواهبها الفذة.

نشوء الحزب السوري القومي الاجتماعي
يقوم من أجل حقيقة ثابتة مستمرة، هي
قضية حياة المجتمع واستمرار حياته
وتقدمها نحو الأفضل والأجمل. قضية
تقدم وانتصار وعزّ

سعاده

ما أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وفتح الطريق إلى المغتربات
حتى هاجر الزعيم لملافاة والده وإخوانه في البرازيل من أميركا الجنوبية،
وكانت والدته قد توفيت إبان الحرب هناك، ثمّ راح الزعيم يتعاطى العمل
الصحفي في مجلة «المجلة» التي كان يصدرها والده الدكتور خليل سعاده
في سان باولو البرازيل. أثناء وجوده في المغرب كان شديد المتابعة لأخبار
الوطن وعميق التأمل في ما وصلت إليه حال مواطنيه تحت نير الانتدابين
البريطاني والفرنسي اللذين فرضتهما معاهدة سايكس - بيكو على الأمة
السورية والعالم العربي، بينما كان الزعيم يعدّ نفسه إلى الحدث التاريخي
الذي وقف له كل حياته ووجوده وعمل له بكل قواه وإمكاناته حتى
أذكي العطاء بشهادة الدم.

عاد الزعيم إلى الوطن سنة 1930 وفي ذهنه مباشرة العمل الكبير
لحياة الأمة السورية والوطن السوري ورقمهما. فأخذ يتحّين الفرصة

المناسبة للمبادرة الفعلية إلى تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي. وكانت أولى المحاولات في هذا السبيل انتقاله للإقامة في دمشق العاصمة الشامية التي كانت وكأئها على وطيس نار ملتبهة تغلي في حربها ضد المستعمر الأجنبي ومقاومة أساليب طغيانه. وذلك ربيع سنة 1931. اقتصر اتصال الزعيم في البدء بأوساط الطلبة من خلال المدرسة العلمية الوطنية الكائنة آنذاك في شارع البزورية لصاحبها الدكتور منيف العاندي. ثم ارتاد أوساط الصحافة الشامية بعقد صلوات مع أسرة صحيفة «الأيام» اليومية لصاحبها نصح بابيل، وكان من وقت لآخر ينشر مقالات وأبحاثاً قليلة بغية سبرردود الفعل لدى القراء والرأي العام إجمالاً وطبيعة هذه الردود إزاء ما كان ينشره من أفكار وآراء تتناول معالجة شؤون الساعة بمفاهيم النهضة. وبعد أن تبين الزعيم من خلال المدرسة والصحافة معاً في دمشق مدى تقبل الشعب لمواجهة قضاياها المصرية وتحسسه بمسؤوليات العمل لها غادرها بعد بضعة أشهر ليعود إلى بيروت مستكماً لدراسته لنفسية الشعب واستعداداته لتلبية الدعوة إلى اعتناق عقيدة الحرية والواجب والنظام والقوة والجهاد القومي الاجتماعي لنصرتها.

في بيروت بادر الزعيم إلى الاتصال بأوساط الطلبة عن طريق إعطاء دروس خاصة باللغة الألمانية لطلاب من الجامعة الأميركية وكذلك وطّد علاقات ودية مع أسرة جريدة «النهار» اليومية لصاحبها آنذاك جبران تويني. علّه يتعرف في بيروت أيضاً إلى مستوى الرأي العام ومدى إمكانياته ومؤهلاته للعمل القومي الاجتماعي الذي كان الزعيم يؤسس له جميع دعائمه الأساسية وعناصره الضرورية الأصيلة. من أوساط الجامعة الأميركية في بيروت كان اختياره لأولى اللبئات لتأسيس النهضة ومباشرة الدعوة القومية الاجتماعية. وكان ذلك البدء أثناء السنة المدرسية 1931-1932 وبمنتهى الحرص على السرية التامة. ثم بلغ عدد الأعضاء المنتسبين

إلى الحزب خلال أسابيع معدودات ما يتجاوز الخمسة معظمهم من الطلاب والأوساط الطلابية والمثقفة.

لم يمضِ وقت طويل على هذا البدء حتى لاحظ الزعيم أن بعضهم أخذ يتصرف مع رفقائه ومع الزعيم بالذات بعقلية السياسيين التقليديين، على أساس المفهوم السياسي البحت في معالجته الشؤون الاجتماعية والمواضيع العامة، كما لاحظ سلوكهم من الحزب وقضيته ومسؤوليات العمل الحزبي كأنها وسائل لتحقيق أغراض الواجهة الشخصية والنفوذ الفردي على بعضهم بعضاً. كان همّهم ينصرف أولاً إلى بلوغ أغراض خصوصية وإرواء رغبات فردية لا قومية اجتماعية على حساب مصلحة الحزب وشؤونه الخطيرة جاعلين من الحزب ووجوده السبيل إلى وصولهم لمنافع تافهة ليس إلا. فانكبّ الزعيم على معالجة هذه الظاهرة الخطيرة من الانحراف الخلقى الفكرى الناشئة في جسم الحزب وما زال في طور التكوين الأول وبداية مرحلة التأسيس الفكرى النفسى. وراح بأدقّ وسائل التوجيه وألبق أساليب الإرشاد والتصويب يعمل على إنقاذ الحزب من النزعة الفردية التي تقتحم عقليته الأخلاقية الجديدة، وهو في مهد النشوء والنمو. لكن المفسد أحكمت تلاعبها بالأفراد وتمادى الفرديون الأوائل في التشويش وبثّ روحية الشك والبلبلة بين الرفقاء حتى صار معظم الاهتمام العام يدور على غير المحور المناقبي البتاء، بدل أن ينصرف إلى معالجة شؤون النهضة والأمة بالمستوى اللائق بطموح الشباب وعزيمته إلى أن تحولت، أو كادت، الاجتماعات الحزبية والجلسات الرسمية عن مواضيعها وأغراضها إلى ميدان التنافس الشخصى وباتت مجالاً لخلق المشاكل وتعطيل كل معالجة لها. ففاجأت هذه الظاهرة المرضية، الزعيم، والحزب ما يزال في مطلع اختباره الأولى، وآلمه أن يكون هذا بين أوساط الطلاب الشباب الذين لم ينطلقوا بعد في مواجهة الحياة وما فيها إزاء تفاقم التردي في التعامل القومى

الاجتماعي والسلوكية اللا مناقبية لهؤلاء الأعضاء والحزب لا يزال سرياً ويضم أعداداً محدودة لا تتجاوز العشرين عضواً، كان لا بدّ من إيجاد العلاج الناجع السريع للخروج من حراجه المأزق. ولم يكن ممكناً اللجوء إلى معاقبة أيّ كان بالفصل أو الطرد أو سواهما من التدابير النافذة إلى الإصلاح ما دام الحزب غرسه لدنة ونواة غصّة لا تتحمل الهزّات ولا التجارب الحاسمة فضلاً عن حالته السرية وحاجته القصوى إلى الاحتماء بسريته إلى أجل لا يمكن تحديد أجله آنذاك.

فارتأى الزعيم في حل الحزب ضرورة لينصرف كل واحد إلى الاهتمام بشؤونه الخاصة ريثما يعاود التأمل في تلك الأعراض المدمرة. ثم دعا جميع الأعضاء إلى عقد اجتماع عام طارئ تم خلاله مصارحة الزعيم التاريخية للحضور في قول: إن تجربته في تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي بات مقتنعاً بعدم جدواها وقدرتها على النمو والاستمرار وهو لم يعد يلمس من نفسه الاستعداد لمتابعة الترابط معهم في التعاقد القائم. وهو يعلن للجميع عزمه على حلّ الحزب بوصفه الشارع صاحب الدعوة إلى القومية السورية الاجتماعية. وحلّهم بالتالي من القسم القومي الاجتماعي وجميع مستلزماته وموجباته القومية الاجتماعية وليس لأحد تجاهه أي إلزام من أي نوع، موضحاً أن الحق بحل الحزب أو بالاستمرار به يعود إليه بالنظر لما له من مسؤوليات وصلاحيات في التأسيس والقيادة مدى الحياة. وها هو يصارحهم بكل ما ينوي عمله تاركاً لهم حرية الموقف والتصرف من جانبهم بعد حل الحزب وانصرافه هو عن تنفيذ تعاقد السابق معهم لتحقيق مبادئ الحزب وأهدافه. وقد لاقى هذا التدبير الفاصل الحاسم من قبل الزعيم ردود فعل متفاوتة لدى أعضاء الأوس، حسب تفهيمهم للحزب ومراميه وجدية انتمائهم إليه وحسب قدراتهم الأخلاقية النفسية على حمل

مسؤوليات الصمود والنضال في طريق الحياة الطويلة الشاقة التي شقها الحزب مصمماً على الاستمرار بها حتى النفس الأخير والنصر النهائي.

مضت فترة من الصمت عن الحزب ووجوده، اقتنع خلالها من يجب أن يقتنع بانتهاء مسألة الحزب وزواله من الوجود إلى غير رجعة. بعدئذٍ استأنف الزعيم الاهتمام بقلّة من الأعضاء القدماء ممن لاحظ فيهم الجدارة على حمل العقيدة والسير بها وعمد إلى إعادتهم إلى التنظيم بمنتهى التأي والرؤية لمتابعة العمل القومي الاجتماعي بهم أولاً ومعهم. فكان تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي من جديد بعودة بعض من كانوا النواة الأولى في التأسيس الأول وبانضواء آخرين جدد تحت خفق الزوبعة للحرية والواجب والنظام والقوة.

إنه التأسيس المستمر منذ السادس عشر من تشرين الثاني سنة 1932. وظل الحزب يعمل سرياً تحت طبقة الثرثرة والصياح المنتشرة فوق هذه الأمة وتمتد روحه بهدوء واطمئنان في جسم الأمة وتنظم جماعاتها. إلى أن كان السادس عشر من تشرين الثاني من سنة 1935 الذكرى الثالثة لتأسيسه، فجر ذلك اليوم انكشف أمر الحزب وأعلن وجوده من قبل سلطات الانتداب الفرنسي وأعدائه العملاء العاملين لسيادة الاستعمار على الأمة والوطن. داهمت السلطات مقر الحزب ومنازل من عرفتهم من المسؤولين والأعضاء وتم اعتقال الزعيم والعديد من معاونيه جنود القضية السورية القومية الاجتماعية وإحالتهم جميعاً إلى القضاء الفرنسي المختلط. فكان أول امتحان في أولى معارك النضال والانتصار ترسّخت بها دعائم التأسيس في توكيد سلامة البنية وصمود الأصالة السورية وفي إثبات قدرة النهضة على تحقيق النصر القومي الاجتماعي لمجد سورية بقيادة سعادته المعلم الزعيم.

|| قصّة أول ندوة ثقافية في الحزب ||

أنشئت أول ندوة ثقافية في الحزب السوري الاجتماعي حين كان الحزب لا يزال سرياً أواسط سنة 1934 أي بعد مضي سنتين على بدء تأسيسه. لدى انعقاد الجلسة الأولى للندوة أخذ الزعيم يوضح الغرض من إنشائها وخطورة مهماتها الثقافية في حزب عقدي ذي نظرة كلية شاملة إلى الحياة والكون والفن إلى جانب مسؤوليات عمدة الثقافة والفنون الجميلة. وتطرق الزعيم أيضاً إلى كيفية ممارسة عملها إدارياً من الوجهة النظامية بوصفها أحد أجهزة عمدة الثقافة والفنون الجميلة المولجة بمعالجة الشؤون الثقافية سواء في مؤسسة العمد ومجلسهم أو بتوجيه التفاعل الثقافي العام في صميم الشعب ومعركة الوصول إلى الشعب إلى نفسه وفكره ووجدانه، معركة النهضة الأولى والأهم. ثم تناول الزعيم شرح مسؤولية رئيس الندوة الثقافية وناموسها اللذين يشكلان معاً هيئة المكتب للندوة ويتوليان بالتعاون مهمة تنظيم برامجها، وتنظيم الإشراف على تنفيذها بالإضافة إلى توفير التوافق الكلي الذي يحقق نظام النهج والفكر

بين مختلف لجان الندوة وإلى تأمين التنسيق لمختلف مشاريعها ودراساتها الفكرية الفنية في الاتجاه القومي الاجتماعي، ذلك الاتجاه الواضح الأوسع والمنطلقات في مضامين قضية الحزب واتجاهات المبادئ السورية القومية الاجتماعية وفي أهدافها وغايتها.

وتوجه الزعيم إلى الرفقاء أعضاء الندوة الثقافية الأولى في الحزب الذين يشكّلون دون ريب حينذاك نخبة مثقفي الحزب ومفكره المؤهلين للعمل والتوجيه الثقافي الفكري بين صفوف النهضة والمواطنين قاطبة، إلى هؤلاء المفروض فيهم جدارة تفهم قضية النهضة وتفهم مفاهيمها ومعطياتها المادية الروحية قد توجه الزعيم ليسألهم: «من منكم يرى في نفسه الكفاءة لتحمل مسؤولية رئيس للندوة الثقافية وقد اتضحت لكم كامل خطوط مسؤولياتها ومهامها الأساسية الكبرى؟».

أمام السؤال الكبير ساد الصمت المشوب بالارتباك والتردد وسرى بين الجميع وبسرعة خاطفة تبادل نظرات معبرة تنم عن حيرة متحفزة وتفصح عن تهيّب عميق الإيمان بعزيمته، تهيّب من الإقدام على تنكب المسؤولية، مسؤولية رئاسة الندوة الثقافية الأولى في الحزب السوري القومي الاجتماعي. لكن الوقت لم يمض طويلاً. خلال دقائق معدودات بينما كان بعض الأعضاء يستوضح نقاطاً دقيقة وردت على لسان الزعيم لدى شرحه الأولى لها رفع أحدهم يده مستأذناً الكلام ليقدم نفسه من أجل تحمّل مسؤولية الرئاسة في تلك الندوة مبيّناً مدى استعدادده لتأمين أهم متطلباتها وإحراز النجاح الجيد فيها. وكان ذلك الرفيق السابق زكي نقّاش.

فتلقى الزعيم الاقتراح بملء الفرح والسرور وبادر فوراً إلى الترحيب به والموافقة عليه بالتصفيق للرفيق نقّاش معبراً عن عميق إعجاب به لأي خطوة تدل على ثقة بالنفس، وترسخ تلبية جريئة للمهام مهما كبرت أحمالها

وتشابتك مسالكها. من دون أن يقع المرء فريسة تصوراته للأسوأ ويتوقع
أعقد الاحتمالات المثبطة أو يتهيب محجماً عند توهمه أنه مرمى الاتهامات
بالغرور والتباهي، فالإقدام على حمل أعباء الحياة وأعباء النهضة التي هي
خير تعبير عن سمو الحياة. هذا الإقدام هو ضرورة الوجود وحافز البقاء
والاستمرار للأفضل مهما يكن نصيب الإقدام من الفشل أو النجاح. إن
الإحجام المتردد يؤدي إلى الجمود والفشل الذميمة.

الثقة بالنفس تنبثق عن وعي الحقيقة. أما النزعة الفردية فهي وليدة
روحية التفرد اللا اجتماعية وذهنية التَشَاؤْف الأنانية الضاربة في العيب
والغرور والمغرقة بالسطحية الطائشة المشوهة.

الاعتقال الأول

نحن الآن مع فريق من شعبنا هو أحوَجُ ما
يكون إلى تعاليمنا فلنغتنم الفرصة لنزفَ
إليه ولادة النهضة

لم يراود الزعيم قط أي شك بمقدرة النهضة على إحداث الانقلاب الجذري في عقلية الشعب ووجدانه وإطلاق فاعليته لتغيير مجرى التاريخ. ولم يَنْتَبْ إيمانه بأصالة الأمة السورية أيّ وهن بل ظل يقينه مطلقاً بقوتها على إحراز النصر بفعل تعاليم النهضة السورية القومية الاجتماعية متغلبة أبداً على عوامل التخاذل والاستسلام التي تسربت إلى نفسها من عهد الطفيلان والاستعمار. لم يترك سعادته سانحة تمر ولا فرصة تعبر مهما بدت هذه حرجة وصعبة من دون أن يدعو المواطنين إلى اعتناق العقيدة القومية لأنها أمل الأمة الوحيد، أمل يعتقها من العبودية وينقذها من عقلية التسويات والتسليم إلى الأمر المفعول. «إن فيكم قوة لو فعلت لغيرت وجه التاريخ». ليس من سوري مبدئياً إلا وهو أهل لحمل رسالة النهضة والعمل للانتصار بها على جميع الولايات والنكبات التي طالما كبّلت حيوية الأمة وعطلت قدراتها الفاعلة عن التفتح والنمو والعطاء. وقد سلّم المعلم أنه بالإمكان أن «تتلاعب المفاسد بالأفراد لكنهم لا يستطيعون أن يصمّوا المجتمع كله بالمفاسد التي في نفوسهم».

لدى الكشف عن وجود الحزب وإعلان حقيقة مبادئه وأهدافه للأمة السورية والعالم العربي والعالم بأسره حدث الاعتقال الأول «فكان أول تجربة تتعرض لها قوة المبادئ والمناقب والأخلاق الجديدة». ويصف سعادته للتاريخ كيف وقع معاونوه أعضاء مجلس العمدة وبعض الموظفين المساعدين في حيص بيص وفي حيرة من أمرهم. غير أن موقفه القدوة في الصمود والشجاعة جعلهم يواجهون مسؤولياتهم بريادة جأش لم تكن تخلو آنذاك من بعض الشك والتفكير بالمصير المهم. ويؤكد سعادته أن «من هذه النقطة ابتدأت الثورة الروحية العملية على الخوف والوجل والتهمزب، على صفات الخنوع والذل» التي ألمت بالنفسية السورية زمناً غير يسير. لقد كانت وقفة الحزب إزاء الصدمة الأولى بمثابة نقطة تحول مهمة في بناء نفسية الصمود وتأسيس الوعي لخطورة القضية التي أخذ الحزب على عاتقه تحقيقها. كما كانت صلابته دفقة قوة مكنته فيما بعد من مواجهة مسؤوليات المصير القومي بشجاعة وتصميم عزّ نظيرهما في التاريخ. وفي مجال عرضه للتحويلات النفسية الأخلاقية التي أحدثها صمود القوميين الاجتماعيين أمام سطوة سلطة الانتداب الصارمة يعلن الزعيم أنه: «مع ما ظهر على معاوني الأول والرفقاء الذين سجنوا معهم من ضعف أولي فلا بدّ لي من التصريح بأن فترة الضعف كانت قصيرة وأنهم تحملوا الصدمة هم وعيالهم وأهلهم على أفضل ما يكون. بالموقف الذي وقفناه بين دخول السجن والخروج من المحكمة انتصرت روحية الحزب السوري القومي الاجتماعي على عوامل الزمن العتيق والروحية العديمة الفضائل والمناقب».

إبان تلك التجربة الأولى كانت المصاعب والمشقات تعمل على بلورة مناعة المناضلين في تحمّل تبعات الصراع من أجل النهضة والأمة مدى الطريق الطويلة الشاقة. وقد أعوز بعضهم اليقين بطاقات النهضة على تخفيّ العقبات والمخاطر التي أخذت تجاهاها بقسوة وتحاول أن تهز الثقة

بالنفس والإيمان بالنصر حيناً. فما كان من الزعيم إلا كسر جليد الجمود والصمت الهائم في متاهات المجهول مهيباً بالرفقاء السجناء لتلبية واجب النشاط: «نحن هنا، أيها الرفقاء، مع جماعة متألمة من شعبنا هي أحوج ما تكون إلى وعينا وإرشادنا إياها إلى الحقيقة. فنقدّم إليها تعاليمنا القومية الاجتماعية لتنقذها من جحيم وضعها الموجع وما تعانيه من ألم الحرمان ومرارة البؤس والشقاء. لا بدّ أن نغتني الفرصة الثمينة التي لدينا الآن إلى جانب هؤلاء المواطنين لنا ونزفّ إليهم ولادة النهضة ومبادئها وانبثاق الفجر الجديد من حلك الظلمة لإنارة طريق الأمة. وقد ظننا أعداؤها والعجزة من أبنائها منقرضة. إلى أن جاءت النهضة تحيي الآمال الميتة وتوقظ العزائم الخائرة الحائرة». ثم راح سعادته يتصل بأولئك المساجين ممن حكم عليهم القانون بالإثم والإجرام واحتجزهم بعيداً عن المجتمع لحمايته من شرورهم وأذاهم. وأخذ يدعوهم إلى استعادة ثقتهم بأنفسهم، إلى مراجعة وجدانهم وما أوصلهم إلى حالة الأسر والحرمان البائسة. أفاض الزعيم في شرح أهمية مسؤولياتهم، مع وجودهم في السجن، تجاه تحرير الشعب مما يحدق به من أخطار ومهدّده من غدر الأعداء وتآمرهم بغية تكييله بالمفاسد والمخازي وإخضاعه إلى عوامل التخازل والرضوخ لعبودية المصالح الأجنبية مكثراً بالأغلال والقيود التي توصل الأبواب بوجه حيوية الشعب كما تسدّ دونه منافذ الوعي والتحرر كي تقعده ذليلاً مشلولاً ليغدو فريسة المستعمر وحلفائه من أبناء أمتنا المضللين.

وقد ركز الزعيم حديثه مع السجناء على تبيان ما تنطوي عليه طبيعة نفوسهم المتألمة الناقمة من خير وجمال وما تكتنز من طاقات جبارة وإمكانات قادرة أن تسهم ببناء الأمة السورية الرائدة المؤهلة للنهوض فوق مَهَاوي التفسخ ومَخَازي الدمار حتى تنتصر على جميع العقبات والمؤامرات التي تحاك ضد أصالتها في الداخل ومن الخارج. والمتأمرون هم العاملون

لبثّ روح الانقسام وإثارة المنازعات الداخلية كي نسقط جميعاً أشلاء أمام
تضافر قوى الشر والغدر من أجل القضاء على جميع سمات الحياة فينا.

وليس سوى النهضة السورية القومية الاجتماعية بقيادة على إدراك
حقيقة طاقاتنا وحقيقة مأسينا ومخازينا وهي وحدها تملك العلاج الشافي
الذي يكفل للأمة وحدتها ويبيّن قدرتها الحقيقية لتُقدم على التحرر وتتقدّم
إلى النصر المحتوم.

ففي أدق الظروف حراجةً وأشدها تأزماً وتعقيداً لم يُستفَز الزعيم أو
يُستدرَج لمنازلة الخصوم بغير سلاح النهضة، سلاح المناقب العالية وعتاد
العقلية الأخلاقية الجديدة، لأنه قدوة البناء في ميدان الوفاق والوئام كما
هو قدوة في مجال الخصام والتصادم. وما روحية البناء الأمثل وذهنية
العطاء الأذكي إلا أساس التعامل القومي الاجتماعي ومصدر كل إنتاج حقيقي
أصيل يليق بالنفسية السورية الكريمة التي لا تكف عن العطاء والإبداع.

كُشِفَ أمر الحزب فجر السادس عشر من تشرين الثاني 1935 في الذكرى الثالثة لتأسيسه. وسرعان ما انتشر الخبر في طول البلاد وعرضها، كانتشار النار في الهشيم. فأشغل النبأ الناس على اختلاف نزعاتهم وميولهم السياسية والفكرية. منهم من تلقّاه بإعجاب وترحاب من خلال قيمة مبادئه ونظامه ومن خلال شخصية الزعيم ومواقفه الفدّية، إبّان التحقيق وأثناء المحاكمات أمام القضاء الأجنبي، في المحكمة المختلطة، ومنهم من استنكر أن يقوم حزب من هذا النوع في لبنان ومن هذه التشكيلة «العجيبة النابية»، بنظرهم، التي يتكون منها الحزب، حزب زعيمه من ضهور الشوير - المتن الشمالي - ويقول بسورية والسوريين. وهو لا يحكي عن العرب والعروبة وما يتصل بها من أمجاد عريقة، ولا يتغنى بلبنان الأرز والشربين والقصعين. حزب يقوم على عقيدة ومبادئ أساسية وإصلاحية، ويشدد على النظام والتنظيم الدقيق الانضباط والتلبية، على رأسه شاب، ليس من الوجهاء والمعروفين ولا من العائلات المرموقة حَسَباً ونسباً. وهو يُدعى الزعيم، مطلق

الصلاحيات والسلطات. لا يُنتخب ديمقراطياً، مثل المختار والنائب في بلدنا، بلد الحرية والنور، إنما هو زعيم منذ وجود الحزب ويبقى في مسؤولياته مدى الحياة.

وصلت أخبار الحزب وتضارُب آراء الناس وتعليقاتهم على غرابته وطرافة نوادره أمام المحاكمات، مسامع رجل مسنّ شبه معتكف، لكنّه منفتح الذهن كثير الانتباه، والتتبع لما يدور حوله وعلى ألسنة الناس، ومما استوقفه من غرابة هذا الحزب أن يكون الزعيم من قلب المتن، واسمه أنطون سعادة، ومعظم أعضاء الحزب البارزين أو الذين عُرفوا، آنذاك، هم لبنانيون. ومع ذلك فالحزب سوري «أجنبي» قلباً وقالياً، ويريد أن يضم لبنان إلى سورية «يا للطيش والضلال» فهاله هذا الأمر الشاذ، واستنكره من كل جوارحه، وقرر هذا الرجل المسن، في سره، أن يجد حلاً لهذه المشكلة الشائكة وهي أن يهدي شبان الحزب إلى الصواب والتعقل. وراح يردّد في أحاديثه مع أبناء القرية الجبلية النائية، «هؤلاء الشبان أعضاء الحزب، أولاد أودم»، ولا يجوز لهم أن يشطّوا هكذا، وقد ألمه كثيراً أن يكون «هذا الشاب القبضاي»، الفهيم المتعلم، أي الزعيم، متشبثاً جداً وعنيداً يجابه السلطة ويتحداها. لا بدّ من إقناعه وإعادته إلى الصواب، إلى لبنان الخالد، لبنان الإشعاع. «نيال من له مرقد عنزة في لبنان»، هل يقبل أن يضم لبنان إلى سورية.

وكم كان تأثره عميقاً وشديداً عندما بلغه أنه قد حُكم على الزعيم بالسجن ستة أشهر، وحُكم على باقي الشبان بمدد متفاوتة دون هذه المدة، وصمم الرجل أكثر وأكثر، بينه وبين نفسه أن يسعى يوماً إلى زيارة الزعيم لتقديم النصح إليه، علّه يقنعه بوجهة نظره فيرجع عن فكرته الخاطئة وآرائه الخيالية. شبان لبنانيون، طيبون. يعملون حزياً. في آخر الزمان، لضم لبنان إلى سورية، «يا عيب الشوم على الشباب، ويا لضياح الآمال».

أنهى الزعيم مدة الحكم عليه وخرج من السجن، ما أن بلغ الخبر السار الرجل المسنّ حتى عزم على الذهاب إلى بيروت للتعرف على الزعيم. وفي اليوم التالي، توجه الرجل إلى بيروت، التي هجرها منذ سنين طويلة، من أعالي بلدته الجبلية، متجشماً المشقات والأخطار، وبتكتّم شديد وعناء كبير اهتدى إلى مكتب الحزب، آملاً أن يتفاهم مع الزعيم على ما يجوز عمله وما لا يجوز وأنه لا يليق بشاب كالزعيم أن يصدر عنه مثل هذا وكان واثقاً من أنه سيلقى من الزعيم أذاناً صاغية، وسيحلّ الموضوع بالتّي هي أحسن.

وصل مركز الحزب في شارع المعرض وصعد سلالم ثلاثة متكلاً على عصاه حتى بلغ المرمى. وبعد استراحة قصيرة توجه إلى أحد الشبان هناك طالباً مقابلة الزعيم أنطون، ولما سئل هل أنت على موعد سابق مع الزعيم؟ قال بنبرة الأب الوثاق من مكانته في بيته وبين ذويه: «قل للأستاذ، أنا جيت خصوصي من الجبل حتى أتعرف عليه بدون موعد. هل يمكن أن أقابله اسأله أنت، وردّ عليّ الخبر». فذهب الشاب وأوصل الأمر إلى الزعيم، وخلال دقائق معدودات كان الرجل لدى الزعيم في مكتبه. وبعد تبادل كلمات الود والتقدير لشخص الزعيم بادره قائلاً:

الرجل: أنا سعيد بمعرفتك، وأهتتّك بسلامة خروجك من السجن، لا يهملك، السجن للرجال، كما يقولون، لكني أريد أن أستعلم منك عن مسألة تهمني كثيراً. هل هو صحيح، يا ابني، أنك عملت حزبك حتى تضم لبنان إلى سورية. وكيف يجوز مثل هذا الأمر الغريب؟ ما لنا ولهذه الورطة غير المعقولة، ولا المقبولة. مبين عنك إنك شاب كويس وابن ناس، وكلّك فهم، ما شاء الله، مع ذلك تريد ضم لبنان إلى سورية.

وكان الرجل بادي الارتياح والتقدير العميق للزعيم مع شديد استغرابه المحب لفعلته «المرفوضة» والتي لا تليق بمثله ويجب الإقلاع عنها.

وكان الزعيم يصغي إلى كلمات الرجل بكل جدية واهتمام لا يخلو من الإعجاب والابتسامة تضيء قسمات وجهه الوقور ثم أجابه بعد أن أكمل كل ما أراد الرجل قوله:

«ليس الأمر صحيحاً كما بلغك عني، أنا لا أريد أن أضم لبنان إلى سورية ولا أسعى إلى هذا الأمر أبداً، إنما أريد أن أضم سورية إلى لبنان، وأعمل له وأدعو جميع المواطنين إليه وأمل تحقيقه».

وبسرور بالغ البراءة، وفرحه عارمة، وقف الرجل على أقدامه وتقدم من الزعيم يصفحه بحرارة من لقي ضالاً يهتدي ويعود إلى الوعي والصواب، وهو يردد كلمات الإعجاب والتشجيع.

بارك الله فيك، يا ابني، إذا بدّك تضم سورية إلى لبنان، ما في مانع، ضمّها، كلنا معك. الله يعطيك العافية ويأخذ بيدك ويقويك. إن شاء الله بتحقق غايتك وبتنال ما تتمنى.

ثم نهض مودعاً، ومقتنعاً بصحة ما يرمي إليه الزعيم وهو يردد التأكيد على تأييده له. وصل لي حقي، يا ابني، ضم سورية إلى لبنان، وخلصنا من هالمشكلة. بخاطرك، الله يحميك من أعدائك ويخليك.

نحن من الشعب ونعمل في الشعب لأجل الشعب

سعاده

جرت العادة المتفشية بين أوساط الرجعة أن تتكوّن التشكيلات السياسية من تكتلات فئوية تجمع كميات من شتات الأفراد، أو بالأحرى الأتباع، تحت رعاية ذوي المكانة. يقودونها في ميدان المزايدات الشخصية للتسابق بين أصحاب النفوذ من أجل الوصول إلى المنافع الخاصة والمآرب الخصوصية. وقد صار هذا العرف تقليداً مسلماً به في إنشاء ما يسمى بالأحزاب السياسية. وأحياناً يصفون عليها صفة العقائدية. وليس لها من مضامين الأحزاب ومفاهيم العقائد شيئاً البتة. إنها مجرد أشكال فارغة ومظاهر طنّانة تحاول أن تتلبّس سمة النظام وألوان التنظيم الحزبي. هذه التشكيلات تعبّر عن العقلية الأخلاقية القديمة. تنشئها بهوّزاتها الديماغوجية وتسخرها لعصبياتها الحاقدة في تلاعبها بالعقول الضئيلة والنفوس الضعيفة. فالجماهير الغفيرة الصخّابة في المظاهرات والمناسبات هي قوتها وأداتها للفوضى والتضليل. مهما تكاثرت هذه التشكيلات اللا حزبية

وبذلت في المواسم من الجهود الجسيمة فهي لا تمثل غير التضخم والتراكم الكمي. لأنها عاجزة أبداً عن إنقاذ شيء من معنويات هذه الأمة أو تحقيق هدف واحد من أهدافها السامية.

غير أن الحزب السوري القومي الاجتماعي يُجسّد «فكرة وحركة تتناولان حياة أمة بأسرها». وقد وجد الأعضاء أن سياسة الحزب الداخلية تتجه إلى الاعتماد على القوة الحقيقية، قوة السواعد والقلوب والأدمغة، لا على قوة المكانة التي تستمد وجودها بالأكثر من مبادئ ومفاهيم لا تتفق في جوهرها ولا في شكلها مع المبادئ التي سنجدد بها حيوية الأمة وقوتها». فالحركة السورية القومية الاجتماعية تمثل أمانى الشعب ومرامى حياته الخيرة. لأنها انبثقت من صميم الشعب وهي تعمل في الشعب ولأجله.

لقد تقدّم للانتساب للحزب أحد ذوي المكانة المرموقة سنة 1936. وكان من أصحاب النفوذ العريض والأملك الشاسعة والمزارع الواسعة. حيث يعمل مئات العمال والفلاحين الكادحين. وقد كان إلحاحه كبيراً وإصراره شديداً لتدارس القضية السورية القومية الاجتماعية قبل أن يبتّ بأمر قبوله عضواً في الحزب، مؤكداً استعدادَه الخالص للالتزام الكامل بمتطلبات العضوية وواجباتها. وبعد دراسة وافية لمبادئ الحزب ولغاياته وطبيعة نظامه تمّ لـ «خالد آغا» أداء قسم العضوية وأصبح مذ ذاك الرفيق خالد. ثم تسوّى له أن يواجه الزعيم ويطلّع منه مباشرة على أبعاد نظرة الحزب السوري القومي الاجتماعي وماهية مرامى الحزب في أن «يبعث نهضة سورية قومية اجتماعية تكفل تحقيق مبادئه وتعيد إلى الأمة السورية حيويتها وقوتها». وقد كان الرفيق خالد على شيء وفير من الاطلاع والدراسة وهو يتمتع بقسط جيد من الخبرة العملية التي تتيح مجالاً مجدياً من الاستفادة والاكتساب المتوافر في صفوف النهضة وثقافتها.

وكان على الرفيق خالد أن ينزل سريعاً وبقوة إلى ميدان النشاط والتحقيق في صفوف النهضة و صفوف المواطنين كافة. فيبرهن للملا كيف أن الحزب قد حوّل مجرى حياته من إقطاعي معروف بصلفه وتسلّطه على عمّاله ومزارعيه إلى رفيق قومي اجتماعي، إلى رجل عقيدة يؤمن بالحق والعدالة ويعمل بكل إمكانياته ووجوده لتثبيت حرية المواطن وصيانة كرامته.

لم تمض أشهر قلائل على انتماء هذا الرفيق إلى الحزب حتى جاء يراجع منقذ عام منطقته بخطة عمل خاصة ونافذة جداً بين جماعات عمّاله وفلاحيه. وهي تقضي بأن يترك له المجال الكافي لتطبيق مبادئ الحزب مع هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم أتباعاً له. فيلمسون عملياً معنى الحزب من خلال تعامله الجديد معهم وتعاونه القومي الاجتماعي وإياهم في الحقول والمزرعة والبيت يتفهمون أغراض الحزب ويقفون على حقيقة أخلاقه ونفسية أعضائه بقدوته ومناقبه هو ذلك الإقطاعي السابق. لم يُصِرْ إلى مفاتحتهم بشؤون الحزب وأفكاره ومقاصده. أي أن يتعرف كل فلاح ومزارع من خلال الأعمال القومية الحقيقية على الحزب وكيف تمكن من أن يلغي إقطاعية «الآغا» العريقة إلغاء تاماً وصادقاً. وفيما بعد يَطْلَعُونَ نظرياً على كل مضامين الحزب ومفاهيمه ومناقبيته. هكذا يصبح هؤلاء العمال والمزارعون واعين بسداجة فطرتهم السليمة وبالتطبيق العملي والممارسة الفعلية لما يحمل إليهم الحزب من خير وهناء. يستعيدون واقعياً الثقة بنفوسهم والاعتزاز بكرامتهم بالتعاون والتعامل الفاضل. حينذاك يسعون من تلقاء أنفسهم للتفتيش عن الحزب الذي أعتقهم من نير إقطاعية «الآغا» جاعلاً منه رفيق الجميع وصديق من كان يستعبدهم بالأمس بلا إرغام ولا إكراه. وبدون هذه الطريقة التي يسبق فيها العمل والتطبيق كل قول وكل النظريات مهما بلغت قيمتها وخطورتها لا نصل إلى الشعب، إلى

عقله ونفسه ووجدانه. لسنا في الحزب عارضي نظريات ونماذج أفكار وأقوال إنما نحن بناء النفوس والعقول بالأعمال والأفعال التي تفرض حقيقتها النبيلة البناءة على الوجود بأسره. «نحن نقدّس آلام الشعب، ونبذل نفوسنا فداءً للشعب».

هكذا عمل الرفيق خالد لتكون دعوته لمجموع فلاحيه ومزارعيه وهكذا راح هؤلاء يتلقّنون حقيقة الحزب ويعتنقونها بصلاية فذة وهم يتساءلون عما حدث لـ «الأغا» فغيّر فيه وبَدّل حتى صار ندّاً لخدمه ومحبّاً لـ «أزلامه» حبه لإخوانه وأولاده. ما الذي حوّل - الأغا - فجعله إنساناً بالفعل والسلوك كباقي الناس ومع سائر الناس. ولما قيل لهم إن - الأغا - قد أصبح عضواً في حزب ولذلك لم يعد يتقبل كلمة «أغا» بل غدا يزدريها. وهو اليوم يفخر بأنه الرفيق خالد. وما هو بالفعل رفيق ورقيق وشفيق مع الجميع دون استثناء ولا تصنيف أو تفريق بين الناس. هذا بعض ما هو القومي الاجتماعي الحقيقي وبعض ما تعنيه حياة العقيدة. وما جعل «خالد آغا» يعلو ويسمو إلى أن صار الرفيق خالد الكنج إلّا ذهنية القضية وما يزال بعد أن فارقتنا بالجسد مثال الرفيق بقدوة ذكراه.

ما أن سمع الفلاحون والمزارعون العاملون في أملاك الرفيق خالد كنج إن الحزب يحقق مثل هذه الأفعال الجبارة التي تشبه المعجزات حتى تحولوا هم تبعاً بحماس منقطع النظير وإيمان لا أعمق ولا أصفى ولا أفعال. أجل قد تحول من عُدُوّا عبيداً بالأمس بفعل العقيدة السورية القومية الاجتماعية قد صاروا أحراراً أعزاء تُفاخر النهضة بما يتحلّون به من وضوح الشخصية وما هم عليه من «استقلال نفسي وجوهر أعظم من أي شخص وضع نفسه أداة تسيّر بأفكار بعيدة عن حقيقته».

أجل في المهضة يتم التحول المتألق والخلق الجديد وتتحقق لكل
إنسان الكرامة والحرية. وفيها أيضاً يُصنع رجال العقيدة أصحاء العقل
والنفس ويُبنى الإنسان الجديد، إنسان العقلية الأخلاقية الجديدة الذي
يؤمن بالحق والخير والجمال للأمة السورية. ويعمل مناضلاً للحرية والواجب
والنظام والقوة لتحيا سورية هانئة بقدوة سعادته.

اللقاء الأول مع سعادته

|| لا تكن يا رفيقي صعوبة فوق الصعوبات ||

كانت محافظة اللاذقية التي تشمل حينذاك ما يكون اليوم محافظة طرطوس، مسرحاً لموجة عارمة من العمل لـ «الوحدة السورية»، أي لوحدة تضم كلاً من دولة العلويين ودولة جبل الدروز إلى دولة دمشق عاصمة الشام الشاملة مدن الداخل حتى حدود منطقة العراق الحالية لتجعل منها دولة مركزية واحدة باسم الجمهورية السورية. وكان مدار ذلك النشاط منذ أوائل سنة 1934 يوزع الأهلين، وعلى رأسهم فئة المهتمين بالشؤون السياسية العامة، بين طلاب «الوحدة السورية» والانفصاليين المعارضين لهذه الوحدة. وقد كان للأجنبي، بالطبع، دوره الأساسي في إذكاء روح التعصب والتنازع بشقى الطرق والأساليب الاستعمارية، ما دامت صفوف الشعب البائس تعاني من تضارب نفسيات الأفراد الشخصية مع نفسياتهم العامة في كل ما له علاقة بالقضايا العامة.

في غمرة الانهماك العام بين جماعة الوحدة وجماعة الانفصال التي كانت تستأثر باهتمام الناس وتملاً أوقاتهم توتراً وحماساً أخذ فكر الحزب السوري القومي الاجتماعي يتسرب رويداً وبكل تؤدة وتأني إلى عقول الناس ونفوسهم ويراود سعيهم المتواصل لإيجاد الحلول ومعالجة تطلعاتهم نحو الأفضل. وراح بعض العناصر من الشباب المتحمس والمتقد قدرة على العمل والصمود يتهايمسون حول وجود حزب سري ناشئ في لبنان يتسلل بتكتم شديد إلى أواسط العاملين من الطلبة خصوصاً، للقضية العامة. ويقولون أن نطاق مبادئ هذا الحزب يمتد في سورية الطبيعية بأسرها.

وصل الحديث بالتواتر الحذر عن وجود هذا الحزب السوري القومي الاجتماعي، منذ أواسط سنة 1935، إلى مسامع بعض شبان طرطوس، معظمهم ممن كانوا طلاباً في مدارس لبنان. وتناقلوا فيما بينهم فكرة الاستزادة من المعلومات عن الحزب لاتخاذ الموقف المدروس بشأنه، فكان نشوء مديرية للحزب السوري القومي الاجتماعي في طرطوس تابعة لمنقذية طرابلس خلال أشهر معدودات من منتصف السنة عينها. مديرها الرفيق السابق رياض عبد الرزاق ابن نائب البلدة آنذاك بينما تحمّلت مسؤولية المذيع أولى المسؤوليات الحزبية الإدارية التي أُسندت إلي. ولم يمض وقت طويل حتى بلغ عدد أعضاء مديرية طرطوس خمسة وأربعين عضواً.

في تلك الأثناء كشفت سلطات الانتداب الفرنسي أمر الحزب ونشطت في مطاردة الزعيم مع من عرفتهم من المسؤولين والأعضاء. اعتقلت عدداً كبيراً منهم بتهمة تأسيس حزب سري غير مرخص يعمل ضد أمن الدولة وأنظمتها وقد ساقت من ساقت تعسفاً أمام المحاكم الأجنبية. وقع انكشاف أمر الحزب في السادس عشر من تشرين الثاني سنة 1935 لدى مرور ثلاث سنوات على بدء تأسيسه. فتلقى أبناء الشعب النبا التاريخي الفريد باهتمام بالغ وإقبال بارز على تَسْقُط أخبار الحزب ومتابعة مواقف الزعيم الفدّة إزاء

المحاكمات مع بقية الأعضاء والمسؤولين آنذاك. وغدا الحزب موضع ردود فعل متباينة من قبل جميع فئات الشعب حيث تناولت الأقسام والألسن مبادئ الحزب ونظامه بالإطراء والإعجاب وانهاالت عليه جماعة الإقطاع وفريق من رجال الدين ومن يدورون في فلك أفكارهم ومواقفهم بسيل من الاتهامات ووايل من الإشاعات بغية تشويهه وإبعاد سواد الشعب عن تأييده ومناصرة قضيته. هكذا بدأت أولى معارك التحرير الشعبي على يد العاملين لرسالة الحرية والواجب والنظام والقوة من جماعة الرجعية. وقد سجّل رجال الحزب وقفات العز أمام المثلث المتمثل بالأجنبي المستعمر والإقطاع المتسلط وحفنة من رجال الدين لا تميز بين جوهر الدين وفضائله وبين الطائفية وما تجرُّ من أحقاد مخزية. «وما معركة النهضة سوى معركة الوصول إلى الشعب»، إلى عقله ووجدانه ونفسه. ولا بدّ في كل معركة من مواقف بطولية قدوة ومن هزائم تفرز أصحابها عن صفوف أبناء الحياة المناضلة لسيادة الأمة وكرامتها. لذلك قد تراجع بعضهم عن التزامه، أمام ضغط التسلّط الأجنبي وأعدائه، وإزاء تضليل الإشاعات بأن الحزب هو ضد الدين، ضد العروبة وضد لبنان. وهو حزب لا بدّ وأن يكون عميلاً لإحدى الدول الأجنبية أو لأكثر من دولة عدوة.

وكان من طليعة الذين انسحبوا من الحزب الدكتور علم الدين الذي أعلن انسحابه عبر مقال مُطوّل في جريدة «الأيام» الدمشقية متمماً الحزب بعدم إيمانه بالعروبة.

ما أن وصلت جريدة الأيام هذه إلى طرطوس حتى سارع الرفيق مدير مديرية طرطوس إلى عرضها على رفاق طرطوس طالباً منهم الانسحاب من الحزب الذي لا يؤمن بعروبة الدكتور علم الدين. فكان له ما أراد بسهولة مذهلة إذ وافقه على الانسحاب من الحزب أربعون رفيقاً من أصل خمس وأربعين عضواً في طرطوس. وقد دبّج المنسحبون عريضة «طويلة عريضة»

توجهوا بها إلى مركز الحزب في بيروت بإعلان حل الحزب في طرطوس والعودة إلى قواعدهم العروبية «مسالمين ظافرين». أما الخمسة الباقون فلم يوقعوا العريضة وقد أكدوا لرياض عبد الرزاق استمرار إيمانهم بحقيقة الحركة السورية القومية الاجتماعية مع توكيد عدم استعدادهم لمتابعة أي نشاط حزبي في تلك الآونة.

ثم قرر الخمسة المصممون على إيمانهم بحقيقة عروبة الحزب وجميع معطيات عقيدته أن يرسلوا أحدهم إلى المركز في بيروت لإطلاع عمدة الداخلية على ما جرى للحزب في طرطوس وعلى أسبابه والغرض منه وللتداول نظامياً في ما يقتضي عمله في هذا الشأن. كانت الحادثة أولى اختبارات الحزب بطرطوس. رأى هؤلاء الخمسة الصامدون في موقفهم صعوبة كبرى شديدة المرارة. وتسببت لهم بصدمة بالغة من الألم والخيبة. وقد وقع الخيار عليّ أنا بوصفي مديراً لمديرية طرطوس كي أتوجه باسمهم إلى المركز. وكنت وقتذاك مدرّساً في معهد اللايبك الفرنسي بطرطوس.

توجّهت إلى بيروت في الثاني والعشرين من أيار سنة 1936 لملاقة عميد الداخلية مأمون إياس بناءً على موعد سابق حصلت عليه بموجب رسالة رسمية. وكان قد مضى تسعة أيام فقط على الإفراج عن الزعيم بعد قضائه ستة أشهر في سجن الرمل مدة الحكم الأول عليه. وصلتُ إلى بناية مركز الحزب في بيروت بعد مشقّة وجهد كبيرين لأنني لم أكن أعرف أحداً من الحزب هناك وليس لدي ما يعرف عليّ سوى رسالة عمدة الداخلية التي تحدد لي موعداً مع العميد. دخلت المركز وقدمت الرسالة التي أحملها من عمدة الداخلية إلى الحارس، الذي طلب مني الجلوس، ريثما يُسمح لي بالدخول. فجلست على مقعد ورحت أتأمل الموجودين الذين لا أعرف أحداً منهم. ولكنني كنت مرتاحاً رغم سفري، لما رأيته من حيوية ونشاط فيهم، وبعد دقائق ناداني أحدهم باسعي وطلب مني مرافقته ثم قادني خلال ممر، حيث

أوقفني أمام إحدى الغرف، ثم قرع الباب، وطلب مني أن أتقدمه بالدخول، ثم قام بإعلان اسمي ومسؤوليتي الحزبية للذي في الغرفة. ثم قدّم التحية وانسحب من الغرفة بنظام تام، ليتركني وجهاً لوجه أمام شاب بهي الطلعة، حاد النظرات، حازم الملامح، حنطي اللون أقرب إلى السمرة، ربع القامة ممتلئ الجسم. ما لبثت أن أدركت أنني أمام الزعيم لأول مرة في حياتي وقد كنت أتصوّره أكثر طولاً قبل المثلث أمامه، من خلال إحدى صورته باللباس الرسمي التي نُشرت عنه أثناء اعتقاله والتحقيقات الأولى معه.

دعاني للجلوس إلى جانبه مواجهة في مقعد مستطيل يتسع لثلاثة أشخاص على الأقل وبادرني في الحال:

- ما الخبر عن طرطوس؟

قصصت له كل ما حدث منذ اطلاع المدير رياض على مقال الدكتور علم الدين المتضمن انسحابه من الحزب بسبب عدم أخذه بالعروبة كما يراها هو إلى أن وُضعت العريضة بانسحاب أربعين عضواً من قوميّي طرطوس لُترسل إلى المركز معلنة حل الحزب فيها وقد توقّفت ملياً لدى موقف الأعضاء الخمسة من هذه العملية وما تفرّدوا به من صمود وحنكة بالنسبة لمجموع الأعضاء.

- إذن المسألة هي مفاجأة الدكتور علم الدين ورياض عبد الرزاق بخروج الحزب عن مفهومهما للعروبة. فكيف ترون مجال العمل من جديد في طرطوس وأسلوب إعادة شق الطريق أمام هذه العقبات المعلنة في وجه الحزب بطرطوس؟

أخذت أروي له ما كان ينتظره الحزب لولا ذلك الحادث من انتشار وانتصار في المحيط سواء بمدينة طرطوس أو قراها العديدة القابلة للأخذ

بالفكرة السورية القومية الاجتماعية وما صارت تشكّله هذه الحادثة في سبيل عمل الحزب من صعوبات وصعوبات شديدة الوجود.

وأسهبت الشرح عما ينتظرنا من الصعوبات الشديدة في المراحل القادمة وما يفرض علينا إعداده والتحسّب لمواجهة تلك الصعوبات بقسوتها وصلابتها.

كل هذا التفصيل والتطويل قابله الزعيم بإصغاء هادئ عميق كان يتخلّله بين الحين والآخر ابتسامة عابرة لكنّها جدُّ معبرة لم يكن ليخفي تلك الابتسامة المتأملّة حتى وصلت بحديثي المطول عن الصعوبات وخطورتها بحماسة واندفاع جامح جعل الزعيم يستوقفني بكلمة حاسمة: «لكن يا رفيقي لا تكن أنت صعوبة فوق الصعوبات». ثم عاد إلى صمته المتأنّي كمن ينتظر مني المزيد من الإسهاب في وصف الصعوبات التي كنت أتصوّرّها بل أتوقّعها في مسيرتنا الحزبية المقبلة بالرغم مما كنت أبدوّيه خلال الحديث من استعدادنا نحن الخمسة الباقون في الحزب بطرطوس لتحمل المسؤوليات وتحمل تلك الصعوبات الناجمة عنها.

بعد أن قال لي الزعيم بالأّ أكون أنا نفسي صعوبة جديدة تستلزم هي ذاتها المعالجة ارتجّ عليّ ولم يكن بإمكانني متابعة الحديث عن أي أمر بل صرت أحرار فيما أقول وكيف أقول ما أرى ضرورة قوله والإفصاح عنه. حينذاك استدرك الزعيم تلعثي بالكلام وتعدّزّ إفصاحي عن أي فكرة أو إبداء أي رأي. فاستدعى بنفسه عميد الداخلية وطلب منه إعطاء الأعضاء الخمسة الموجودين في طرطوس تفويضاً بمسؤولية الدعاية والإدخال بين صفوف المواطنين في قضاء طرطوس على أن يكونوا مسؤولين مباشرة عن أعمالهم الحزبية أمام عمدة الداخلية.

هكذا بدأت مرحلة جديدة مهمة من تاريخ العمل الحزبي في طرطوس والقرى التابعة لها. والحزب وحده يعرف كم كنا نحن الخمسة، أو كنت أنا شخصياً صعوبة فوق الصعوبات التي يواجهها طبيعياً العمل السوري القومي الاجتماعي في معركة انتشار الحزب في صفوف الأمة السورية وميادين انتصاره المحتّم على كل صعوبة في طريق الحياة الطويلة الشاقّة.

الشخص «الآدمي الطيب» أَرْوَجُهُ ابنتي، لا أَسَلِّمُهُ مُقَدَّرَاتِ البلاد

للدلالة على تطور المجتمع ووعيه وسبل النهوض علامات ومؤشرات متفاوتة من حيث الأهمية والوضوح. منها نظرة الشعب إلى ماهية السلطة ومعنى المسؤوليات التي يتولاها الأفراد لتصريف مختلف شؤون الشعب. ومنها أيضاً نظرة الأفراد أنفسهم إلى مدلول تلك السلطة التي بين أيديهم وإلى كيفية التصرف بها وممارستها بالنسبة إلى أشخاصهم هم وإلى المصلحة العامة عينها.

فالشعوب المتخلفة التي يتفشى التفكك في بنيتها الاجتماعية وتعاني وطأة الفوضى والميوعة في عقليتها الأخلاقية، هذه الشعوب ترى في السلطة نوعاً من الامتياز يُمنح لعدد من الأفراد أو ضرباً من غنيمة ينالها البعض عنوة حتى تصبح حقاً مكتسباً لأصحابها يمارسونه كيفما شاؤوا. وللشعب أن يتحمل النتائج التي تفرض عليه حسنة كانت أو سيئة.

والأفراد في الشعوب المستعبدة يحسبون السلطة أداة خاصة لتأمين حاجاتهم الخصوصية وتوفير لمنافع والمكاسب لأشخاصهم هم. وما على الشعب إلا الرضوخ والتسليم لما يقررون. لأن المجتمع بنظرهم وسيلة لتحقيق الأغراض الشخصية. إنهم مصدر السلطات ومنشأ النعم يوزعونها على الشعب وفق رغباتهم وشهواتهم.

أما الشعوب المتطورة التي بلغت مستوى الثقة بنفسها ووعي حقيقتها فقد أدركت أن السلطة مسؤولة لخدمة المصلحة العامة من أجل خير الشعب ورفاهه وازدهاره.

وإن الأفراد في الأمم، التي تفهمت معنى السيادة والكرامة، ينظرون بدورهم إلى السلطة على أنها وسيلة لخدمة الأهداف القومية والمصالح الاجتماعية التي لولاها لما كانت الشرائع والقوانين وانتفت الحاجة إلى جميع السلطات.

لقد وقعت أمتنا فريسة حُكام يرون أن السلطة هي ميراث موروث وملكية خاصة، ضارِبين عرض الحائط، بالقدرة التي قد يتحلّى بها البعض من غنى وتفوق تخوّلهم حق القيادة، والسير بالأمة لمجاراة سائر الأمم الحيّة.

حدث مرة في أحد كيانات الوطن أن تسلّم أحد النافذين مركز رئيس مجلس الوزراء. واستمر في منصبه هذا السنين الطوال، رغم تقلّب الأحوال وتبدّل الأوضاع المتعاقبة في الأمة السورية والعالم بأسره. حتى فاحت روائح الأعبية واختلاساته. وشاعت تنانة صفقاته لمأرب ذويه وأزلامه. وملأت الأنوف والنفوس اشمئزاً. وليس من سبيل لزعزحته وتحرير رئاسة الحكومة من تكالبه، وإراحة كاهل الشعب من جشعه وارتكاباتة. لقد عمّت البلبلة بين الناس الراضخين بمرارة إلى النظام الإقطاعي الذي يوشك أن يودي بمصالحهم ويقضي على كرامتهم القومية. وأثير موضوع استقالته أو إلزامه

على الاستقالة. وأخذت الألسن تتداول أسماء من يمكن أن يحل مكانه، وقد رجح ورشح من راح الناس يتنادون بنزاهته وصفاء أخلاقه. وأنه «آدمي طيب» لا يسرق ولا يتلاعب بمقدّرات الدولة ومصالح المواطنين. فشعر الناس لطيب أصلتهم وصفاء فطرتهم أنهم مقبلون على فرج كبير لأول مرة منذ أكثر من جيل. وقد عاودهم الأمل بمستقبل جيد لمجرد تصورهم إمكان التخلّص من صاحب الدولة المنتشب «بالكرسي» تشبّث عزرائيل بأرواح ضحاياه الأبرياء العزل. ولم يبق مواطن إلا وأسهم في الفرحة الكبرى بالإنقاذ العتيد. إلى أن كنا ذات مرة في سهرة قومية اجتماعية بحضور الزعيم. فرُدّد أمامه خبر الانتخابات. وقد يؤتى بالآدمي فلان الذي لا يسرق ولا ينهب ولا يختلس ولا... لتسلّم سدة رئاسة الوزارة عوض عن فلان الشهير بشوائبه.

فابتسم الزعيم مستغرباً والتفت إلى المهللين لمجيء الآدمي إلى الحكم

قائلاً:

«الطيب الآدمي أزوّجه ابنتي لكنتي لا أسلمه مقدرّات البلاد». لا خلاص ولا إنقاذ للأمة من ويلاتها إلا بحركة التغيير الجذري في العقلية الأخلاقية القديمة البالية واعتناق العقلية الأخلاقية الجديدة، عقلية الحرية والواجب والنظام والقوة لإقامة الحق والخير والعدالة بين الناس وفي عقولهم ونفوسهم. ولن تتم أي فائدة للأمة من تبديل أشخاص بأشخاص. وهم يتسابقون لتمكين الفساد وإفساد أصالة الشعب.

صدقتم، يا دولة الرئيس، إن ما نستعمله
غاية وجودنا تستعملونه أنتم وسيلة
لمنافعكم الخصوصية

سعاده

كان يقود النضال السلمي في الشام ضد الانتداب الفرنسي جماعة
الكتلة الوطنية طيلة خمس وعشرين سنة ونيف. في أدقّ مرحلة من مراحل
هذا النضال وأشدّها عنفاً واحتداماً كُشف أمر الحزب السوري القومي
الاجتماعي، فكان لإعلانه ونشر مبادئه وأهدافه دويٌّ كبير لدى الرأي العام
السوري وأمام السلطة الأجنبية والعالم. إثر انكشاف وجود الحزب في
السادس عشر من تشرين الثاني سنة 1936 رُجّح بالزعيم وبمن عُرفوا من
المسؤولين والأعضاء في السجون اللبنانية. وقد وُجّهت إليهم تهمة تأسيس
حزب سياسي والعمل له من دون ترخيص رسمي من قِبَل الدولة. وانتهت
المحاكمة أمام المحكمة الفرنسية المختلطة بالحكم على الزعيم بالسجن
لمدة ستة أشهر ولمُدِّد متفاوتة دون الستة أشهر على سائر المسؤولين آنذاك،
وبحلّ الحزب واعتباره غير شرعي.

إبان اعتقال الزعيم وقعت أحداث عنيفة جداً من مظاهرات وإضرابات واسعة شملت مدينة دمشق وبقية المدن الشامية الكبرى ضد سلطات الانتداب الفرنسي، مما أدى إلى تراجع هذه السلطات تحت وطأة الضغوط الشديدة وإلى قبولها، ولو بالظاهر، مبدأ تشكيل وفد سوري من الشام لإجراء مفاوضات ثنائية في باريس. وقد تنبّه الحزب إلى أهمية تلك المناسبة وودّ استغلالها لمصلحة الأمة إلى أبعد الحدود. فأصدر الزعيم ما دُعي بالبلاغ الأزرق ندّد فيه بتصرفات المستعمر وتماديه في الضغط على الحريات العامة وأشاد بوقفه الشعب المُشْرِفَة في سبيل كرامته وسيادته. وضَمَّنَ البلاغ تميّنه على الوفد المفاوض بأن يتبنّى مطالب الحركة السورية القومية الاجتماعية بالسيادة والاستقلال وأهمّها الإصرار على طلب استفتاء الشعب في لبنان بشأن ضَمِّ لبنان والشام. وقد كانت الظروف، على مستوى الوطن السوري أو بالنسبة إلى أوضاع فرنسا الداخلية، جدُّ ملائمة لمثل هذه الخطوة المهمة، والنفوس مهتأة لاتخاذ هذا الموقف القومي الشجاع.

لكن قادة الكتلة الوطنية لم تُعزِّز هذا الموضوع الاهتمام الجدي ولم تكثر لوفد الحزب الذي توجّه إلى دمشق حاملاً لحكومتها البلاغ الأزرق مرفقاً بمذكرة من الزعيم بتأييد موقفها ودعمه مع الاقتراحات العملية التي كان يرى ضرورة الأخذ بها واعتمادها لأهميتها القومية. وكانت حجّة جميل مردم بك رئيس الوزراء الشامي، آنذاك، إن الظروف غير ملائمة لمثل هذه المطالب المحرّجة للجانب الفرنسي، وأضاف إن الحزب السوري القومي الاجتماعي مشكوك بعروبتة ولا يجوز له، والحالة هذه، أن يحشُر أنفه في مثل هذه الشؤون. منذ ذلك الحين أخذت مواقف الكتلة الوطنية تتكشف عن محاربة صارمة لنشاط الحزب وانتشاره الواسع دون أي مبرّر لهذا العداء إلا الافتراء القائل بأن الحزب هو ضد العروبة ومن دون اللجوء إلى أي حوار أو بحث حول هذا الاتهام الباطل. ولكم اتَّخذ هذا الاتهام وسواه

ذريعة واهية لتغطية خلفيات المتأمرين على وجود الحزب وحجب نواياهم التي لا تمتُّ إلى المصلحة العامة بأي صلة ولا تنمُّ إلا عن جهل مطبق مع خلوّها من أي مبدأ أو فكر.

في عهد رئاسة جميل مردم بك للوزارة الشامية سنة 1936-1937 سُليح لواء الاسكندرون عن جسم الدولة السورية وضُمَّ إلى الدولة التركية عنوة. فتصدّى دولة رئيس الحكومة لهذه المؤامرة بإلقاء التصريح الديماغوجية مؤكداً من على المنابر «إن الاسكندرون عربية وستبقى عربية إلى الأبد». ولما لم تفعل التصريح «المردمية» فعلها السحري في ردّ الجيوش التركية والفرنسية عن سليح لواء الاسكندرون وإلحاقه بتركيا وفي تفشيل المؤامرة الدولية ضد سيادة الأمة السورية واستقلالها، تصدّى مردم بك بجديّة أكثر للاعتداء الأثم بتصعيد حدة التصريح قائلاً: «لا ضير علينا من إلحاق الاسكندرون بتركيا، إن هذه العملية ستخرج تركيا نفسها وتوقعها في ورطة مستعصية لأنها لن تستطيع هضمها وابتلاعها وسوف تنال جزاء فعلتها واعتدائها علينا من جراء هذا الضم». فما كان من جريدة الحزب «النهضة» التي كانت تصدر حينذاك في بيروت إلا أن تلقّفت التصريح وأبرزته في صدر صفحتها الأولى معلقة عليه: «إذا صح قول دولة رئيس وزراء الشام بأن ضم لواء الاسكندرون إلى تركيا، هو بمثابة ضربة ستقضّ مضجعها وتضعها في مأزق مصيري، فكم سيصيبها من ويل وأذى لو تقدمنا إليها بأجزاء أخرى من وطننا، ألا تكون هديتنا إليها ضربة قاتلة تجعلها عبرة لمن تُسوّل له نفسه الطمع في الاعتداء على سيادتنا والنيل من استقلالنا؟ فما رأي دولة مردم بك بهذا النوع من العلاج كي نقضي به على أعدائنا؟».

وكان مردم لا يدع مناسبة أو مجالاً إلا ويبادر إلى رمينا بفرية إثر أخرى لتشويه حقيقتنا وتزوير مواقفنا ومقاصدنا. لكن هذه الافتراءات كانت تذكّر الناس بمهزلة منطقته العجيب الذي أنقذ به لواء الاسكندرون وجعل سليخه

عن الجسم السوري نكبة على تركيا وفرحة لسورية. وكان أهم ما يزعجه منا أننا لا نأخذ بالعروبة الوهمية حسب مفهومه الديقماغوجي المعتمد على فيض التصاريح وسيولة «الهُوَرَات» كَمَنْ يودُّ أن يريح الحرب «بالنظارات». وقد صرَّح بهذا الصدد مرة «إن ما يستعمله الحزب السوري القومي الاجتماعي غاية له نحن نستعمله وسيلة». أي أن العمل لسورية الذي هو غاية الحزب هو لدى مردم بك مجرد وسيلة لقضية الأمة العربية ليس إلا. فما كان من جريدة «النهضة» إلا أن تناولت هذا التصريح الطريف بكل عناية لائقة وردّت عليه بتأكيدهما على صحته: «حقاً إن ما نستعمله نحن غاية لنا وهو مصلحة سورية وسيادتها وحريتها تستعمله دولتكم مجرد وسيلة خاصة لمنافعكم وأغراضكم الخصوصية». فأغضب صاحب الدولة هذه المرة. وتجاوز في انفعاله حرب التصاريح إلى إصدار أوامره المشدّدة بمنع دخول جريدة الحزب أراضي الجمهورية الشامية تحت طائلة أقصى العقوبات. لكنه مع ذلك ظل يتلقّى الجريدة كل صباح في مكتب رئاسة الوزارة دون انقطاع طيلة أسابيع. ولم تستطع جميع تحقيقاته ووسائل حكمه آنذاك أن تعرف من هو المتحدّي لقرار دولته، ولا كيفية تخطّي هذه الجريدة المحرّمة الحدود الشامية ووصولها حتى مكتبه بالذات. وما زال هذا الحادث لغزاً طيّ الكتمان التام يتندّر به من يذكر عهد الضغط على الحريات في بلد الحريات، في الأمة التي كانت دائماً رائدة الحقيقة و الحرية للعالم بأسره. وستبقى الأمة السورية منبت الرسائل والعقائد العاملة للحق والخير والجمال.

طَوَّلَ له الحبل. فإِما أَن يشنق نفسه
بالحبل أو يُنقذها به. وتظلّ الثقة أساس
كلّ بناء وكلّ تحقيق

سعاده

أُفرج عن الزعيم للمرة الثالثة من السجن مع العديد من المسؤولين
الحزبيين 1937 بعد أن انكشفت سرّية الحزب. وحينها جرت انتخابات نيابية
عامة في الجمهورية الشامية. خاضها الحزب في معظم المناطق بزخم قوي
وفاعلية مقدامة لفتت إليه اهتمام الأصدقاء والخصوم وكان للحزب
مرشحون من أعضائه في بعض الدوائر الانتخابية وفي بعضها مرشحون من
أنصاره ومن المناطق الشامية التي تميزت بنشاط الحزب الفعال دائرة
طرطوس الانتخابية حيث برز التنافس عنيفاً وكثيفاً بين كثرة من المرشحين
الأقوياء بمالهم ومؤيديهم. وكانت طرطوس آنذاك من أقوى منقذيات الحزب
في الجمهورية الشامية وكان عليهما أن تتدارس الوضع الانتخابي والشعبي بكلّ
روية وموضوعية لتحسن اتخاذ الموقف الملائم لمناقب الحزب ومكانته
المرموقة.

لدى تداول أوضاع طرطوس الانتخابي من قبل أعضاء هيئة المنقذية توزعت الآراء كثيراً وتضاربت وجهات النظر بشدة تعذر معها التوصل بسهولة إلى اتخاذ موقف مُوحَّد لاختيار مُرشَّح بمؤازرة قوى الحزب. ولما طالت الأبحاث وتشعبت التقديرات حول كلِّ من المرشحين رأى المنقذ العام بالوكالة الرفيق الدكتور ابراهيم يازجي أن يرفع إلى المركز في بيروت اقتراحاً مُعلَّلاً بمناصرة الحزب للمرشح عيسى جميل عرنوق، عملاً بصلاحياته الدستورية. وقد كنت بوصفي ناظراً للإذاعة، ممَّن خالفوا هذا الاقتراح وسجلوا في تقرير خاص أسباب هذه المخالفة رُفِع إلى عمدة الداخلية مع اقتراح المنفذ العام وقد ضمَّنت التقرير طعناً بزاوية موقف المنقذ العام بالوكالة ممَّماً إياه بالانحياز لصالح المرشح عيسى جميل عرنوق باعتباره ابن عمِّه مع بيان الأدلَّة على ذلك. وبعد أيام قلائل من موافاة المركز بدراستنا للوضع الانتخابي في طرطوس واقتراحاتنا بصدد الموقف المناسب اتخاذه من المرشَّحين. جاءنا الجواب بوجوب تأييد الحزب للمرشح عيسى جميل عرنوق أي بالموافقة على اقتراح المنفذ العام بالوكالة. ثم جرت الانتخابات وأبدت فيها صفوف الحزب بطرطوس منتهى الفاعلية والانضباط وأعطت للمرشح عيسى عرنوق أبرز تأييد وأفضل دعم وقد قارب النجاح بعدد قليل من الأصوات مؤكِّداً صلابة جبهته ومثانة شعبيته ثم استؤنفت الأعمال الحزبية بنشاطها المعهود بينما كنت أترقَّب الفرصة السانحة لي كمدرس في معهد اللاييك الفرنسي لأتابع مع المركز موضوع اتِّهامي للمنقذ العام بالوكالة بخصوص سلوكه من الانتخابات. وفي تلك الأثناء تلقت المنقذية مرسوماً من الزعيم بترفيح الرفيق الدكتور يازجي من مسؤولية منقذ عام بالوكالة إلى رتبة منقذ عام طرطوس. استوقفني هذا التدبير وأشكل عليّ تعليقه كما صعب عليّ تقبُّله بارتياح واطمئنان. وقد هالني أن يحدث مثل هذا التقدير لمن تحوم حوله الشكوك وهو ما يزال موضع اتهام خطير وقيل أن يصار إلى

إجراء أي تحقيق معه. ثم سارعت إلى الاتصال بعمدة الداخلية للحصول على موعد قريب من أجل معالجة الوضع الشاذ لمنقذية طرطوس ظلماً مني أنّ هنالك غموضاً معيباً يتوجب الكشف أو وجود حلقة مفقودة يقتضي بحثها مع المركز لإعادة الأمور إلى نصابها. وبدأتُ المخاوف تنتابني بسبب الثقة التي مُنحت للرفيق الدكتور يازجي وهو غير أهل لها بنظري وما قد ينجم عن وضع الثقة في غير موضعها من ضرر يصيب الحزب ويعيق سلامة استمراره في طرطوس. وقد خامرني الشك بصحة تطبيق العدالة في التدبير الذي اتخذه الحزب أو اعتماده المعلومات الخاطئة أساساً لتصنيف الأعضاء وتقييم إمكانياتهم ومؤهلاتهم.

وقد هزّتي تصور ما تؤول إليه حال منقذية طرطوس بعد التدبير الذي اتخذ كأنه مكافأة لمن يُسيء إلى مصلحة الحزب. لم أكن قادراً حينذاك على أن أركز تفكيري بما حدث ولأن أضبط اضطرابي لتحليل الأسباب واستشفاف العوامل التي حَدَّتْ بالزعيم إلى منح ثقته لمُتهم يجب معاقبته أو مؤاخذته على الأقل.

أمتني الحادثة خاصة وأني كنت لا أزال في مطلع حياتي الحزبية وبداية تكوّن اختباراتي الأولى لتفهم معاني المؤسسات الحزبية وفحوى الإجراءات التي تعتمدها في الكشف والتوجيه والبناء.

وتوجّهت إلى بيروت للاتصال بالجهات الحزبية المخوّلة بمعالجة الأمر وأعددت نفسي على أن أكون شديد المصارحة لما كنت أعانيه من ألم مرير نتيجة إهمال عمدة الداخلية لشكواي ضد المنفذ العام ومكافأة الحزب له جزاء سوء تصرفه في توجيه الموقف الانتخابي خدمة لقريبه المرشح. وعزمت على أن أواجه الزعيم إذا اقتضى الأمر ليس فقط بما أرى وما لدي من أدلة على اتهام المنفذ العام بل بما خامرني أيضاً من ظنون وحرّ في نفسي من

شجون تجاه الثقة المجحفة بالحقيقة التي أولاها الزعيم إلى الرفيق الدكتور يازجي آنذاك. وصلتُ المركز وأخذتُ أسرد لعميد الداخلية نعمة ثابت كل ما يتعلّق بوضعية منقذ عام طرطوس ومسلكه إبان المعركة الانتخابية لكنه قاطعني بتؤدة ولباقة ليتابع هو ما كنت أودّ أن أخبره به عن طرطوس ومنقذها وغير منقذها. كأنه كان على علم مسبق بما لدي وما يدور في خلدي ويشغلي من هموم على مسيرة الحزب في طرطوس. ثم غادرني مستأذناً إلى غرفة مجاورة وعاد منها خلال دقائق ليدعوني إلى مقابلة حضرة الزعيم.

قابلني حضرة الزعيم بابتسامة مستحبة مُرَجَّباً، ابتسامة تنم عن ارتياح عميق راح يغمر قلبي بعناية ودراية مطمئنة من جهة ومشجّعة من جهة أخرى على الكشف الكامل عمّا يعتمل في نفسي من قناعات وما في ظنوني من تقديرات دون أي تردّد أو تحقّظ أو تهيّب. عرضت أمام رحابة الزعيم الحافلة بعمق الأبوة كل دخائل فكري وخفايا مشاعري وجوانب تصوراتي بما فيها من غموض وسداجة بريئة. وكان الزعيم يأخذ بيدي وهو يصغي إلى كل إشارة تبدر مني ليبدّد جميع أوهامي ومتاعبي ويشجّعني على المضيّ في تنفس الصعداء وأنا أعلل أفكارني وأفند اتهاماتي بعجزها وبجبرها. ما أروع تحمّل الزعيم الحميم لجموح براءتي المشدود، ولاقتحام براءتي كل معقول وكل صحيح بدافع تخوّفها البدائي على الحزب وقلقها على مصيره البالغ منتهى الغلو والمبالغة المتدقّقة حرصاً أنفعالياً على سلامة الحزب لكن لا ريب في صفاء إيمانها. يا لبلاغة صمته وصفاء تأمله النابض بالحياة المفعم بالثقة واليقين المطلق بأن الصحيح وحده هو الباقي منتصراً في خضمّ كل الأخطاء والأخطار. لا زلت أرتوي من رحيق هاتيك العبر وقد مضى عليها أربعون عاماً ونيّف وأخالني الآن أصغي إلى كلمات الزعيم تقول أبدأ:

يا رفيقي أخذ المركز بجميع شكوكك حول تصرف منقذ عام طرطوس، لذلك وكى لا تجمد التهم المنسوبة إليه في حيز الشك بل تخرج إلى اليقين

المسند إلى الوقائع الثابتة. ولئلا يحكم الإنسان بالشك ويُدان بالظنون بل يظلّ بريئاً حتى ثبوت إدانته بالأدلة والشواهد القاطعة، ومن أجل أن يُقطع دابر الشكّ فلا يطول أجله بالتردد والدوران حوله والترتّب به في الخفاء. لهذه الأسباب كلها التي تكترس مبدأ الحرص على العدالة وضرورة الأخذ بها بجرأة وحزم، اقتضت الضرورة، انطلاقاً من الشكوك الواردة بحق المنفذ العام، أن يُمنح مزيداً من الثقة ويُعطى متسعاً من المجال ليتصرّف بحرية وأمان فيثبت يقيناً إمّا أنه بريء مما نُسب إليه أو يثبت يقيناً أنه مذنب غير جدير بالثقة. ونصل هكذا بالإثبات الخالي من أي شك إلى الحكم له أو الحكم عليه. نُطوّلُ له الحبل وهو حرّ أن يشنق نفسه به أو ينقذها. وتطلّ الثقة الواعية الموجهة السبيل إلى كشف الحقيقة، وإثبات كامل مناعتها ومطلق صوابها. ولسنا بخائفين على الحزب من أحد لأن الجسم السليم لا بدّ له عاجلاً أو آجلاً أن يلفظ المادة الغريبة عن جوهره أما إذا تناسبت مع أصلته فهو يعرف كيف يمتصها ويتمثلها قوّة وقدرة وعافية متجدّدة مهما طالّت مراحل معاناته لتحملها ومضغها. ففي النهاية كل مصير تقرّره معاً طبيعة الجسم المستوعب وطبيعة تلك المادة المعدة للتفاعل والامتصاص من أجل تأمين المصير الأوحده والهدف الأمثل «أما طريق الحياة فلا يثبت عليها إلا الأحياء وطالبو الحياة بوقفات العز التي لا تنضب. ويسقط الأموات على جانب الطريق».

نحن حقاً أولاد من حيث الطهارة وقابليّة النمو

سعاده

بمناسبة الإفراج عن الزعيم من سجن الرمل أواسط سنة 1937، حضرتُ إلى بيروت برفقة وفد من أعضاء منفيّة طرطوس لإلقاء السلام عليه وتهنئته بالعودة إلى حرية العمل والنضال القومي الاجتماعي بعد ذلك الاعتقال الجائر. وقد ضمّتنا السهرة في منزل رفيق من رأس بيروت مع الزعيم وعدد من الأمناء والرفقاء القدامى. وكان الحديث يدور حول تمادي السلطة الفرنسية في تشديد ملاحقة النشاط الحزبي وتحركات القوميين الاجتماعيين في كل مكان من لبنان. وتناول البحث ما كانت تقوم به من حملات صحفية مركزة ضد مبادئ الحزب وضد نظامه وشخص الزعيم بالذات. وما كانت تعتمده من أساليب لإثارة الشعب بكل فئاته ضد أهداف الحزب وغاياته «الهدّامة»، مؤكدة أنه يعمل على تقويض الكيان اللبناني وإحاقه عنوة بسورية، أي بالجمهورية الشامية. ويتنكر أيضاً للعرب والعروبة فضلاً عن كونه دعوة صريحة إلى الكفر والإلحاد. هو حزب عميل

لإيطاليا الفاشية وألمانيا النازية مدّعياً السعي إلى تحرير البلاد من الانتداب الفرنسي بينما يعمل لخدمة أغراض استعمارية. كانت الملاحظات تفنّد اضطهاد الحزب من قبل الأجنبي وزبانيته من العملاء والمدسوسين. وتركّزت في قلق الفرنسيين والأجانب من انتشار الحزب وسرعة نموه في كل أوساط الشعب، وفي تخوّفهم من صلابة مواقفه ولحمة صفوفه المرصوصة التي تجمع جميع فئات الشعب وعناصره.

وأتّسع البحث في توقّفه عند انجراف الإقطاعيين عامة وفريق من رجال الدين مع تيار العداة للحزب وتأييدهم لتدابير المستعمر المعادية لوجود الحزب دون وعي لمغبّة هذا الضلال والتضليل ودون أي اهتمام بدراسة مبادئ الحزب وأهدافه للوقوف منها، وبالتالي، موقف الدارس المسؤول لا موقف الغبي التابع أو المأجور المرتزق من خلال المنافع الخصوصية والأغراض الخاصة.

كان الزعيم يحلل هذه الظاهرة النابية والتي سجّلها ذوو المنافع الخصوصية بتلاقيهم على الصعيد نفسه مع نوايا المستعمر وتصرفاته الطاغية ضد وعي الأمة لشؤونها الأساسية وقضاياها المصيرية. لقد كان أصحاب النفوذ والمكانة التراكمية بمعظمهم عوناً كبيراً لمخطط الاستعمار منذ نشوء الحزب وبدء انتشاره في صفوف الشعب. ثم أخذ الزعيم يقارن هذه الظاهرة المنحرفة بإقبال الشعب على تتبع أخبار الحزب وأعماله ومواقفه بشغف عميق واهتمام بالغ الجدية والصفاء.

في تلك الأثناء أطل علينا شاب وسيم في مقتبل العمر معتدل القامة ممشوق القوام، واضح ملامح الوجه، صافي النظرات المعبرة عن إيمان وتصميم. فتوجه نحو الزعيم بخطى هادئة قوية، وألقى عليه التحية القومية الاجتماعية بصوت متّزن النبرات متّقد الإيقاع، ممّا لفت إليه

الأُنظار واتجه إليه الانتباه كأنه موفد إلينا بمهمة من جهة معينة. توقّف الحديث هنيئة وساد الجميع صمت من يتربّب إعلان خبر ذي بال. وقد امتلأت نفسي آنذاك بشوق مُلجّ للتعرف إلى الشاب وسيم المظهر والمسلك. ما كاد الرفيق يلقي التحية حتى أذن الزعيم له بالجلوس قائلاً هات ما عندك من طريف الأخبار. فارتفع في الحال صوت الرفيق فؤاد سليمان يملأ أرجاء القاعة صفاء وعزيمة صادقة ليعلن: «نحن اليوم يا حضرة الزعيم، أمام تهمة طريفة جديدة، تهمة أننا حزب أولاد». ثم توقّف فجأة كمن يستفتي الزعيم لما يقتضي عمله ويستوجب اتخاذه من تدايير حاسمة للرد على جماعة المفترين عليهم يتعلمون كيف يحسبون لهؤلاء الأولاد حساب الرجال. أدار الزعيم نظره في وجوه من حوله من الرفقاء والأمناء كأنه يستوحي من عنفوان رجولتهم ما يفحم به مزاعم المغرورين المستخفين برجالات النهضة. وخاطب الرفيق فؤاد بصوت خافت النبرات عميق الهدوء واليقين: «نعم، يا رفيق فؤاد، نحن حقاً أولاد من حيث الطهارة وقابلية النمو».

ما أن تلفّظ الزعيم بهذه العبارات حتى دوّت القاعة، بضحكات الحاضرين كأنها تصفيق الاعتزاز بطهارتهم القومية الاجتماعية وقابليتهم النبيلة للنمو، وراحوا يتبادلون نظرات تنمّ عن تهنئة بعضهم بعضاً وهي أنهم مثال الطهارة بالفكر والتعامل والأخلاق، مستمرّون في النمو والتطور والانفتاح على الشعب كله ليكونوا دائماً رجالاً وقدوة الرجال في ترسيخ قيم النهضة القومية الاجتماعية وفضائل الأصالة السورية، المتفوّقة بطهارة العطاء وانطلاقة النمو والبناء.

محاولة فاشلة لاغتيال الزعيم

أسسَ الحزب السوري القومي الاجتماعي سنة 1932 واستمر ثلاث سنوات يعمل في الخفاء والكتمان الشديد. وقد امتد آنذاك نشاطه واتسع انتشاره عبر لبنان حيث تغلغل في مختلف المناطق والكيانات السياسية في سورية الطبيعية. فجر السادس عشر من تشرين الثاني 1935 في الذكرى الثالثة لتأسيس الحزب كان انبثاق فجره من طيّ التكتّم والعمل السريّ إلى حيّز الوجود المعلن. فهزّت المفاجأة الكبرى وجدان الشعب وأيقظت وعيه لجوانب خطيرة من حقيقته وشؤونه المصيرية كما ارتعدت فرائص السلطات اللبنانية والفرنسية وحلفائهما من العملاء لهول الحدث الذي ينذر الرجعة بإجلاء عقليتها المتخلفة العقيمة التي تقوم على معالجة أدهى الآفات الاجتماعية بالعقاقير والمسكنات والشعوذات الحقيرة. وما تزال لائحة العقاقير ترسخ الجهل والفقر والمرض في نفوس الناس وعقولهم تارة باسم الدين وطوراً باسم المصلحة العامة. كُشف أمر الحزب فراحت السلطات المتحكّمة بحريات المواطن تطارد كل من عرفتهم من أعضاء الحزب

والمسؤولين وعلى رأسهم الزعيم بنهم تنم عن تفاقم قلقها على منافعها ومراكز أفرادها. وكانت المحاكمات مادّة افتراءات دسمة ومجال حملات إعلامية عارمة بغية تضليل الشعب عن حقيقة مبادئ الحزب ومراميه القومية ثم صدرت الأحكام من لدن المحكمة الفرنسية متفاوتة من المدّة التي حكم بها الزعيم. لم تستطع جميع الملاحقات والمطاردات والأحكام الحدّ من انتشار الحزب ونموّه إنما كانت حافزاً قوياً لامتداد فكره في بثّ الوعي بين صفوف الشعب حتى داخل السجون والمعتقلات وإلى صفوف قوى الأمن عينها التي رافقت عن كثب بحكم مسؤولياتها الأمنية مسلك الرفقاء وتعاملهم ومفاهيمهم الأخلاقية المناقبية في مواجهة مسؤولياتهم وتصريف أمورهم بأمانة وشجاعة الواثق من نفسه والمؤمن بحقّه وانتصاره المحتوم. وصار الحزب يفرض وجوده واحترامه في جميع الأوساط ويحظى بعميق التأييد والدعم من مختلف فئات الشعب مما كان يحرض السلطات لمتابعة الضغوط عليه بشتى وسائل التنكيل والضغط.

وتوالى الاعتقالات من قوى البطش والطغيان. «كلما ازدادنا قوة ازداد الضغط علينا» لأن قوتنا غدت مخيفة تتوعّد أعداء الشعب المتآمرين على سيادته وكرامته بالويل. «وكلما تراكمت علينا الصعاب تجددت قوانا، وسحقنا ما اعترضنا من صعاب». فاحترار المتنكّرون لحق الأمة الذين يسرون في ركاب المستعمر في السبيل لتعطيل مسيرة الشعب إلى التحرر، وتحطيم فاعلية الأمة الناهضة من أجل تغيير مجرى التاريخ ووجه الأحداث الجارية. تنادت جهة الغدر بمقدّرات الأمة من كل صوب للتشاور في أمر الحزب الذي أصبح معضلة مستعصية وعقبة مستفحلة بوجه مخادعهم للشعب. تلك المعضلة التي لا تذلل ولا تحتل. لا بدّ من التخلّص من الحزب وإيقاف انتشاره والحد من تزايد انتصاراته من الوصول إلى الشعب وفي استقطاب خيرة شبابه والتفافهم حول قضيتته. ويستوجب للقضاء على

الحزب الإسراع مهما كلف الأمر بذل جهود ولو اقتضى الهدف اعتراف أشنع الجرائم وأبشع المخازي والآثام.

إن مسألة الحزب وخاصة صمود الزعيم غدت شديدة الخطورة تقض مضاجع العاملين على امتصاص دم الشعب واغتصاب حريته وكرامته بإصرار بالغ الضراوة والبربرية.

وفي إحدى أمسيات عام 1937 حين انقضت قوى السلطة على منزل الزعيم وجميع المسؤولين والأعضاء لجزهم جميعاً في السجون والثكنات بصورة مباغتة وعاصفة بينما الناس يتساءلون بحيرة ووجوم ما الخبر وما هو الداعي لجعل السجون مكان الإقامة الدائمة لكل قومي اجتماعي، ناهيك عن سياسة التجويع المتبعة التي تفرض الطرد من الوظائف ومن المدارس والحرمان القاطع من تأمين أي مورد يرد عن القومي غائلة العوز والفاقة. استمر كل ذلك على قدم وساق خلال سنين وبأشد ما يكون من التصميم الشرس للقضاء المبرم على الحزب واستئصال وجوده من حياة الأمة وانتزاع مكانته من نفوس الشعب.

بعد أيام قلائل من بدء هذه الحملات المسعورة التي شنتها سلطات الإرهاب على الزعيم والقوميين الاجتماعيين يأتي أحد أفراد الدرك المكلف بحراسة غرفة انفراد الزعيم إلى رفيق من ذويه لهمس في أذنه بحذر مكثود خشية انكشاف أمره ويقول: «الزعيم في خطر شديد، وفي نية السلطة القضاء عليه. وقد قدّم إليه اليوم طعام مسموم وكان على وشك تناوله ووقوع الكارثة الرهيبة لكنني غامرت بوظيفتي وحياتي وأعلمته بالأمر فامتنع حالاً عن الطعام وأعلن الإضراب المستمر عن كل طعام وشراب منذ ظهر هذا اليوم. وقد طلب الزعيم منّي إعطاء المسؤولين خارج السجن علماً بالمؤامرة النكراء ليصار إلى اتخاذ التدابير الواجبة عاجلاً».

فما كان من إدارة الحزب المركزية التي تتولّى القيادة حينذاك بمنتهى السريّة والترقّب إلا أن أعلنت أحد أقرّاء الزعيم بضرورة إقامة دعوى شخصية على السلطة بوصفه القريب المخول بالمطالبة بحياة الزعيم وسلامته وتحميل السلطة مسؤولية كل ما قد يناله من أذى في السجن ويتعرّض له من خطر متهمّاً إياها بمحاولة اغتياله بينما هو قيد التوقيف والتحقيق القضائي. ثم قام المركز بتوزيع بيان مفصل على الصحف والرأي العام شارحاً الواقعة ومحدّراً من عواقب المؤامرة على حياة الزعيم. وقد أرسلت نسخ من البيان إلى جميع سفارات الدول العربية الموجودة في كيانات الوطن السوري. كما أُحيطت جميع المؤسسات الدولية علماً بالحادث بموجب البيان نفسه مع مذكرة رسمية وُجّهت إليها باسم الحزب السوري القومي الاجتماعي. وقد وُضعت صفوف الحزب بأقصى حالات التأهّب والاستنفار لمواجهة أسوأ الاحتمالات وأخطرها. وكان الإضراب عن الطعام قد عمّ جميع سجون لبنان بين القوميين الاجتماعيين وبقية السجناء قاطبة.

ما أن دَرَت الحكومة بتدابير الحزب واستعداداته حتى سارعت إلى الإعلان بواسطة أبقاها المأجورة من صحفية وسواها عن اهتمام القضاء الشديد بإجراء التحقيقات العادلة والسريعة مع الموقوفين من أعضاء الحزب السوري القومي الاجتماعي كي يصار بالتالي إلى الإفراج عن الأبرياء منهم. وهي تسهر بكل وسائلها على تأمين راحتهم وإنصافهم وفق مقتضيات العدالة والقوانين المرعية. إبان تأكيد السلطة على تطبيق القانون واعتمادها العدالة أساس التعامل مع الموقوفين قيد التحقيق توقفت جميع الملاحظات العشوائية ثم بادرت السلطة إلى الإفراج عن عدد من المساجين غير المسؤولين خلال أيام.

ولم يمضِ بعض الوقت على تعميم استعدادات الحزب للرد على من تُسوّل له نفسه أن يستهين بالقانون ويستخفّ بسلامة الإنسان وكرامة المواطن حتى تم الإفراج عن الزعيم وجميع الموقوفين القوميين الاجتماعيين. كم كان حرص السلطة آنذاك شديداً ودؤوباً للتنبّص مما أُشيع عن محاولة اغتيال الزعيم في سجنه وكم سعت بشتى الوسائل والأساليب لإزالة آثار الحادث من الأذهان وطيّه نهائياً.

أما الرفيق الدرّكي الذي عرّض نفسه لأشدّ الأخطار من أجل إنقاذ حياة زعيمه فقد غادر الوطن حيناً ثم عاد عندما تبدّلت الأحوال السياسية. وهذا نموذج من فعل الأعضاء السريين في تحقيق الأعمال والأفعال الجبارة. ما زال كتمان الأسرار في الحزب وسيظل واجب القومي الاجتماعي من ضمن القسم لنكون قادرين تحت كل الظروف على صون كرامة الأمة وسلامتها بكل إخلاص وكل عزيمة صادقة وباعتزاز عزّ نظيره في التاريخ.

القدوة أساس كلِّ بناء نفسي وشرط كلِّ تربية متينة تستمرُّ وتثمر

من أخطر الآفات المستشرية في مجتمعنا والمزمنة التي يتوارثها الأحفاد عن الأجداد دون أدنى حرج وبلا تحفظ هي آفة استعمال المعرفة للجهل فلا تضر ولا تقدم أي نفع للإنسان. ما أكثر الوعَّاظ والمرشدين في شتى حقول العلم والمعرفة وما أقدرهم جميعاً على إلقاء المواعظ وتوزيع النصائح والتوجيهات والملاحظات ذات اليمين وذات اليسار وبمنتهى السهولة واليسر من دون أن يلتزموا بشيء مما يقولون ويطلبون من الآخرين الأخذ به. وهم بقدر ما يشددون على صواب إرشاداتهم وصحة اختياراتهم وضرورة العمل بموجبها يشددون قبل سواهم عن اعتمادها في سلوكهم وتعاملهم كأن المعرفة لديهم هي نوع من بضاعة كاسدة فما على البائع إلا أن يتقن عرضها لإغراء المارة بشرائها. ولكل بضاعة عادة مواسم ومناسبات عملاً بمبدأ العرض والطلب بين المنتج والمستهلك.

ولا بُدَّ للسوري القومي الاجتماعي أن يعمل بصدق وبما تمليه عليه عقيدته، متبرئاً من أولئك الذين يقولون شيئاً ويعملون شيئاً آخر والذين

تنطبق عليهم الآية الإنجيلية الكريمة: «... اسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا أفعالهم»... من هنا كانت أهمية قول الزعيم بوجود اقتران الكلام بالفعل: «التاريخ لا يسجل الأماني ولا النيات إنما يسجل الأعمال والأفعال وإن الأمر الذي تكثر فيه الأقوال وتقلُّ الأعمال أمر لا نصيب له في النجاح. وأن المجتمع معرفة والمعرفة قوّة». وما عدا ذلك فهو مجرد أوهام باطلة، وهو الجهل والتيه في حضيض الفناء والانحلال وضرب من الهزيمة أمام المسؤولية.

ذات ليلة والأمطار تتساقط بغزارة فائقة في شوارع بيونس ايرس عاصمة الأرجنتين وتتجمع سيولاً تجرف ما يعترض سبيلها ويعيق زحفها انقطعت طرق المواصلات وتوارت جميع وسائل النقل في سائر أنحاء المدينة. مثل هذه المفاجآت من تسارع هطول الأمطار بين الأونة والأخرى خلال مختلف الفصول يحدث كثيراً وتكراراً وهو من طبيعة مناخ الأرجنتين القاري المعروف بتقلبه المباغت بين شدة الحرارة وحدة الأمطار والبرودة.

في تلك الليلة الليلية الليلاء عينيها كان لدى الزعيم مواعده الدوري مع إحدى مديريات بيونس ايرس وكان عليه أن يحضره. ولا سبيل للوصول إلى مكان الاجتماع الذي يبعد عن مسكن الزعيم ما يقارب الساعة مشياً على الأقدام في الحالات الهادئة فكيف إبان غضب الطبيعة وزمجرتها. فلا بُدَّ له من تلبية واجب الحضور مهما حالت دونها الصعوبات، والنظام في الحركة القومية الاجتماعية هو واجب مُقدَّس يسري على الجميع والجميع فيه متساوون. فما على الزعيم إذن إلا أن يتدبّر الأمر لبلوغ مكان الاجتماع في الموعد متخطياً كل الموانع ومذلاً جميع العقبات والمشقات. فما لا يباح به لأحد القوميين الاجتماعيين لا يباح به لأي مسؤول أو للزعيم نفسه. ويكون المسؤولون جديرين بالمسؤولية بقدر قدرتهم على تقدّم الصفوف بالقدرة التي تجسّد معنى القيادة والمسؤولية القومية الاجتماعية.

قبل فوات الوقت على موعد انعقاد الاجتماع ينطلق الزعيم بمفرده مشياً على الأقدام إلى مكان الاجتماع بين تدفق مياه الشارع الغارق تحت وطأة السيول الجارفة وبين رشقات الأمطار المتساقطة عليه كالسياط من عنان السماء، وحيداً في شوارع بيونس ايرس. شاقاً طريقه الشاقّة تلبية للواجب دون إبطاء ولا تردد.

وصل الزعيم في الوقت المحدد مبللاً بالمياه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه وقد أدهش الحضور وصوله بهذه الحال وإصراره على تنفيذ كل ما يُعهد إليه به بكلّ أمانة ودقّة. فهبّ الجميع والدهشة والإعجاب قد أخذوا منهم كلّ مأخذ، إلى الإحاطة به للتعبير عن تقديرهم لما تكبّده من مشاقّ الوصول إليهم في هكذا ظرف.

عُقد الاجتماع في حينه بالرغم من تخلف عدد غير قليل من الأعضاء بسبب سوء الأحوال الجوية. ظناً منهم أنّها تشكّل عذراً مقبولاً لعدم تلبية الواجب القومي الاجتماعي. لدى انتهاء ذلك الاجتماع أصرّ الزعيم على العودة إلى منزله فوراً وتحت كلّ الظروف لأن عملاً آخر كان بانتظاره تلك الليلة. فتقدّم ثلاثة من الرفقاء يلحّون عليه للسماح لهم بمرافقته ومشاركته في تحمل مشقّة العودة مشياً على الأقدام.

في اليوم التالي انتشر خبر تحديّ الزعيم للإعصار والأمطار في ذلك الليل الطويل تلبية للواجب القومي الاجتماعي بعزيمة القائد القدوة. لأن أي موقف للإنسان المسؤول وأي مسلك يبدر منه يقتضي أن يكون لبينة في مداميك البناء وفي صلب الإعداد لمعركة المصير ووقفه العز الفاصلة والحاسمة. فالزعيم المعلّم لا يأبه للصعوبات والنكبات إنما يقتحم السدود ويفجر الألغام في دروب الصراع وميادين النضال لمجد هذه الأمة وكرامتها القومية الاجتماعية. والنهضة لا محالة منتصرة بقدوة القوميين الاجتماعيين

في مجابهة الأخطار ومواجهة مسؤوليات التغيير لمجرى التاريخ في أمة شيدت
صروح التاريخ على دعائم متينة من روائع الفن والعلم والفلسفة.

كم كان خجل الرفقاء الذين تغيبوا عن ذلك الاجتماع عميقاً وكم
أقضى جوارحهم الشعور بالتقصير والتهاون في تلبية الواجب القومي
الاجتماعي وكم هي قدوة الزعيم لنا جميعاً عبرة تحفزنا للإقدام والتقدم
ومنارة هادية تشدد عزائمنا لتذليل كلّ وعورة وتبديد كل ظلمة. وما هذه
الحادثة سوى واحدة من صور البطولة للزعيم القدوة التي ما زالت حديث
القوميين الاجتماعيين ومثّلهم الملهم كلما راودت أحدهم حالة ضعف أو تلكؤ
إزاء تبعات القضية التي تساوي كل وجودنا وقد تعاقدنا على السير بها إلى
قمم النصر والتحرر.

لقد رويت لي هذه الحادثة ومثيلاتها من دروس القدوة يوم قمت
بجولة حزبية إلى أميركا الجنوبية ومنها زيارتي إلى الأرجنتين سنة 1955 بينما
وقعت الحادثة سنة 1940.

وما ذكريات الأحداث التي تروي لنا أخبار البطولات والانتصارات إلا
مآثر القدوة يقدّمها تراث الأمة الحية، ليست هذه الذكريات سوى حافز
الاعتزاز بأمجاد الماضي والافتداء بمآثر تلك الأمجاد كي نجسد روائع
الذكريات حياة أفضل بالأعمال والأفعال العظيمة حياة جديرة بأصالة الأمة
السورية وعظمة نهضتها القومية الاجتماعية التي تشق الطريق للإنسان
الجديد بالقدوة التي هي خير تراث نجعلها مدماكاً صالحاً في البناء النهضوي
لتكون ذخيرة للأجيال التي لم تولد بعد. من حيث تجسيدها لقيم الخير
والحق والجمال كما أرساها المعلم من أجل الأمة السورية وكرامتها، أمة
الحرية والواجب والنظام والقوة.

|| الموت يظل واحداً ||

كما يتعرض الجسم لتحوّلات عديدة متفاوتة الأهمية والأثر في مراحل تكوّنه، يتعرض الفكر الإنساني لتحوّلات تتفاوت عمقاً وتأثيراً في بناء الكيان الفكري واتجاهاته الفعلية. من هذه التحوّلات ما يمرّ عابراً دون أي أثر جذري ثابت في تأسيس البنية الفكرية وتكوينها المميز. ومنها ما يحدث في أساس الشخصية تغييراً عميق الغور. يمكنه أن يجري تبديلاً كلياً في صلب نظرة الإنسان إلى الحياة والكون والإنسان. فيواجه هذا الإنسان انقلاباً شاملاً في مفاهيمه وفي رؤاه ومشاعره، وبالتالي في مسلكه ومواقفه من الوجود والعالم بأسره.

من التحوّلات الفيزيولوجية الجسدية ما يدفع بالجسم إلى النمو واكتساب القوة والعافية. لينطلق متطوراً إلى الأفضل. ومنها أيضاً ما هو تحولات مرضية تُفقد صاحبها قوة المناعة للصمود ومثانة القدرة على الاستمرار السليم في التحمل والمعاناة. كذلك تلقى النفس الإنسانية تحولات سيكولوجية معنوية ترقى بها إلى تكامل الثقة بالنفس والوعي للحقيقة. كما

تواجهها تحولات انهزامية تؤدي بها إلى التسليم للأمر الواقع متخفية عن السعي إلى بلوغ الحق وإدراك الحقيقة. ليتوصل المرء إلى اعتناق هذه التحولات المرضية قضية. كان يأبأها بالأمس ويرفض اتخاذها مثلاً ونبراساً لسيره وسيرته. لجميع هذه التحولات أسباب متعددة وعوامل متباينة تسهم في توليدها وإطلاقها متفاعلة مع خصائص الشخصية ومحرضات البيئة الاجتماعية النفسية وسواها من معطيات. لولا الاستعداد الطبيعي لتقبل الإنسان التحولات الممكنة والاعتناع بها لاعتناقها، لما كان التطور خاصة أساسية للكائنات ولما كان للحوار الإنساني أي مسوغ وأي جدوى. وليس أجدى من الحوار وأعمق شأنًا في بناء الحضارات والكشف عن معطياتها لو توقر لدى المتحاورين صفاء الفطرة وصفاء الشخصية والاستقلال النفسي وتناول الحوار موضوعاً مصيرياً يعالج شؤون الحق والخير والجمال إزاء حقيقة الوجود والوجود الإنساني الحقيقي.

كثيرون هم المواطنون الذين دخلوا صفوف الحزب السوري القومي الاجتماعي. مكثوا بيننا ردهاً من حياتهم. كأعضاء ومسؤولين إداريين لفترة غير قصيرة. لكنهم لم يصبحوا فعلاً قوميين اجتماعيين ولم تنفتح عقولهم ونفوسهم لاعتناق الحزب إيماناً كلياً وإرادة شاملة كيانهم ووجودهم. لذلك ما لبثوا أن تخلوا عن قضية الحزب أو هي تخلت عنهم. لا فرق بين من حنث بقسمه وانهار من تلقاء نفسه إلى جانب الطريق دون مراسيم فصل وطرد وبين من كان سقوطه مقروناً بمراسيم التأيين. هناك من أراد أن يكون لسقوطه دوي قصف الأعصاب اليابسة التي تنسلخ عن جذعها لتنتطح الأرض بانحدارها إلى أديم التربة. وهناك من يتساقطون بصمت وهدوء كتناثر أوراق الخريف التي تنفصل عن أغصانها وجذوعها فلا تجعل من سقوطها حدثاً مدوياً تتلقفه الألسن والأقلام. لكن مهما تنوعت الأسباب والمظاهر المأسوية فالموت يظل واحداً.

غير أن فئة من جماعة الساقطين على جانب الطريق قد حاولت أن تحوّل سقوطها العادي في عالم الأموات بين طالبي الموت لتجعله ضرباً من قضية خلاف فكري أو تباين عقدي فلسفي. بين هذه الفئة وبين الحزب سواء كان ذلك أيام الزعيم مثل الذين انسحبوا من الحزب لأنه حركة ضد لبنان والكيان اللبناني أو ضد العرب والعروبة أو ضد الدين وتعاليم السماء وأنبيائها. أو ما حدث مثيله منذ استشهاد الزعيم لأن وخلال مراحل عدة. ليس لأحد من هؤلاء مسألة فكرية واحدة تستوقف دارسي وضعهم وموضوعهم في الحزب. أنهم قد ألبسوا زوراً انحرافاتهم المسلكية وفوضى تصرفاتهم وأخلاقهم ثوباً مصطنعاً من أشكال لا معنى لها ولا طائل سوى الإغراق في النزعة الفردية المدمّرة. وما غرضهم إلا الإمعان في تغطية مسلكهم اللا نظامي واللا أخلاقي بوجوه عديدة من التستر والانحراف.

وقد شدّ عن هؤلاء المدّعين بالعقل والفكر، رفيق سابق أو أمين سابق واحد هو الدكتور فخري معلوف. هذا الرجل من أقدم أعضاء الحزب وأوائلهم منذ تأسيس الحزب ومن أعرقهم بروزاً في إيمانه العميق ونشاطه الفكري والعملي الفعال. وقد عُرف اسمه بين الأعضاء قاطبة، قبل أن يتعرفوا إلى شخصه كأحد رجالات النهضة العاملين بعمق وصمت وجدّية إلى جانب الزعيم، في شتى الحقول والأبحاث. وقد ذاعت شهرة الدكتور معلوف بالنسبة إلى الدراسة الموسعة التي وضعها لكتاب نشوء الأمم وكانت معدّة للطبع ملحقة بالكتاب. لولا ظروف الأعمال الحزبية وتراكم الأحداث الشاقّة التي حالت دون تعميم الفائدة منها.

هذا الرجل المتمرس بالعقيدة والنظام، الذي حاز على رتبة الأمانة منذ مطلع حياته الحزبية المبكّرة، أخذ يدرس اللاهوت ويتوغّل في تشعباته ومناهاته الماورائية. حتى نال في هذا الفرع شهادة الدكتوراه. وهو لا يزال مدرّساً للاهوت في إحدى جامعات أميركانيا. وقد راح يشعر في صميم تفكيره

وتأملاته أمام الحياة والوجود والكون بالتحويلات تفعل فعلها الجذري في تحويل مفاهيمه وتبديل نظريته القومية الاجتماعية الكلية الشاملة إلى الحياة والكون والإنسان والفن. فإذا به ينسلخ عن العقلية الأخلاقية الجديدة التي تُقدّمها النهضة للأمة السورية، ولمصالحها ومصيرها. ويرى أنه قد فقد نهائياً إيمانه السوري القومي الاجتماعي بفعل سطوة التحويلات المتسلطة على تفكيره وتأملاته وسلوكه. فسارع بدون تمويه ودون مواربة إلى الاتصال بالزعيم إبان الحرب يوم كان في أميركا ليطلعه بدقّة وصفاء عما آل إليه موقفه من عقيدة الحزب وأهدافه. وقد أفاض برسائله مع الزعيم بتبيان جميع العوامل والأسباب التي دعت له ليكون خارج معطيات العقيدة القومية الاجتماعية ومفاهيمها كلها. وقد طلب إلى الزعيم مُلحّاً، بالاستناد إلى أنه لم يعد قومياً اجتماعياً، كي يحلّه من قسمه حتى يكون منسجماً حقيقة مع شرفه وحقيقته ومعتقدده. وقد تبادل الكثير من الرسائل مع الزعيم الذي ظلّ يدعوه تارة الرفيق السابق وتارة الأمين السابق.

إنّ هذه الحالة من صفاء الوجدانية وسموّ الصراحة البالغة أقصى النبل والأمانة للحق والحقيقة التي سجلها الرفيق السابق فخري معلوف هي فريدة من نوعها في الحزب بالنظر إلى مستواها من الأصالة السورية وما تعبّر عنه هذه الأصالة من مناقب الحق والخير والجمال. كم يؤلّنا، نحن القوميّين الاجتماعيين، أن يغرق أحد منّا أو من مواطنينا في خضمّ الماورائيات التي تفقدنا الأرض دون أن نُحقق لنا ربحاً في السماء. لأن الدين هو للإنسان لخيرهِ وعزّه وصيانتته من كلّ سقوط والتواء.

هل من الضروري أن يعود الزعيم إلى الوطن؟

لكلّ مرحلة من حياة الأمة والحزب بطولاتها ومواقفها القدوة في الصمود والعطاء والبناء كما لها، على ما يبدو معطّلاتها ومخازنها يسجلها «أفراد تلاعبت بهم المفاصد لكتّهم لا يستطيعون أن يَصْبُوا المجتمع كلّه بالمفاصد التي في نفوسهم». لأنّ الشعب الحيّ يحوّل حتى مآسيه إلى حوافز شديدة الفاعلية تحرّضه إلى مزيد من الأعمال الكبيرة والأفعال الجبارة.

قبيل عودة الزعيم من المغرب عقد المجلس الأعلى جلسة عامة ضمّت أعضاء مجلس العمدة للتداول بمسألة عودة الزعيم من جهة اتصالات الحزب بالسلطة اللبنانية وحملها على وضع حد لمماطلتها في إعطاء الزعيم سمة العودة ومن جهة أخرى إعداد صفوف الحزب نفسياً وفكرياً ليوم استقبال الزعيم، ذلك اليوم التاريخي في حياة الأمة والنهضة. بادر المجلس الأعلى للاستماع إلى ما قام به أعضاء المكتب السياسي من اتصالات بالحكومة اللبنانية بخصوص عودة الزعيم والعراقيل المفتعلة التي وضعتها دولة لبنان في هذا السبيل. فيما كان رئيس المكتب السياسي آنذاك نعمة

تابت يطلع المجلس على ما تمّ بالأمر استأذن فايز صائغ وهو عميد للإذاعة وعميد للثقافة للكلام في مسألة تتعلق بالنظام فأعطي حق الكلام ثم قال: «قبل أيّ بحث حول إعداد عودة الزعيم سياسياً وحزبياً أرى أن يبحث المجلس الموقر إذا كان من الضروري أن يعود الزعيم أم أن بقاءه في المهجر هو الأفضل». ما كاد فايز صائغ يتلفظ بهذه العبارات حتى اضطرب جوّ الجلسة وسادّه التوتر والاستهجان. عميد إذاعة وثقافة يطلب من المجلس الأعلى ومجلس العمدة في الحزب أن يطرحا للبحث موضوع إبعاد الزعيم عن الوطن وتقدير نفيه خارج الوطن وهو يعتبر هذا الأمر بل التأمّر نقطة في نظام الحزب. ما إن لمس حضرة العميد ردود الفعل العنيفة من قبل أعضاء المجلسين إزاء مطلبه وواجه حدّة الاستنكار لسلوكه اللاقومي اجتماعي حتى سارع نعمة ثابت، رئيس المجلس الأعلى، إلى إيقاف الجلسة الرسمية وراح يلفظ من حدّة الجو مجتهداً في تفسير ما فاه به فايز صائغ وفي تأويل الغرض منه علّه يجعل من صفاقة المؤامرة الفاضحة مجرد هفوة في التعبير عن وجهة نظر سليمة وعادية ليس إلّا لأن أعضاء المجلس لم يمهلوه للإفصاح عن رأيه بوضوح. فكان الإبهام. ولنعمه ثابت مقدرة مشهودة في التفنن بالتخريج والتأويل للألفاظ والنوايا هي مقدرة بالغة اللباقة واللباقة. غير أن صراحة فايز صائغ من جهة وانهماك نعمة ثابت لتدارك خلفية هذه الصراحة الموصوفة من جهة ثانية كشف الستار عن مسرحية مشبوهة وعن كيفية إخراجها وتقسيم أدوارها بين لاعبين محترفين وغير بارعين.

ثم أُعيدت الجلسة إلى الانعقاد وتويع البحث ذاته في ضرورة الضغط على السلطة لاستجابة طلب الحزب عودة الزعيم إلى لبنان، خاصة، وأنها ليس لديها أي مبرر قانوني للتأجيل والتسويق في تسهيل إعطاء سمة الدخول للزعيم. وانتقل البحث إلى توكيد إعداد القوميين الاجتماعيين ليوم استقبال الزعيم بعد أن يتمّ تحديده.

منذ هذه الجلسة للمجلس الأعلى أخذت تتكشف معالم المؤامرة الرامية إلى إبقاء الزعيم في المغرب على الأقل إلى ما بعد انتخابات الخامس والعشرين من أيار 1947 الشهيرة حتى ذلك الحين بتفوقها بالتزوير وإغائها العملي لحق الناخب المشروع في اختيار ممثله للمجلس النيابي، وتحاك مؤامرة السلطة مع نعمة ثابت ومن كان يدور في فلكه وكان نعمة ثابت قد أعد نفسه للترشيح عن المقعد الماروني في المتن الجنوبي وذلك بتغيير هويته الطائفية من إنجيلي إلى ماروني.

وقد بلغ الحزب تلك الأثناء الحديث المأثور الذي دار بين نعمة ثابت ورياض الصلح رئيس الوزراء بصدد هذه المؤامرة. وهو قول الصلح: «إسمع يا نعمة ما في لزوم يرجع أنطون سعادته خَلَوْهُ بعيد أربحُ إلنا وأربحُ إلکم». هكذا عمل الاثنان متكافلين متضامنين لتأخير عودة الزعيم إلى الوطن ما أمكنهما ذلك ريثما تُستكمل التدابير لاستغلال قوى الحزب في معركة الانتخابات النيابية لمصلحة الطرفين المتعاونين على الزعيم وعلى الحزب. أُحيط الزعيم علماً بالأمر ورُفعت إليه التقارير بشأنه. فكان لا بدّ أن يحضر بأقصى سرعة وبأية طريقة لوضع الحد الحاسم لتمادي المتأمرين على أهداف الحزب وأغراضه القومية العليا.

تمكن الزعيم في بيونس ايرس - الأرجنتين مع رفقاء المغترب من انتزاع سمة العودة إلى لبنان من السفير اللبناني هناك بعد مفاوضات كثيرة حاول بها السفير التهرب من مواجهة مسؤولياته القانونية عملاً بتوجيه مغرض من دولته.

بينما كان مركز الحزب يلاحق نعمة ثابت لمتابعة اتصالاته بالدولة من أجل عودة الزعيم، فجأة وفي غمرة القلق اتصل الزعيم هاتفياً ببيروت من القاهرة ليعلن عن موعد قدومه إلى بيروت. فصقّق من صقّق مرحاً للبشرى

العظيمة بعودة الروح إلى الحزب، عودة القيادة القدوة إلى ممارسة مسؤولياتها الفعلية على رأس الحزب ليقبض على ناصية الشؤون الحزبية ويوجهها إلى المرمى السليم بالعطاء والبناء والقدوة الفذة البطولية. كذلك ارتعدت فرائص المنحرفين العاملين، منذ أن غرّرت بهم السياسة على تحويل الحزب وقضية الأمة إلى مطية لمنافعهم الخصوصية وأغراضهم الأنانية.

بعودة الزعيم في الثاني من آذار 1947 كانت العودة الجبارة إلى ساحة الجهاد لمصلحة الأمة السورية وقضيتها القومية الاجتماعية فأخذت الأمور تستقيم تبعاً على محورها وتوضع الإمكانيات والطاقات الحزبية في مكانها ومجالها لتكون دائماً وأبداً مصلحة سورية فوق كل مصلحة بفعل العقلية الأخلاقية البناءة التي تسحق عبث الأفراد المتطاولين على مصلحة الأمة والضالعين في الإساءة إلى كرامتها والنيل من سلامتها وسيادتها لتقييم حقيقة النهضة على الإيمان بأصالة الأمة السورية وتجسيدها بالأعمال والأفعال.

الانضباط لا يَحُول دون إبداء العواطف السامية والمشاعر النبيلة

سعاده

كان الثاني من آذار سنة 1947 يوم عودة الزعيم من مغتربه القسري، الذي دام تسع سنوات، حدثاً تاريخياً عظيماً في حياة الحزب والأمة. كان ذلك اليوم ولادة انطلاقة فدّة في نفوس القوميين الاجتماعيين، وبعث النشاط والفاعلية في صفوفهم. كان يوم العودة الحقيقية إلى ساحة الجهاد كما أعلنها الزعيم في ختام خطابه لدى وصوله، بعد سنين مريرة، قضاهما الحزب، إبان غياب الزعيم، يعاني الركود والتردد حيناً، وحيناً آخر يشكو التشكيك من قيادته والقلق على المصير.

احتشدت جموع القوميين الاجتماعيين الوافدة من مختلف أرجاء الوطن السوري في مطار بيروت الدولي لاستقبال الزعيم، ترافقهم جموع من أصدقاء الحزب ومؤيديه للمشاركة في الاحتفال الكبير بيوم العودة. كانت

الصفوف المنظمة والزوابع الخفاقة والأناشيد القومية الاجتماعية، فضلاً عن الهتافات الحزبية تنمّ كلها عن عظم الفرحة التاريخية بجلال الحدث الفريد، بعد حدث ولادة الزعيم وحدث تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي.

ترجّل الزعيم من الطائرة وغادرها متوجّهاً إلى باحة المطار الكبرى، فعلت الهتافات تشقّ عنان السماء وتتجاوب أصدائها في أرجاء الفضاء، معلنة سلامة الوصول الميمون. أحاطت الصفوف المترابطة بالزعيم إحاطة السوار بالمعصم، وكان العناق طويلاً ومؤثراً بين الزعيم والعديد من الرفقاء والمسؤولين الموجودين على مقربة منه، دون أن يتاح للجميع التقدم إلى الزعيم للسلام عليه. ولما تزايد التسابق الحار لمعانقة الزعيم ومصافحته حاول أحد المسؤولين إلى جانب الزعيم أن يخفف من حوله وطأة ذلك التراحم اللجب تأميناً لراحة الزعيم. فمنعه الزعيم في الحال عن الحؤول دون وصول القوميين الاجتماعيين إليه وتحقيق رغبتهم في السلام عليه مصافحين أو معانقين أو التوجه إليه بأي عبارة تفصح عن عميق ابتهاجهم العظيم بلقائه وقال للرفيق المسؤول آنذاك:

دع القوميين الاجتماعيين يقبلون إلى الزعيم بعفويتهم الصادقة، وليعبّروا له عن فرحتهم بمقدّمه كما يحلو لهم بهذه المناسبة، وبعد أن طال ابتعادهم عنه كل هذه المدة الطويلة الشاقة. فالانضباط لا يمكن أن يحول دون إبداء المرء أسى العواطف وأنبئ المشاعر القومية التي تعبّر عن عميق إيمانه بقضيته وبزعيمة.

في خطاب الزعيم يوم وصوله إلى الوطن الذي توجه به إلى الأمة وإلى رفقائه في النضال القومي الاجتماعي حانت منه التفاتة عذبة ورائعة إلى رغبته في مصافحة كل منهم والتعرف إليه شخصياً:

«أبها القوميون الاجتماعيون

كنت أود أن يتسع الوقت لأصافح كلاً منكم، كل واحد بمفرده وأتعرف إليه ولكن الوقت ضيق. وهذا الوقت لا يكفي، ولكن عزيمة اليوم كما كانت في الماضي، أن أقصد مناطقكم وأزوركهم فيها».

«لا تنتصر النهضة باعتمادها التسوية مع الرجعة»

سعادہ

حشد حافل يضم جموع القوميين الاجتماعيين من جميع الأقطار السورية والأصدقاء والمؤيدين ينتظمون صفوفاً مترابطة في باحة مطار بيروت الدولي، صبيحة الثاني من آذار 1947 للترحيب بعودة الزعيم من المغرب بعد غياب قسري دام تسع سنوات ونيف.

حشد ينم عن إيمان الشعب بكل فئاته بالقضية السورية القومية الاجتماعية، وعن عميق استعداده لتلبية دعوتها ساعة تقتضيه مصلحة الأمة والوطن. هذا الحضور المحتشد يوم استقبال الزعيم أبلغ تعبير صادق عن فعل النهضة في وعي الشعب ونفسيته التواقفة إلى التحرر والتخلص من أعدائه، يهود الداخل، ناهيك عن يهود الخارج وحلفائهم المتآمرين على سلامة الأمة السورية وحقها في الحياة والحرية، حشد يفصح عن مدى تأهب الشعب للذود عن كرامته وسيادته.

والحكومة اللبنانية، أيضاً، كانت هناك مع المستقبلين، بأذنها المرهفة السمع وعيونها المنتشرة هنا وهناك في أرجاء المطار، بين الصفوف النظامية المتدفقة حيوية وحمية. مشاركة الحكومة في الحشد، كانت مشوبة بالترتبص القلق والترقب الحذر.

حضورها المتواري عن الأنظار كان يسعى خلسة لإيجاد ما يبرر لها التدخل لعرقلة مسيرة الشعب الملتف بإيمان وعزيمة صادقة حول قضيته بقيادة الزعيم، ولإزاحة الكابوس حول تحكّم السلطة بإرادة الشعب ومصيره من أجل ضمان منافع المتحكّمين أنفسهم. فكان على الحكومة، إذن، أن تثبت وجودها لتتأكد هي بنفسها من جدوى وجودها وحقيقة قوّتها كسلطة تفهم الحكم مجرد ممارسة التسلط بكل الوسائل والأساليب. وكان همها يوم الاستقبال أن تجد سبيلاً إلى استفزاز الحشد الوثائق من نفسه ومن وعيه حقيقة مقاصده البناءة، أن تفتعل حادثاً يشيع الفوضى بين المستقبلين تسديداً لمخاوفها من يقظة الشعب وعلاجاً لقلقها الموجه على منافع أفرادها الخصوصية من جراء عودة الزعيم قائد الجهاد، العودة إلى النظام والنضال، إلى القول الفصل والموقف الفاصل إزاء المفاصل والمخازي التي تتولى السلطة عينها تغذيتها ونَعْمُهَا بعقليتها البالية الرجعية. لتقبض على كل نبضة حياة وومضة اعترام يتألق لها الشعب الحي في طريق نموه وسباق نهوضه الأصيل إلى حياة الحرية والواجب والنظام والقوة. هذه السلطة التي كانت ترتبص للزعيم غدت تعلل نفسها بالنجاح بعد أن ضمنت موالاة نعمة ثابت لمخطّطها التأمري موهماً إياها أن تخلّيه عن الزعيم هو انفضاض جميع القوميين الاجتماعيين من حول الزعيم والسير بقيادته هو في التعاون مع السلطة والتفاهم على الغنائم المخصّصة للمواقف «المشرقة البطولية».

وبالفعل قد باشر ثابت بتغيير طائفة مولده، إنجيلي بروتستانت، إلى ماروني، استعداداً لخوض معركة الانتخابات النيابية التي أصبحت على الأبواب

وأخذت تشغل الناس، وتستأثر باهتمامهم المتزايد، وكانت انتخابات الخامس والعشرين من أيار 1947 الشهيرة في ملف التزوير والمشهود لها بممارسة حزية التزوير والتلاعب الأثيم بإرادة الشعب ونبل تطلعه إلى مستقبل أفضل، خاصة في مطلع عهد الاستقلال. أيكون الاستقلال إطلاق يد السلطة بالتهام مقدرات البلاد ووقوع الشعب في قبضة يدها مستسماً ليسهل استثماره والتحكم فيه ما دامت الانتخابات قد حولت بإشراف المتحكمين وتوجيههم إلى موسم إثارة الأحقاد الراقدة، وبعث الفتن الراكدة، وإلهاب ضغائن العصبية الجزئية الحاقدة والمهددة سلامة الأمة وتطور الشعب المؤهل بطبيعة أصالته للثقة بالحق والركون إلى الخير والفضيلة، والتي عطلتها سياسة الحكام في معالجته للشؤون كافة. هل كان الاستقلال يقضي في ذلك الزمن، باستنزاف طاقات الشعب ليظل تحت سوط الجلادين من أبناء أمته، وفريسة الجزارين من مواطنيه باسم الاستقلال إياه والسيادة بعينها. ما معنى الاستقلال والسيادة إذا صاروا سلاحاً خطيراً لقهر إرادة الشعب، وسلبه كرامته، وحرمانه أبسط حقوقه الأولية وحاجاته البدائية؟

لم يمضي اليوم الثالث على عودة الزعيم إلى الوطن، حتى بادرت الحكومة إلى الترحيب به، رداً على احتفاء الشعب بقائد نهضته، وعلى ولائه لقضية كرامته واعتزازه بأصالته المتجسدة في الحركة القومية الاجتماعية. وويل للحكومات المستهترة بوعي الشعب لحقيقة وجوده وكرامته، إذا انتفض في وجهها رافضاً الخنوع والاستسلام.

وجاء الترحيب منذرة إحصارٍ للزعيم أمام المحقق لأداء الحساب عما ورد في خطابه لدى وصوله إلى المطار مما يخلّ بأمن البلاد ويسيء إلى السلامة العامة، كأن الأمن كان مؤمناً والسلامة مضمونة. بينما تُرك للحزب مجال متابعة نشاطه كالمعتاد دون أن تشمله نِعَم المذكورة.

فُتحت المعركة بين الحزب والحكومة اللبنانية، وكان على الحزب أن يختار أسلوب الدفاع عن نفسه. فإما تلبية مذكرة الإحضار ومثول الزعيم أمام المحقق، ثم انتظار ما سيكون، أو رفضها بصورة قاطعة وإعلان الحكومة عاصية لحق الشعب بتجاوزها حقوقها المشروعة، والعمل على إخضاعها إلى حرمة القانون وإلزامها بمسؤولياتها الشرعية إزاء الشعب وحقه في الحرية التي بدونها تغدو إعادة السلطة إلى الصواب والعدالة حقاً أساسياً من حقوق الشعب الواعي، بل واجباً فعلياً تمليه عليه كرامته وسيادته، وضرورة مصيرية، أو أن الحزب يكتفي برفض الانصياع إلى كيد الحكومة والرضوخ إلى اعتدائها على حقه في ممارسة أولى بديهيات حرية القول وإبداء الرأي وحرية المعتقد والانتقاد الموضوعي البناء، على أن يترك لها مسؤولية اتخاذ الخطوة التالية تردّ بها على تمرّد الحزب على عصيانها إرادة الشعب وحقه القومي في تقرير مصيره والدفاع عن وجوده.

انتقل الزعيم إلى زيارة الفروع الحزبية في مختلف أرجاء لبنان، متفقداً قوّة الحزب وإمكانياته العملية والنفسية لمواجهة مسؤولياته لدى الاقتضاء، ومتخذاً التدابير الرادعة للحيلولة دون محاولة السلطة تنفيذ أغراضها بحق الحزب.

ولدى تداول الزعيم مع الدوائر المركزية بموضوع المذكرة الصادرة عن الحكومة، تقرّر عقد مؤتمر يضمّ المنقّدين العامين ونُظّر التدريب في الكيان اللبناني، كمرحلة أولى بغية الاطلاع على وجهات نظر قادة الوحدات في المناطق بشأن المشكلة الناشئة بين الحزب والسلطة اللبنانية، والتأكّد من مدى الاستعداد الفعلي لتلبية ما يتخذ من إجراء بهذا الصدد.

عقد المؤتمر المقرر في الثاني والعشرين من آذار، بعد عشرين يوماً من عودة الزعيم، في مركز الحزب، بحضور أعضاء مجلس العمدة. وقد توجّه

الزعيم إلى المؤتمرين برسالة، عرفت برسالة الثاني والعشرين من آذار، عارضاً فيها أهمّ خطوط المشكلة مع حكومة لبنان المستقل وطالباً موافقته برأي كل مسؤول من المؤتمرين في الحادثة المطروحة وما يراه مناسباً من حلول لها بوضوح ودقّة. حتى يتاح للزعيم الوقوف على رأي كل من المؤتمرين والكشف عن مستوى العقلية الأخلاقية الجديدة التي يعالج بها المسؤولون شؤون الحزب الهامة، وعمّا وصلت إليه الذهنية القومية الاجتماعية في تحمّل المسؤوليات، منذ غياب الزعيم القسري عن مركز الزعامة الفعلية، إبان الحرب العالمية الثانية. خلال سنوات شاقّة مليئة بالأحداث الجسام والمفاجآت المصيرية البالغة الخطورة. وقد انتهى المؤتمر إلى اتخاذ قرار بالإجماع يقضي برفض تنفيذ مذكرة الحكومة المتجنّبة على الحزب، وعدم تمكينها من بلوغ مقصدها. ثم رفع الأمر إلى الزعيم مع ضبط وقائع المؤتمر.

بعد انقضاء المدة القانونية لتلبية الزعيم مذكرة الإحضرار أردفتها السلطة بمذكرة جلب وأوكلت إلى قوى الأمن مهمّة تنفيذها بالجوء إلى مدهامة الأماكن و القرى التي يُشتبه بوجود الزعيم فيها، لكن جميع المحاولات باءت بالفشل أمام مؤازرة الشعب لقوى النهضة والتفافه حول الزعيم، حرصاً على سلامته وراحته، وتأييداً لانتصاره على طُغمة الطغيان. إلى أن اضطرت السلطة عينها إلى التراجع عن موقفها وإلغاء تدابيرها الرامية إلى الاعتداء على أمن البلاد وحرية الشعب، وكان ذلك بعد مضي سبعة أشهر وسبعة أيام على تواصل الملاحقات ومدهامات المنازل والمؤسسات المشبوهة بارتكاب إثم الوعي والتحرّر من العبودية.

في تلك الأثناء صدر قرار بفصل كلّ من نعمه ثابت، مأمون إياس وأسد الأشقر عن جسم الحزب لأجل غير محدد، بسبب تمردّ نعمة ومأمون على أوامر الحزب وقيامهما باتصالات سياسية فردية، دون اطلاع الحزب، ولأنّ الأمين أسد الأشقر قد تمادى في إثارة التشكيك بخطة الزعيم إزاء الحكومة

اللبنانية، واعتراضه على صلاحيات الزعيم الدستورية التي لم تعد بنظره صالحة لتلك المرحلة من حياة الحزب والأمة ولا بدّ من إعادة النظر فيها. وتلا قرار الفصل قرار أخير بطرد كل من نعمة ثابت ومأمون إياس من الحزب حيث ثبت تواطؤهما مع الحكومة اللبنانية، ودعم موقفها العدائي من الحزب والزعيم، وإثارتهما التشويش حول الزعيم وتصرفاته التي أساءت إلى نمو الحزب وانتشاره في ذلك الحين.

أما الأمين أسد الذي كان يرى ضرورة مسaire الحكومة اللبنانية بمرونة وحكمة، لا تَعْمُد مجاهبتها والتصدي لها حفاظاً على مسيرة الحزب ومستقبل علاقته مع السلطة في تلك المرحلة من بدء الاستقلال، فلم ينقطع عن الاجتماع بالزعيم محاولاً إقناعه بوجهة نظره، مؤكداً شديد حرصه على إفلات الحزب من الأزمة المفتعلة التي بدت له قاسية الوطأة، خاصة ولم يمض على عودة الزعيم من المغرب سوى بضعة أسابيع، مدّة غير كافية لإطلاقه على حقيقة الوضع الحزبي والعمل على إعادة تنظيمه وتركيزه. توالى اللقاءات المطولة بين الزعيم والأمين أسد دون التوصل إلى أي توافق في وجهات النظر حول الموقف المتخذ من السلطة اللبنانية رداً على تصرفاتها من الحزب، وقد كان الزعيم شديد الإصرار على ضرورة التصلب تجاه السلطة لتماديها الآثم في التعسف والطفغان دون مبرر ومن غير حق. لقد فتحت السلطة المعركة ولم يكن ممكناً تجنّب مواجهتها أو تأجيلها ولا يصحّ أبداً الخروج من المعركة بالهرب أو التسوية. لأن التساهل في المواقف المبدئية يشكل سقوطاً إلى منحدر المساومات التي لا تليق بالهضة ورسالتها في العدالة القومية الاجتماعية، لا بدّ إذن من الصمود إلى آخر الشوط مهما غلا الثمن، قال الزعيم للأمين أسد، في إحدى جلسات البحث في الأسس والمنطلقات التي لا تحتمل الحلول الوسط الخالية من المزايا المميزة ومن العبر الجذرية:

«يا أسد أنت ممّن يعنون بالمسائل التاريخية عادة، وإني أطلب منك أن تأتيني ولو بجاذنة واحدة فقط من تاريخ نهضات الأمم، كان الانتصار فيها لأي نهضة معتمداً التسوية مع الرجعة والرجعيين فأقتنع معك حالاً بقبول التسوية مع الحكومة اللبنانية علّها تكون خطوة إلى تحقيق كسب للقضية. وإلا عليك أنت أن تطلع نهائياً عن اعتبار التسوية سبيلاً لأي نفع تجنيه النهضة، لا سيما النهضة السورية القومية الاجتماعية ذات النظرة الفلسفية الكلية الشمول إلى الحياة والكون والفن، أعظم نهضة لأعظم أمة في التاريخ».

انجلت لدى الأمين أسد، إذ ذلك، مفاهيم جديدة بالغة الروعة من معطيات النهضة المتميّزة بأعمق الأسس وأدق الحقائق العظيمة، ذات الأهداف البعيدة المرمى والغايات النبيلة السامية.

في اليوم التالي، عاد الأمين أسد الأشقر يحمل إلى الزعيم رسالته الشهيرة التي نشرت حينذاك، في أحد إعداد النشرة الرسمية بعنوان: «لقد أرسلت العناية الإلهية الزعيم في الوقت المناسب لإنقاذ النهضة والأمة» ومن ثم أصدر القرار القاضي بإلغاء عقوبة الفصل عن الأمين أسد وإعادته إلى صفوف الحزب عضواً نظامياً موثقاً ليعاود نضاله القومي الاجتماعي.

وكان انتصاراً جديد لقواعد النهضة ومفاهيمها ولصحة رؤياها في معالجة الشؤون القومية والمشاكل التي تطرحها الأحداث الجارية، ولحلول «العقلية الأخلاقية الجديدة التي يقدمها الحزب للأمة لمصالحها ومصيرها».

نحن نُقِيمُ مواقفنا ونعني ماهية قوانا من
خلال مفاهيمنا ومقاييسنا لا من خلال
مفاهيم الآخرين ومقاييسهم التي ندعوهم
للتخلّي عنها والأخذ بنظرتنا الكليّة الشاملة
وقواعدها

سعاده

حطّت الطائرة التي أقلّت الزعيم صباح الثاني من آذار المبارك 1947 في مطار بيروت حيث احتشدت جموع غفيرة من القوميين الاجتماعيين والأصدقاء التي توافدت من مختلف المناطق في الوطن السوري لاستقبال حضرة الزعيم العائد من مغتربه القسري بعد غياب طويل دام تسع سنوات ونيّف.

في الرابع من آذار، اليوم الثالث لعودة الزعيم، فاجأت السلطة اللبنانية الحزب والرأي العام بإصدارها مذكرة إحصار تدعو الزعيم للمثول أمام المحقق بشأن الخطاب الذي ألقاه لدى وصوله أمام حشود مستقبلية. إزاء موقف السلطة العدواني من الحزب دعا الزعيم مجلس العمدة إلى عقد جلسة طارئة لتدارس الأمر الواقع. تداول المجتمعون حادث مذكرة الإحصار وما ينطوي عليه من نوايا تُبَيِّهُها السلطة للإيقاع بالحزب عنوة ولمّا يمضي على عودة الزعيم إلى الوطن السوري سوى أيام معدودات. فارتؤي أن يغادر الزعيم بيروت مبدئياً ويتوجه إلى المناطق الجبلية مع إهمال مذكرة

الإحضرار. مما يتيح له القيام بجولات تفقدية لقوى الحزب في الكيان اللبناني مع إجراء اتصالات سياسية على جميع الأصعدة قبل المبادرة إلى اتخاذ تدابير لمجاهة اعتداء السلطات اللبنانية بما يستحقه صوتاً لحق الحزب في الحرية والوجود.

مضت على مذكرة الإحضرار المدة القانونية المحددة لتنفيذها دون اكتراث الحزب فأعقبها إصدار مذكرة توقيف تقضي بتكليف قوى الأمن ملاحقة الزعيم وإلقاء القبض عليه ليمثل موقوفاً للتحقيق معه. ولوحق الزعيم باسم القانون ومن قبل من حوّلوا القانون إلى أداة تجنّي وتشقي. ثم راحت قوى الأمن تجوب مختلف المناطق اللبنانية بحثاً عن الزعيم علّها توفّق إلى توقيفه لكن محاولاتها باءت بالفشل والخيبة.

في الثاني والعشرين من آذار عينه طلب الزعيم من عميد الداخلية دعوة جميع المنفذين العامين مع نظار التدريب في لبنان إلى عقد مؤتمر عام في الحال يحضره جميع العمدة. وقد وجه الزعيم إلى المؤتمرين رسالة مهمة عرفت برسالة الثاني والعشرين من آذار 1947. عرض فيها دقائق المشكلة المفتعلة مع الحزب دون مبرر ظاهر مفنداً المآرب الخفية للسلطة المتحكّمة من جراء فعلتها. كما طلب الزعيم في الرسالة أن يقف على رأي كلّ من المؤتمرين بالمشكلة الراهنة مع تقديم اقتراحات الحلول العملية لمعالجتها، وأنه يعلّق كبير أهمية على التعرّف إلى مختلف وجهات النظر والمقترحات بصدد إعداد التدابير المناسبة لردع السلطة عن التمادي في طعن حريات المواطن الأساسية التي بدونها لا معنى للدولة ولا وجود للمواطن في الدولة بل هناك فقط طغاة متسلطون ورعايا مستعبدون تُساق بالسوط والإرهاب. لا بدّ إذن من الردّ على العدوان المتعمّد من أيّ جهة أتى بما يليق بأصالة هذا الشعب وبِعظم مسؤوليّة النهضة في تحرير المواطن من ربق أغلال الرجعة والنهوض به إلى المستوى الذي هو أهل له وتوافق لبلوغه.

انفضَّ المؤتمر فتوجَّه العمد فوراً إلى مقرِّ الزعيم ليرفعوا إليه ضبط وقائع أعمال المؤتمر بدقائق تفاصيلها فضلاً عن ملاحظاتهم بشأنها. وكان المؤتمر قد أجمعوا على ضرورة رفض الحزب لتلبية مذكرات الحكومة والانصياع لها. على أن يصار إلى استنفار جميع قوى الحزب والأصدقاء لمواجهة ما يحتمل أن تقدم عليه سلطة قد ارتضت لنفسها ممارسة التسلسل والاعتداء السافر على حق يمنحه القانون للمواطن عوضاً عن أن تلتزم هي بالسهر على تطبيق القانون والعمل على صيانتها من أي عبث أو استهتار حرصاً على هيبة الدولة والأمة.

لقد استمرت السلطة في ملاحقة الزعيم تنفيذاً لمذكرة التوقيف وثابر الحزب من جهته على إعداد كامل قواه وإمكانياته للدفاع عن نفسه في صدِّ المؤامرة الرامية إلى شلِّ نشاطه وتعطيل نموه خاصة وقد أصبح انتشار الحزب آنذاك مصدر قلق لرجال تلك الحكومة بقدر ما هو بطبيعته مصدر تحرير للشعب من عوامل الضعف والتخاذل.

تابع الحزب تنظيم صفوفه دون أن يتوقف عن اتصالاته السياسية، علَّه يقنع الجهات الحكومية بالإقلاع عن سلوكها الاستبدادي وتدابيرها الخارجة عن القانون الذي لا بدَّ أن يلتزم به بلد متحضر يحترم حرّيته وسيادته. والحزب يلجّ دوماً على شرعية احتكامه للشعب وتصميمه على الصمود لتوطيد كيانه وحماية استمراره. وقد اعتمد سياسة ضبط النفس مع حرصه على تأكيد وجوده ضمن احترامه للقوانين المرعية. مع ذلك برزت بوادر استعداداته لمجاهمة أيِّ احتمال لدى الحاجة. لأن حشود القوميين والأصدقاء كانت تتزايد في مواكبتها لتحركات الزعيم وزياراته المتلاحقة للفروع.

امتدت ملاحقات السلطة للزعيم خلال سبعة أشهر وسبعة أيام دون أن يحدث أي احتكاك يذكر بين القوتين: قوة الرجعة وقوة النهضة. ولما لم تَقْوِ قوى الأمن على إنجاز مهمتها باعتقال الزعيم أو الحدّ من تجواله المستمر في المناطق استجابت الحكومة إلى منطلق المفاوضات ووافقت على إلغاء الملاحقة وإيقاف كلّ ما من شأنه تصعيد التوتر لدى الشعب وإثارة ردود الفعل المتزايد ضد مسلكها التعسّفي. وتمّ التفاهم على طيّ مذكراتها وسحبها. والحزب في ديمومة مسيرته التاريخية يصون نهضة الأمة السورية لنشر الوعي في صفوف الشعب، وعادة تقدمه بنفسه وبموابيه الفذة.

طيلة فترة الملاحقات والصحف تنطلق بحميّة ناشطة في حملاتها الإعلامية العارمة. منها ما ساند موقف الحزب وأشاد بروعة صموده إزاء الطغيان والإرهاب ومنها ما راح يندّد بما أسماه عصيان الحزب وتمرّده على سلطة السلطان، محرضاً الحكومة على تشديد حملاتها للقضاء على الحزب، ومنهمكاً في مؤازرتها للتنكيل به واستئصال وجوده. وقد لقت موجة الحماس والتضارب بالمواقف والاتجاهات أغلبية الصحف في لبنان وسائر الكيانات السورية وبقية أمم العالم العربي فضلاً عن الكثير من الصحف الأجنبية التي أولت المرحلة عميق اهتمامها. وصار مراسلو الصحف يتسابقون للاجتماع بالزعيم ونشر التصاريح المستفيضة والمقالات المطوّلة عن شخصه وعن الأزمة الناشبة بين الحزب وحكومة لبنان. حتى غدت أخبار الحزب وخاصة تنقلات الزعيم وتصاريحه مدار اهتمام جميع الناس وموضوع مناقشاتهم اليومية وتوزع آرائهم ومواقفهم من قوة النهضة والقوة المناهضة لها.

ما أن سحبت مذكرة التوقيف وساد الصمت الإعلامي حول شؤون الحزب وشجونه حتى شعر فريق من القوميين الاجتماعيين والمؤيدين أول الأمر بمرارة العزلة تقصّبهم عن الشعب. كأن الحزب لم يعد موجوداً أو أنه

أصيب بخسارة فادحة عطلت قدرته على الاستمرار وأودت به إلى الارتداء مغموراً في حلك الظلمة.

لاحظ الزعيم ما كان لهذا الصمت حول الحزب من وقع أشبه بصدمة نفسية تزعزع الإيمان وتمز الثقة بالنفس. فأهاب المعلم بالقوميين الاجتماعيين للتأمل في حقيقة بالغة الروعة والعمق والأخذ بها كما يليق برجال نهضات التاريخ الذين يمثلون أروع انتصارات الحق والحقيقة للعالم بأسره:

رفقائي، رجال النضال السليم

إن سكوت الآخرين عن تناول الحزب سواء بالتأييد والإعجاب أو بالتهجّم والاستنكار، هذا السكوت يجب أن يشكّل لنا مجالاً مهماً للتأمل العميق، وفرصة جدّ ثمينة تغتنمها لنُقيّم مواقفنا وحقيقة قوانا بهدوء وروية من خلال مفاهيمنا نحن ومقاييسنا لا من خلال مقاييس الآخرين التي تغلب عليها الديماغوجية الرعناء، ولا انفعال مفاهيم الرجعة المتسمة بالسطحية والعاطفية لأنها مفاهيم لا قومية اجتماعية تأخذ بالنظرة الجزئية المجزئة للحقيقة والواقع، هي مفاهيم الإنسان القديم البائدة في عهد النهضة.

نحن وحدنا ندرك حقيقة من نحن ووجدنا المتفهمون هذه الحقيقة الخالدة والقادرون على تدارسها لنقدّم وعينا لها وإيماننا بصدقها نظرة كليّة شاملة إلى الحياة والكون والفن. فيلد وعي الحقيقة الثقة بالنفس للسير في طريق الحياة الطويلة الشاقة ويشق الطريق لتحيا سورية.

لدينا، عند العقول تضيق البطون سعاده

ذلك اليوم الحافل بالفرح العظيم كأنه مولد جديد لبزوغ فجر النهضة بعد احتجاب مريم، يوم عودة الزعيم من المغترب إلى بيروت كان مناسبة حشد عارم تلاقت فيه على أرض المطار غالبية القوى القومية الاجتماعية المقيمة ضمن الوطن السوري القادر على الانتقال والحضور.

لقد سدّد خطاب العودة تعطّش القوميين الاجتماعيين للقاء الزعيم خلال تسع سنوات وعالج فيه جميع معاناة الصفوف من فراغ القيادة وغياب المرجع التراث ومصدر التوجيه والقدوة.

عالج في ذلك الموقف بالذات مفهوم الاستقلال الحقيقي للبنان ولسائر الكيانات السورية وأبعاد مدلولاته الفكرية القومية والمناقبية فاضحاً بصراحة مدهشة ووضوح قاطع غياب المأخوذين بالمظاهر وتربّص المنافقين لحقيقة السيادة التي لا بدّ أن تقصمهم ساعة انتصارها عن منصّة المسرح وتعري ادّعاءاتهم الباطلة المضلّلة. كذلك نسف سعاده في خطابه جميع الترتيبات الانحرافية والبدع اللا قومية اجتماعية التي تواطأ على إدخالها إلى الحزب بعض من أخذ يراود أطماعهم الخصوصية القفز الهلواني في أرجوحة السياسة فوق صخرة العقيدة الصامدة. وكان هؤلاء قد أعدّوا

مستلزمات الأعيانهم قبل ذلك علّمهم يضعون الزعيم أمام الأمر الواقع فيحملونه على الرضوخ إلى رغبتهم في تطوير العقيدة بما يخرجها عن طبيعة طورها باتجاه المساومات والتسويات السياسية، سواء تجاه السلطة اللبنانية أو إزاء مفاهيم مدسوسة في فكر الحزب قيل حينذاك أنها تجديدية مهمة مع أنها غريبة عن أصول قواعد النهضة وعن صميم مرامها ومقاصدها في تأسيس العقلية الأخلاقية الجديدة التي هي أهم ما يقدمه الحزب للأمة السورية، لمصالحها ومصيرها.

كان ذلك الخطاب بمثابة النفير العام للعودة بقوى النهضة إلى ساحة الجهاد. كان دعوة للتحرر من جميع شوائب الانحراف والتحرير اللا قومي اجتماعي. وكان الرفض الصريح لشعوذة ما سمي بالتجديد والتطور تلبية لمقتضى ظروف ناشئة كما كان أيضاً تأكيد التحرر من تحسّبات التدخل يمارسه الإنسان القديم ومفاهيمه الرجعية في الروحية القومية الاجتماعية. وقد بلغت مخاوف الرجعة على نفسها إزاء قوتنا النامية حدّاً جعلها تترصد تحركاتنا للإيقاع بنا.

كانت كلمة المطار ذلك الكشف الحاسم عن جميع المخبّات الكامنة في النوايا السيئة المتربّصة للإجرام وفي النفوس الملتوية المتأمرة التي ظنّت أنها بمأمن من الفضيحة والوقوف أمام وجدان الشعب.

إثر الخطاب توجّه جمع غفير من ذلك الحشد اللجب إلى منزل نعمة ثابت برفقة الزعيم. هناك تناول الرفقاء طعام الغذاء بهرج ومرج ينمّان عن روعة الفرحة الكبرى التي غمرت النفوس بفيض من السعادة والاعتزاز لملاقاة حدث عودة الزعيم إلى الوطن، عودة القيادة وقدرة التحقيق لمواجهة النصر الموعود. تلك الأثناء والانهماك على أشده في التزوّد بالطعام والشراب كان العديد منّا يحيط بالزعيم ويتسابق للاستماع إلى كل همسة تهفو على

لسانه وتشرئب في نظراته وابتسامته المفعمة بالغبطة والاعتزاز. آنذاك توجه الأمين فؤاد أبي عجرم إلى الزعيم بقوله هل ترى كيف أن «عند البطون ضاعت العقول» فالتفت إليه الزعيم بهدوئه العميق التنبّه واليقظة، العميق بحضوره الدائم في صميم كل إشارة وبادرة ثم أجابه قائلاً: هذا يصحّ عند سوانا لكننا نرى نحن أن «عند العقول تضيع البطون».

لم يكن بالإمكان أن تمرّ غلطة أمام الزعيم مهما بدت طفيفة وعابرة ولو على سبل النكتة أو الملاحظة المرححة إلا ويتناولها بالتدقيق والتصويب كي تعبر كلها عن مفاهيم النهضة ومعانيها الحقيقية دون أي إبهام أو إشكال. فالتسوية ممنوعة في كل شيء وكل مضمار وأن المفاهيم الغائمة والحائرة بين فكر الإنسان الجديد والإنسان القديم مرفوضة بمقتضى التخلي عنها وتصويبها بفكر النهضة.

إذا كانت حاجة البطون تستولي على العقول ومتطلباتها عند سوانا لأنهم يعملون لإقامة العيش من دون مطالب الحياة العليا فإن الأمر لدينا على عكس هذا المفهوم، ما دمنا نرى أن العقل هو الشرع الأعلى، هو الشرع الأساس، وما دمنا نعمل لإقامة الحياة وقتل العيش ولا يجوز لأي شيء بنظرنا أن يعطلّ فعل العقل فينا أو أن يؤثّر في قدرته وفاعليته للخلق والإبداع اللامتناهي.

لذلك نحن لا نسلم بأن عند البطون تضيع العقول، بل عند العقول تضيع البطون، نحن حركة تؤمن بالحياة وتعمل لها. نحن أبناء الحياة ورواد فضائلها ومثلها بقدر ما نفكر ونعمل لتحقيق أغراض الحياة.

«نحن جماعة لم تفضّل يوماً أن تترك عقيدتها وأخلاقها لتنقذ جسداً بالياً لا قيمة له».

ليس من حقيقة أقوى ولا أسمى من فعل الثقة في بناء النفوس وتحقيق المطالب والمقاصد

ما كاد الزعيم يصل إلى الوطن من مغتربه القسري حتى بادرت السلطة المتسلطة على حرية الناس إلى إصدار مذكرة التوقيف الشهيرة بحقه، لأنه صرح الشعب بقوله إن الاستقلال الذي ناله من دون عناء ولا سابق إعداد له، هذا الاستقلال هو بمثابة «خروج الأمة من القواويش» التي كانت فيها ولكنها لا تزال ضمن أسوار السجن. الأبواب مفتوحة، التي إلى الداخل، أما التي إلى الخارج فلا يزال عليها السجنان وهم دائماً منا في الغالب».

تلك الأثناء انصرف الزعيم بالدرجة الأولى إلى تحقيق العودة إلى ساحة الجهاد التي أطلق الدعوة إليها في خطابه يوم وصوله إلى الوطن. وقد كلفني كعميد للداخلية بدراسة دقيقة وعاجلة لأوضاع المسؤولين في مختلف الأجهزة والمؤسسات الحزبية لتركيزها بدءاً من منقذية بيروت نظراً لأهميتها الأساسية من جميع الوجوه في سير العمل الحزبي عامة وفي لبنان خاصة.

وقد عيّن حينذاك الرفيق محمد راشد منفذاً عاماً لمنقذية بيروت وعهد إليه أمر اختيار معاونيه في هيئة المنقذية واقترح تعيينهم إلى المراجع المختصة. ثم أخذ العمل الحزبي يسير في بيروت بنشاط وانتظام ملحوظين.

والمنفذ العام هو من أقدم أعضاء الحزب ومن أكثرهم آنذاك خبرة وممارسة لشتى المسؤوليات. وتعود معرفتي بالرفيق محمد راشد إلى الثلاثينات يوم كان وكياً لعميد الداخلية وكنت أنا ناظراً للإذاعة في منقذية طرطوس. وقد تم التعاون بيننا والتعامل المسؤول على صعيد مرموق من التجاوب والتلبية القومية الاجتماعية. إلى أن فاجأني الرفيق محمد راشد بالتوقف التام عن كل نشاط وكل تلبية لأي واجب قومي اجتماعي مهما كان بسيطاً وهاماً. فألمني هذا التغير بسلوكه النظامي الذي لم يكن بالحسبان فضلاً عما كان يكتنفه من غموض وإبهام، ثم رحلت أبحث عن الأسباب أو المبررات لذلك بكل الوسائل والأساليب النظامية علّني أقف عليها وأوفق إلى معالجة الوضع الشاذ الناشئ عنها.

وصار المنفذ العام يتجنب اللقاء بي أو الإجابة على أي طلب أوجهه إليه. تابعت السعي للاجتماع به فترة غير وجيزة بلا جدوى حتى داهمته من دون سابق موعد في عمله. وقد كان عميق الارتباك عند مواجهتنا واضح التملل والمضايقة من وجودي وقد طلبت منه موعداً عاجلاً لا بوصفي مسؤولاً إدارياً كعميد للداخلية مع منفذ عام بل بصفتي قومياً اجتماعياً فقط يود التحدّث مع رفيقه ومصارحته بشؤون حزبية جديدة باهتمامهما. فالمسؤولية الإدارية تأتي وتذهب بموجب قرار أو مرسوم أما العضوية في الحزب فلا تكون بقرار أو مرسوم إنما هي ذات ميزات وخصائص أكثر ثباتاً واستمراراً وأعمق رسوخاً. وقد تم لنا اللقاء على انفراد في اليوم التالي في غرفتي برأس بيروت فدار بيننا الحديث التالي:

يا رفيقي أنت ممن عرفتهم مسؤولاً مركزياً يوم كنت في مطلع حياتي الحزبية أمارس مسؤولية ناظر إذاعة في منقذية طرطوس. إنك أسهمت في إعطائي الكثير من التوجيهات وفي تكوين خبراتي ومعلوماتي عن الحزب والعمل الحزبي. وقد باشرت وإياك العمل الحزبي خلال الأشهر الماضية بالتعاون المجدي الذي أعطى النتائج الجيدة لمصلحة الأمة والحزب.. فماذا هناك بعدئذٍ حتى انقطعت فجأة عن تلبية أي واجب حزبي؟.. أمل أن تصارحي بحقيقة أسباب توقّفك عن ممارسة مسؤوليتك الحزبية المفروض إعلامنا بها. لا بدّ أن نتطرح جميع المواضيع خاصة ما أوصلنا منها إلى القطيعة فيما بيننا وأفقدنا إمكان العمل الحزبي وأي مجال لإنتاج قومي اجتماعي. هات ما لديك من هموم وشجون وأفصح عما يراودك تجاه أي رفيق أو أي مسألة حزبية من تساؤلات ومن شكوك وشكوى حتى لو كان ما يقلقك يتناول أمانتي للقضية القومية الاجتماعية. لا بدّ أن نعاود ثقتنا وتعاوننا معاً لخير هذه الأمة وانتصار نهضتها.

أمام هذا الإلحاح الشديد لكشف ما يخامر الرفيق محمد راشد من هموم وهواجس تمنعه من متابعة العمل الحزبي وإزاء تأكيدي على ضرورة المصارحة الكلية ووجوب الإفصاح الكامل عما يعانیه من آلام وجدانية مهما بلغت من الخطورة ووعورة التداول بها، توصل الرفيق محمد راشد إلى البوح بما يُقاسيه من متاعب تعيق مسيرته الحزبية وهو بأشدّ حالات التوتر والقلق المضني فقال:

«نعم أنت تشكل العائق في سبيل قيامي بواجباتي الحزبية لأنك أصبحت منذ حين بنظري خائناً لعقيدة الحزب وقضيته بعد أن كنت لي القدوة التي أتوق إلى السير على خطاها والامتثال بها».

ثم توقف بغتة عن الإدلاء بالتفاصيل والأدلة التي تثبت «خيانتي» والتي سببت له صدمة أخدمت لديه كل إمكانية نشاط وكل طاقة لممارسة حتى عضويته في الحزب.

فقلت له، يا رفيقي، فيما أن تصارحني بكل شيء وأنا مستعد لأدافع عن نفسي أمام وجدانك القومي الاجتماعي.. أتقبل منك أي حكم مهما كان نوعه كما أتقاضى أمام أي سلطة أو مرجع وأما أن نذهب سوية وفي الحال لمقابلة حضرة الزعيم كي يحكم بيننا وينظر بخطورة التهمة الموجهة إليّ لأن له وحده ملء الحق بأن يصدر بحقي العقوبة القصوى إذا ثبتت إدانتي وأن يتحقق من براءتي حتى نعود سريعاً إلى نشاطنا المعتاد وتعود الثقة القومية الاجتماعية، لتجمعنا فنحمل شرف العضوية في الحزب ونتحمل مسؤوليات النهوض بالأمة السورية.

بعد صمت مكثف حائر استأنف الرفيق محمد راشد الإدلاء بمعلوماته عن ماهية اتهامه لي بجرم الخيانة، ثم راح يصغي إليّ بكل أمانة للحقيقة وأنا أفند له وجهات نظري ومعلوماتي بالتفصيل. أقدم إليه جميع الإيضاحات اللازمة جلاءً للملابسات الأخبار والأحداث التي أدت إلى اتهامي بأفطع إثم وأودت به إلى صدمة عنيفة استحال عليه معها تقبل التعامل معي واللقاء بي على أي صعيد.

انتهت تلك الجلسة التي تجلّت فيها وحدة الروح القومية الاجتماعية وتألقت مناقب الصراحة النبيلة وروعة الشعور بالمسؤولية، وقد تبين خلال أربع ساعات ونيف للرفيق محمد راشد صدق براءتي مما نسب إليّ أو ظنّ بي من سوء وبعض الظنّ إثم. فنهض إذ ذاك يحييني تحية الشرف والحقيقة والعقيدة ويعانقني بحماس الفرحة الكبرى وحرارة من وجد ضائعاً كان قد فقد الأمل بلقائه حياً. ثم أعلن كامل استعدادده للتكفير عن تهاونه الذي

ولّده الشك وذلك بمضاعفة النشاط الأشدّ والاندفاع الأقوى في تلبية جميع واجباته القومية الاجتماعية من أجل تحقيق ما تعاقدنا عليه من أمر خطير يساوي كل وجودنا. «ومتى حلّت الثقة محلّ الشكوك، متى حلّ الإيمان محلّ الشكّ، قضي على التردد والفضى والبلبلّة ويمكننا أن نتقدّم من الشكّ إلى الإيمان ولا يمكننا أن نتقدّم من الإيمان إلى الشك بل يمكننا أن نتراجع القهقري».

بالثقة وحدها تتحقّق معجزات خارقة لا يتصوّرُها المشكّكون فاقدو مواهب الثقة واليقين الجبارة.

احذروا مغبة خداعكم لنا ولا تستهينوا بطيبتنا وثقتنا بالناس

سعاده

إبان ملاحقة السلطة اللبنانية للزعيم إثر عودته من المغرب في الثاني من آذار 1947، ولدى اقتراب موعد الانتخابات النيابية المقررة في الخامس والعشرين من أيار من السنة ذاتها، أخذ المرشحون والمُستَنوِبُونَ، حينذاك، يتسابقون للاتصال بالزعيم، وزيارته في البرية حتى في ساعات متأخرة من الليالي.

كلّهم جاء إلى الزعيم شديد الإعجاب بشخصيته الفذة وبالحزب ومبادئه الصالحة للأمة ومستقبلها التي لا مثيل لها، دون أن يفوته إبداء النعمة العارمة على السلطة الظالمة لمطاردتها له دون وجه حق، «لكن ما العمل، الله يهديها».

كلّهم قد حرص بصورة لا تقبل الشك على تأكيد صداقته الحميمة وتأييده المطلق القديم للحزب في بلده وحيثما تعرّف على أشخاص من الحزب، مدللاً على صحة صداقته بالحوادث والأرقام والشواهد القاطعة.

كلهم أفاض بالتحدث عن شخصه الكريم مشيداً بمؤهلاته ومواهبه المرموقة وخاصّة عن جدارته لتمثيل إرادة الشعب في الندوة النيابية إذا ما قيّض له النجاح الذي يتراءى مضموناً بإذن الله وتأييد الزعيم مفنداً ببيان مسهب أنه المرشح الأقوى والأنفذ بين سائر المرشحين المتطقلين الذين يثيرون شفقتة حيناً وسخريته حيناً آخر.

كلهم مستعجل يلجّ على انتزاع وعد من الزعيم بتأييد ترشيحه ومؤازرته لضمان النجاح المرتقب. مردداً تفوّقه بكل شيء على منافسيه ومتحمساً للتعريض بهم والنيل من قوتهم ومكانتهم والتهميم عليهم شخصياً.

ولم يصادف مرة أن أحداً من هؤلاء الأبطال قد تقدّم من الحزب بمساعدة مالية أو دعم سياسي للخروج مثلاً من أزمتة مع السلطة اللبنانية مما يدل على ظلّ من الصداقة الفعلية للحزب، والاستعداد الصادق للتعاون معه ومساندته بأي أمر. إنما كانت أحاديثهم مقتصرة على الهَيُورَات وعرض العضلات، وعلى صياغة المطالب بألفاظ وعبارات تنمّ عن تزلف مُشين وتواضع مُمين. بينما هم الأقوياء الناجحون بأقل جهد وبضعة أصوات مضمونة هم يستجدون تأييد الحزب الكامل بأعضائه وأصدقائه وحلفائه ومؤازرته الفعالة بسرعة قصوى وحماسة عارمة. كأن نجاحهم في الوصول الشخصي يشكل دعامة كبرى لقضية الأمة ومصيرها.

كلهم يغدق الوعود الطويلة العريضة بتأييد الحزب ودعمه في كل مواقفه ومطالبه إذا قدر له النجاح ووصل إلى سدّة النيابة المضمونة في حقيبته أو جيبه الصغرى، مدللاً دائماً وبأساليب عجيبة غريبة على تفوقه بالمقدرة العلمية والأخلاق الحسنة والسمعة الطيبة العطرة «مثل المسك»، أبا عن جد، وخاصة ما اشتهر عنه من عرفان الجميل والوفاء للقريب والغريب.

هكذا أمضى الزعيم الأيام والأسابيع وهو يودّع نماذج من هؤلاء الزوار ليستقبل نسخاً أخرى، منقحة أو مشوهة، يصغي كثيراً وباهتمام عميق لكل ما يقال ويعرض عليه من أفكار واقتراحات ووعود، ومن توقّعات وتخمينات طريفة ظريفة. دون أن يبدي رأياً أو تعليقاً ما سوى قوله «أن الحزب يتابع دراسته للأوضاع والمرشحين وهو لم يقرر موقفه بعد». وكان في بعض الأحيان يقاطع محدثه ليوجه إليه سؤالاً معيناً يهدف إلى استكمال دراسة الشخص أو التعرف أكثر إلى أوضاع منطقته ومواصفه زملائه وأخصامه المرشحين الآخرين، أو يبدي ملاحظة يخفّف بها من غلواء المبالغات الصببانية التي كان يحاول بعضهم أن يتهمّور بها ليهبر الزعيم وينال إعجابه وتعجّبه لاستدراجه إلى وعده بالتأييد المقصود على أنّه الضمانة الأخيرة والأمل الوحيد المنقذ للعباد من كل حيف وكل أزمة ومأزق قد يحلّ، لا سمح المولى، بالناس والوطن.

في إحدى الجلسات التي تعبّر بكل وضوح وصدق عن العقلية السياسية التي كان يتمتع بها السياسيون والتي جرّت المهازل والمآسي جاء إلى الزعيم طبيب من عائلة مرموقة ومعروفة في دنيا السياسة يرافقه أحد المحامين البارعين الذي بدوره يعمل في السياسة، وكان الوقت متأخراً في بيت في أطراف ضهور الشوير، وصدوف وجودي هناك، وكنت عميداً للداخلية، فراح كلُّ منهما يشرح بالتناوب عن أهميته وقوته الشعبية ومكانته في المجتمع، وكذلك يشرح صداقتهما الحميمة للحزب ولمواقف الزعيم، فقال لهم الزعيم: «لستم أصدقاء الحزب، بل أصدقاء منافعكم الخصوصية تطلبونها بوقوف الحزب إلى جانبكم في الانتخابات ضد خصومكم دون النظر إلى أي جانب من المصلحة العامة. فالصداقة لا تكون إلا بصدق التعاون والتعامل بقناعة وأخلاق لغرض نبيل يجمع بين الأصدقاء الحقيقيين، ويمتّن صلاتهم ويعمّق التفاهم بينهم». وكأنكم بهذا

التأكيد على ما نحن عليه من طيبة تعنون بأننا بسطاء وسذج يسهل استغلالنا واستثمار إمكانياتنا ببعض العبارات المعسولة والوعود الباهرة الطائنة. لا ريب أننا طبيون وَنَتَمَسَّكُ بالصدقة الحقيقية لنمدّها بما يجعلها أفعل وأقدر على الاستمرار وممارسة أنبل الصدق لأسمى الصداقة. فالصدق لدينا من أهم المناقب وأجمل الأخلاق للإنسان في تحقيق إنسانيته. قد نُخدع، ليس عجباً، بوضع ثقتنا في غير موضعها، لأننا نثق بإنساننا ولا نتخلى عن بناء الثقة في فكره ونفسه، لكننا أيضاً، وعندما نرى لزوماً، نعرف كيف نمكر على الماكزين، ليكون لهم من مكرنا عبراً ودروساً توقظهم من غفلتهم وتوهمهم من أن دَهَقَنَتِهِمْ لا تعجز عن التلاعب بعقول السذج ممّن تدعونهم «الأوادم»، «أولاد الحلال». احذروا مغبّة خداعكم لنا ولا تستهينوا بطيبتنا وثقتنا بالناس. هي من طبيعة أصالة أمتنا التي يعمل الحزب على بلورتها قوة عاملة للعطاء والبناء. «يتساوى العاجز والناهب بالبناء والتعمير ولا يتساويان بالخراب والتدمير».

«إِنِّي بِنُحْوَ لِيهِمْ يَصَرِّدَقُوا»

سعادہ

ما أن أصدرت السلطة اللبنانية مذكرة التوقيف بحق الزعيم، إثر عودته من المغرب في الثاني من آذار 1947، حتى بادر إلى التجول في القرى الجبلية، متفقداً قوى الحزب التي غاب عنها طيلة سنوات تسع، إبان الحرب العالمية الثانية، موجهاً ومشرفاً على سير الأعمال الحزبية في شتى الفروع والمؤسسات، بالإضافة إلى ما قام به من لقاءات إذاعية فكرية واتصالات سياسية اجتماعية مع الرفقاء والمواطنين من مختلف المناطق والمستويات الثقافية. ذات يوم، تبلّغتُ مع عدد من الرفقاء، أمراً من حضرة الزعيم يدعوننا لملاقاته إلى مديرية سرحمُول، منقّدية الغرب، في منزل الرفيق توفيق نور الدين، حضرنا من بيروت إلى عين عنوب، ومنها سرنا على الأقدام إلى بشامون فسرحمُول. ووصلناها مع بزوغ الفجر. استقبلنا صاحب الدار، ثم انتقلنا إلى غرفة فسيحة حيث كان الزعيم ينتظرنا مع بعض الرفقاء. بعد أداء التحية، أخذ الزعيم يتمسّي بخطى وئيدة ذهاباً وإياباً في

باحة الغرفة الكبيرة، وهو يملي رسالة على الرفيق وديع الأشقر، وكيل عميد الإذاعة، من كفرقاحل - الكورة، الجالس خلف طاولة صغيرة في إحدى زوايا الغرفة.

بعد دقائق معدودات، اقترب الزعيم من الطاولة وتناول ورقة مطوية بحجم رسالة عادية، واتجه نحوي ماداً إليّ يده بالرسالة. فوقفت وسرت إليه في الحال لأتسلم الرسالة مستوضحاً «لمن تريد، يا حضرة الزعيم أن أسلم الرسالة» فأجابني بقوله هذه لك. فتحت الورقة المطوية بإحكام ووجدت نفسي فجأة، أمام صادرة رسمية متوجة باسم الحزب، مكتب الزعيم، وفي أعلاها من الوسط رسم النسر، شارة الزعامة. هي مرسوم بتوقيع الزعيم وخاتم الزعامة، مؤرخ في الأول من نيسان 1947، يقضي بتعييني عميداً للداخلية في الحزب السوري القومي الاجتماعي. ولم يسبق أن فاتحني الزعيم بهذا الأمر على الإطلاق. بعد أن قرأت المرسوم بشغف وتأنٍ قلت له: «إنني، بطبيعة الحال، على أتم الاستعداد لكل تلبية. لكنني ألفت نظر حضرة الزعيم، إلى أنني طالب في معهد الحقوق الفرنسي، بيروت، ومدرس مادة الرياضيات في معهد البكالوريا المسائي، رأس النبع، لصاحبه محمد العيتاني. وبودّي لو يتاح لي، أن أتابع دراسة الحقوق».

فأجابني الزعيم «لا يضيرنا أن تصبح يوماً ما محامياً، لكن هناك ظروف في حياة الأمة، تقضي بوضع كل ما هو شخصي وخاص على الرف وتقديم أغلى التضحيات.

أنت الآن عميد للداخلية، عمك هو التجوال في المناطق، الاتصال العي بالرفقاء والمواطنين وليس بالمراسلة، من وراء المكاتب. والرفقاء في المناطق يؤمنون لك الإقامة والمأكل، فالأمر يعود إليهم، هيّا إلى العمل، يا حضرة العميد».

عند أصيل ذلك اليوم المليء بالأعمال الهامة خرجنا جميعنا برفقة الزعيم إلى الجنيينة المحيطة بالمنزل، حيث وُضعت مجموعة من الطاولات الصغيرة والمقاعد، لناخذ قسطاً من الراحة. نتناول بعض المرطبات والفاكهة. وكنت طيلة الوقت أقلب مرسوم الزعيم بين يدي، أضعه حيناً في جيبى بكل حرص وعناية لأستعيد قراءته حيناً آخر بإمعان وتمعن، مما لفت انتباه حضرة الزعيم وقال مرحباً «ألم تحفظ حتى الآن هذا المرسوم عن ظهر قلب، وأنت تكرر قراءته منذ الصباح؟» أجبته ليس الأمر هكذا، يا حضرة الزعيم بل صدور هذا المرسوم في الأول من نيسان قد استوقفني. فبادرني واضعاً يده على كتفي، والضحكة تملأ أسماع الحضور «لا بأس، يا حضرة العميد، إنت بتخلّمهم يصدقّوا، والآتي قريب».

وكان يوماً جميلاً بالأعمال المثمرة، جميلاً بما تخلّله من مرح واستجمام عميق مفعم بالأمال الكبار إلى جانب الزعيم الرفيق، الذي علّمنا الفرح في حياتنا وأعمالنا، كما علّمنا الجدّية في الصراع والإنتاج المجدي.

«نحن نحمل المتاعب، لا ننوء ولا نرزح بها، ننتصر عليها ونخرج إلى مرح وانشراح في الحياة إلى تحقيق للوجود، الذي لا يمكن أن يكون عبثاً أو وهماً».

«الحياة مغامرة، يا رفيقي، والحزب مغامرة بقلب مغامرة»

سعاده

مضى على صدور مذكرة التوقيف بحق الزعيم التي استمرت سبعة أشهر وسبعة أيام قبل إلغائها، ما يزيد على السنة. طرد أثناء هذه المدة أصحاب البدع، والتحريف في العقيدة والنظام، الذين حاولوا عبثاً، تحويل مجرى النهضة بجعل السياسة وأغراضها هدفاً ومطلباً بذاتها من دون العقيدة ونظرتها إلى الحياة والكون والفن. وقد اجتاز الحزب في تلك الحقبة إحدى المراحل الصعبة، وأطل على مرحلة من الهدوء النسبي والهدنة العابرة المؤقتة في معركته الطويلة الشاقة.

راودني، حينذاك، الحنين إلى دراسة الحقوق التي صادف أن علّقتها مراراً بسبب الظروف الحزبية القاسية ومقتضيات الواجب القومي، وفكرت أن أقدم استقالتي من مسؤولية عميد الداخلية، لأنقطع إلى الدراسة والتحصيل الثقافي المطلوب من جانب كل قومي اجتماعي يعي أهمية المعرفة، وعميق خطورتها في إطلاق إمكانياته للبناء والتحقيق.

طلبت موعداً من حضرة الزعيم لأفاتحه بالأمر الذي اعتبره جليل الأهمية. لدى اجتماعي به أفضيت له برغبتي بالاستقالة من مسؤوليتي الحزبية واستئناف الدراسة، أجبني متجهماً، وقد بدا الامتعاض عليه بقوله «هذا الأمر يعود إليك أنت وحدك ولك أن تقرره كما تشاء». ولما لاحظت أنني لم أدرك مقصده، أضاف موضحاً، «أنت تشغل الآن مسؤولية حزبية هامة في مرحلة دقيقة من تاريخ الحزب والنهضة، وقد بدأت بإعطاء النتائج الحسنة فيها، وفي الوقت الذي نفكر فيه بدعوة آخرين لنضعهم تحت تصرف العمل الحزبي، تطالبنا بالاستقالة حرصاً منك على إتمام دراستك. فإذا كنت لا تأنس من نفسك القدرة على المغامرة فليس بمقدور أحد أن يجعلك مغامراً. إن الحياة مغامرة يا رفيقي والحزب مغامرة بقلب المغامرة. عليك أن تقرّر ما أنت أهل لعمله. وقادر على تقديمه للنهضة التي تساوي وجودنا».

أطرقت مرتبكاً خجولاً من مواجهة ترددي في الإقدام على حياة المغامرة، ومن تقصيري في تحمّل مسؤولية رجل العقيدة، رجل النهضة الذي يجب أن يكون قدوة في العطاء، قدوة في المغامرة الحقيقية الكبرى.

إنَّ الأُمَّة العظيمة يبرهن انكسارها عمّا إذا كانت قوية في نفسها وقادرة أن تثبت للنكبات

سعاده

بدأت إحدى معارك التحرير لفلسطين 1948 هذه المرة بهجوم عام ضم الجيوش النظامية من مختلف الأمم العربية. وبدأت في مطلع ذلك الهجوم مؤشّرات التصميم على قتال مجيد يلقن العدو صدمة جديدة في متابعة مساعيه لإقامة دولته في «أرض الميعاد» على أنقاض أصحاب الحق الشرعي المطلق بالأرض والتصرّف بمواردها وخيراتها. وقد علّل الناس أنفسهم بخير النتائج لما أبدته الجيوش الزاحفة إلى فلسطين من الحميّة والإقدام حتى ظنّ أن المعركة قد تكون حاسمة وقادرة على وضع حدٍّ لأطماع اليهود في الوطن السوري، ولو إلى حين.

غير أن الدول الأجنبية الاستعمارية المتربصة بامتنا والتي وراء المؤامرة الصهيونية كانت تراقب عن كثب سير العمليات وتفاقم الأخطار المتزايدة على مصالحها في اتجاه المعارك المظفرة. وهي إذ أفرعتها انتصارات الجبهة العربية على اليهود، سارعت إلى التدخل بوصفها الحكم الذي يدعو إلى السلام

العادل والدائم كالعادة لمصلحة الطرفين حقناً للدماء وتأميناً لسلامة الأمن والآمنين جميعاً.

وراحت تلك الدول المشهود لها بحسن النية وسلامة الطوية تنشط وتناور تارة بالوعود المعسولة وتارة بالوعيد المرير عساها تحصل على موافقة الجانبين لإيقاف القتال وفصل القوات مع غيرها من التنازلات كي يتاح لها في جو هادئ إيجاد الحل المناسب خدمة للمصالح اليهودية الصهيونية المعهودة. وقد وُقِّعت، دون ريب، هذه الدول «المحايدة المُحِبَّة للسلام» إلى ما تشتهي. وتوصَّلت إلى إقناع ذوي الشأن في الحلِّ والربط، «المشهود لهم أيضاً بشديد الحرص على السيادة والتمسك بإرادة الشعب»، توصَّلت إلى إقناعهم، هؤلاء، بضرورة التفاوض حول نقاط الخلاف التي أوجبت القتال وإهراق الدماء. وكانت حصيلة الجهود «المشكورة» قبول «الهدنة الأولى» وتوقُّف القتال على جميع الجبهات في أجواء مليئة بالتوتر والتحفُّز مفعمة بالحماس الجارف والتفاؤل العارم.

مرت على الهدنة فترة لا أذكر مداها بين ترقُّب محموم من جانب الشعب وتصميم فذٍّ لحَمَلَة السلاح على خوض معركة الشرف والكرامة بين لحظة وأخرى لإحراز النصر وصور السيادة. بينما أصحاب السيادة والفخامة والجلالة يوالون الاجتماعات الخفية وراء الأبواب المقفلة حيث تمارس سياسة الثعلبية والنفاق التي أوصلت الأمة دائماً إلى الكوارث والمآسي.

طيلة مراحل القتال قبل الهدنة وأثناءها والحزب يقوم باتصالات مكثَّفة بجميع الجبهات والجبهات ليحصل على السلاح فينزل بكامل قواه ومعداته إلى حلبة العطاء والشهادة، وبعد وعود متعددة ونكوث مستمرٍّ للوعود، كان الجواب «لا سلاح للقوميين الاجتماعيين». وهكذا أُقصي الحزب السوري القومي الاجتماعي عن المشاركة الفعالة النظامية في القتال من

أجل جنوب سورية ضدّ برابرة الصهيونية اليهودية. «مع ذلك فقد انخرط قوميون اجتماعيون عديدون في الجيوش المحاربة وحاربوا في كل الميادين. وكانوا المتطوعين الشعبيين الوحيدين الممتازين بنظامية وتفانٍ في الواجب. شهد بهما كثيرون من الذين عاينوا أعمالهم من رؤساء «اللجان القومية» والقادة».

وقعت تلك الهدنة وحلّت السياسة وأضاليلها وألعيها مكان القتال وفعله الفاصل بين الحق والباطل. وقد كان الزعيم، وسط التحفّز الجامح والحماسة الجارفة التي أبداها الشعب بمختلف نزعاته، يتوقع مثل هذه الصدمة الفاضحة ليصفع بها السياسة التقليديين. وقد أكّد أكثر من مرة «إن السياسة الخصوصية الاعتباطية قد وصلت بالمسألة الكيليكية والمسألة الاسكندرونية - إلى الكارثة. كارثة فلسطين مسؤولة عنها سياسة الخصوصية والحزبيات الدينية والعشائرية. هذه السياسة الخصوصية الاعتباطية الاحتكارية تشبّثت بقضايا الأمة تشبّث الغول بفريسته» فكم نبه الزعيم بجميع اتصالاته وكتاباتة إلى خطورة العقلية الأخلاقية القديمة التي تقوم على السياسة وخطورة أساليبها الرجعية على مستقبل الأمة ومصيرها وَحَدَّرَ من عواقبها الوخيمة.

مُدُّ أعلنت الهدنة وبدأت المؤتمرات السياسية تشغل محافل السياسة، والناس في حيرة وقلق مقيم. وقد بادر الزعيم إلى وضع البلاغ الشهير بصدد قرار تقسيم فلسطين (ولم يكن موضوع التقسيم قد ورد على لسان ولم يكن يتوقعه أحد من الناس أو يتحسب له)، ثم دعا الزعيم مجلس العمدة فوراً إلى جلسة طارئة لتداول موضوع البلاغ المُعدّ الذي يعالج رؤية النهضة حول وضع البلاد وما آلت إليه معركة تحرير فلسطين آنذاك كما يقدم وجهة نظر الحزب للأمة بمنتهى الوضوح والجرأة والصدق القومي الاجتماعي

محددًا مسؤولية الكارثة على عاتق الشعوب «الوطنية» وعقلية الإنكالية «العروبية».

عقدت الجلسة وأوضح الزعيم للعمد تأمله في مرامي الهدنة وأبعاد المؤامرة التي تعدّ للأمة مفاجأة بتقسيم فلسطين. وتلا البلاغ للاطلاع على رأي كل من العمد في أمر البلاغ وتفاصيل ما انطوى عليه من وصف للأوضاع الناشئة والتوقعات المرتقبة.

وقد جاء البلاغ في تحليله لأسباب الكارثة وعوامل حدوثها بلهجة جدّ صارمة من ضمن حملة عاصفة على فئة السياسيين الرجعيين وزبانيتهم وما اقترفوه ويقترفون من تأمر يدل على غياب فاضح وعقلية ملتوية لا أخلاقية حتى أصبحوا الويل النازل على الأمة بل مصدر الكوارث كلها.

وافق مجلس العمد على فكرة البلاغ وضرورته ومناسبته المهمة لكنهم فُوجئوا من لهجته «القاسية» وهجومه «الجارح» على من يشكّلون بنظرهم قادة البلاد وحكامها. وتخوّفوا كثيراً من أسلوب الرد وما يحتمل أن يجرّه على الحزب من ردود فعل مؤذية معرّقة. لكنهم لم يفاتحوا الزعيم بما في نفوسهم من تخوّف وقلق على مصلحة الحزب بالنظر إلى أسلوب صياغة البلاغ. واكتفوا بالموافقة الإجمالية على البلاغ وباللجوء إلى الصمت. وقد انفضت الجلسة بعد أن سلّم الزعيم إلى عميد الإذاعة البلاغ للعمل على طبعه وتوزيعه بكميات كبيرة بالتعاون مع سائر العمد كلّ وفق صلاحياته. وقد غادر العمد منزل الزعيم، وكنت آنذاك عميداً للداخلية، بقصد التوجه إلى المطبعة، لكنهم توقفوا في صيدلية الأمين فؤاد أبي عجرم لتداول أمر البلاغ والتشاور في شأن ما يحزّ في نفوسهم من معاناة بسبب عدم اقتناعهم بصواب كلّ ما يدور في البلاغ وعدم مصارحة الزعيم والتعاون معه لحلّ الإشكال الحاصل كما هو مطلوب ومتوجّب قومياً اجتماعياً.

عقد العمدة لقاءهم في صيدلية الأمين فؤاد أبي عجرم لمعالجة مشكلة البلاغ قبل مباشرة طبيعه. وإثر تبادل الآراء والتباحث فيما يشكو منه العمدة بشأن البلاغ رأى الجميع ضرورة الاتصال بالزعيم فوراً والعودة إليه للإدلاء بكل ما يدور في خواطرنا وتصوراتنا ثم الخروج من المأزق الضاغط على وجداننا جميعاً بأفضل الحلول. تناولت الهاتف واتصلت بحضرة الزعيم. وكان ذلك بعد مغادرتنا منزله بأقل من ساعة. فما أن سمع صوتي حتى عرفه وبادرنى سريعاً بالسؤال «من أين تتكلم»؟ ولما عرف أننا موجودون في الصيدلية والمفروض أن نكون في المطبعة طلب أن نعود إليه كلنا. وهو بانتظارنا.

وصلنا إلى منزل الزعيم بأقصى سرعة وقبل أن نطلعه نحن على ما نريده منه بادرنى القول: لقد اجتمعتم في الصيدلية عوض الذهاب إلى المطبعة لأنكم غير مقتنعين بما ورد في البلاغ. فأجبناه بالإيجاب وشرحنا له مطولاً كل شاردة وواردة حدثت معنا منذ اطلاعنا على نص البلاغ. فقطب وجهه بادئ الأمر وتَجَهَّم ثم عاد فابتسم وهو يقول: لنفصل الموضوع إلى شقين: الأول ما يتعلق فقط بصحة المواقف الواردة في البلاغ إن من حيث تحليل الوقائع أو إدانة المسؤولين عن وقوع الكارثة. والثاني ما يتعلق بالصيغة وما يمكن أن تسبب للحزب أو لأشخاصنا من صعوبات أو عداوات قد يكون الأفضل عدم إثارتها والتعرض لها في هذه الآونة. تم التداول الدقيق العميق في موضوع الشق الأول حول صواب الرؤية وسلامة الإدراك للوقائع وضرورة ما قيل ووجوب إعلانه بأكمله. أما في الشق الثاني فقد أفاض الزعيم في أن النهضة لا تبدأ أبداً في القيل والقال وما تثيره مواقفها من ردود الفعل من قبل الرجعية والرجعيين. إنما تعمل لإحداث تلك الردود وتلك الهزات التي يسببها العلاج نفسه في الأجسام المريضة المتعبة حتى تستريح وتتعاوى بعد أن تكون جميع حالاتها قد اتضحت وتكشفت جميع

أعراض المرض ودخائله الكامنة أمام التشخيص ولدى المعالجة. «ليس عندنا شيء مكتوم وشيء معلن، لأننا لم نخف قط من إعلان حقيقتنا. لم يوجد حزب، في العالم كله، واجه من الصعوبات والأضاليل والعراقيل والإشاعات ما واجهه وانتصر عليه هذا الحزب» فإذا كنتم تعرفون بأن ما نقوله حقيقة لا ريب فيها، فعلينا إذن أن نتحمل جميع النتائج التي تُلزمتنا بها شجاعتنا وقضيتنا. وإذا كنتم أيها العمدة غير قادرين أمام ردود الفعل المرتقبة فإنني أعفيكم حالاً من مجابتها وأتحملها بمفردتي أمام الأمة والتاريخ الذي يسطر ما نحن وما نفعل. «وسواء أفهمونا أم أسأؤوا فهمنا، فإننا نعمل للحياة ولن نتخلى عنها». وانصرفنا بعد ذلك إلى التنفيذ الواجب ونحن نتمتع بقناعة مطلقة وعزيمة مطلقة لمواجهة النصر المحتوم الذي نعمل له ونسير إليه. لا مردّ لإرادتنا ولا تردّد في إقدامنا.

«الخجل من الرذيلة طعنة للفضيلة»

سعاد

بين أن تكون «السياسة فتناً يخدم غاية» هي العقيدة والنظام الجديد، وأن تكون السياسة غرضاً لذاتها تنصاع إليه العقيدة بمفاهيمها ومضامينها الفكرية النفسية، فرق عميق في كيانية الحزب وأبعاد النهضة وفي دعائم وجودهما وماهية أهدافهما. فالحزب الذي وُجد من الأساس ليصون النهضة يتحوّل بجعل السياسة هدفاً له إلى مجرد «عدد من الناس مجتمعين للمناداة بوحدة سورية فحسب أو للعمل للنيابة، كما يعمل المشتغلون في السياسة متأزرين ومتكتلين لمصلحة شخصية خصوصية». هذا ما أصاب الحزب في نفسيّة بعض قياديين وسلوكهم أثناء غياب الزعيم في المهجر، إبان الحرب العالمية الثانية.

مهم من تقرّب من دهاقنه السلطة اللبنانية، آنذاك، تزلفاً وطلباً للمنفعة الشخصية، واضعاً بين يديها تغييرات جذرية في المبادئ والأنظمة الحزبية، حتى الشعارات المعروفة والتي أصبحت تكوّن جزءاً من شخصية الحزب ومزايه تناولها التحوير والتبديل الموجّه لأغراض سياسية. فكان

«الواقع اللبناني» الذي كتبه نعمة ثابت وألقاه في اجتماع بعقلين سنة 1944. وهو يشكل خروجاً عن معنى الأمة الذي نفهمه، والانتقال بالقول بأمة جديدة «الأمة اللبنانية».

في «الواقع اللبناني» كل شيء قومي صار «لبنانياً». فقد تكلم نعمة ثابت فيه عن قيم لها صفة القومية العامة ونسبها إلى لبنان واللبنانيين بدلاً من أن ينسبها إلى سورية والسوريين كما يتفق مع الحقيقة. من هذه القيم التراث والأخلاق والثقافة والتاريخ والرسالة.

وكان بعد «الواقع اللبناني» تغيير الزوبعة، شعار الحزب، «بشارة» أخرى جديدة، دون توضيح لهذا التدبير ولا تبرير لموجباته، ثم كان تعمُّد الدوائر المركزية إغفال ذكر الزعيم وسورية من أي نشرة أو تعميم أو بحث حزبي، دونما سبب ظاهر. هكذا كان يتسلل الانحراف والتحويل إلى فكر الحزب وتنظيماته المعروفة، بتخطيط وتصميم وسريّة مشبوهة، هادفة إلى إرضاء ذوي السلطة والسلطان في الدولة اللبنانية، حينذاك، خدمة للمآرب الخصوصية التي أصبحت فوق مصلحة القضية.

إلى أن عاد الزعيم من المغرب في الثاني من آذار سنة 1947، وألقى خطابه التاريخي المشهور على حشود المستقبلين في باحة المطار، من القوميين الاجتماعيين والأصدقاء والمؤيدين. وكان هذا الخطاب القول الفصل في العودة إلى العقيدة والنظام وإلغاء جميع البدع الدخيلة المستحدثة التي دُست في الحزب كالسُم في الدسم لتكون أداة استغلال لأفراد قلائل عصفت بهم الأطماع الخصوصية على حساب النهضة والأمة.

ومنذ ذلك اليوم، راح الزعيم يعيد الأمور الفكرية العقديّة والتنظيمات الدستورية إلى قواعدها وأصولها القومية الاجتماعية، محاسباً حيناً، وموجهاً حيناً آخر، حتى كانت جلسة المجلس الأعلى التي عقدت في

الرابع من نيسان 1947 في عيتات - الغرب، بحضور أعضاء مجلس العمدة وعدد من المسؤولين المركزيين السابقين أثناء غياب الزعيم عن الوطن. وقد خُصّصت هذه الجلسة التاريخية لطرح جميع الإشكالات الفكرية الدستورية وسواها التي أُدخلت إلى الحزب، ومعالجة جميع أسبابها الظاهرة وخلفياتها البعيدة ثم تحديد مسؤولية المسؤولين عن افتعالها والمأخوذين بها تضليلاً وتبليلاً.

فتوجه الزعيم إلى نعمة ثابت، بوصفه رائد تلك البدع المزيفة بقوله:

«لاحظت يا حضرة الأمين، أنكم تعمّدتم، أثناء غيابي، إغفال كلمة سورية وكلمة الزعيم من كل النشرات الحزبية والبيانات العامة، فما السبب لهذا الإجراء؟».

أجاب نعمة ثابت بقوله: إنني لاحظت، يا حضرة الزعيم، أن الشعب في لبنان ينفر بمجمله من كلمة سورية وكلمة الزعيم مما حملنا على إيجاد حل لهذه المشكلة. فلجاناً إلى هذا التدبير كأسلوب إذاعي منر للتقرب من الشعب والتفاهم معه وليس لأي غرض آخر سوى مصلحة الحزب وانتشاره.

أجاب الزعيم: «لا شك أن نفور الشعب من الحزب أمر شديد الخطورة وجدير بكامل اهتمامنا وعنايتنا، لأن معركتنا هي معركة الوصول إلى الشعب، غير أن لإزالة الإشكال الحاصل بيننا وبين الشعب، إن صحّ هذا الزعم وصحّت أسبابه كما تقول، يا حضرة الأمين، إحدى وسيلتين:

الوسيلة الأولى: إحداث ما يوّد الشعب من تغيير وتبديل في قضيتنا بالشكل والجوهر نتيجة جهله لحقيقة رسالتنا، وصولاً إلى إزالة نفوره منا ومعالجة ابتعاده عن حركتنا. نكون عندئذٍ قد ألغينا أنفسنا وأزلنا وجودنا كنهضة. فلا يعود من مبرر لنفوره على الإطلاق. وهذا هو منتهى الشك بصحة قضيتنا والهزيمة الكلية من مواجهة مسؤولياتنا تجاه الشعب

ومصيره. ليس غرض النهضة مسايرة تصورات الشعب بل توعيته إلى حقيقة.

الوسيلة الثانية: تقوم على عميق إيماننا بصحة ما نقدّمه للشعب، وعميق تمسكنا بسلامة قضيتنا من كل شائبة، والعمل على تحقيق أهداف النهضة وغايتها دون مساومة ولا مواربة. وبعدها نسعى لمعرفة أسباب عدم تقبّل الشعب لقضية وجوده وسيادته في النهضة ثم العمل على تذليل كل عقبة تحول دون إقباله على صفوفنا واعتناقه العقيدة القومية الاجتماعية ونظامها والصراع من أجل انتصارها، وذلك بابتكار الأساليب والوسائل الإذاعية الثقافية والعملية لتسهيل تعرّفه على حقيقة النهضة وتفهمه لحقيقة مبادئها وأهدافها.

غير أن هذه الوسيلة العملية الصحيحة لإيصال القضية إلى الشعب تتطلب التمرس في الجهاد الدؤوب، والتضحية المستمرة طريقها طويلة وشاقّة، محفوفة بالمصاعب والمخاطر. لكنكم تخلّيتم عنها واخترتم سبيل الهزيمة لأنكم فقدتم روح النضال والشجاعة في أعمالكم وخسرتم مناقب البطولة المؤدّدة بصحة العقيدة».

وقد حل الزعيم ذلك المجلس الأعلى في جلسته تلك. وتابع بعدئذٍ التحقيق مع نعمة ثابت في سائر شؤون الحزب ومواقفه إبان غياب الزعيم القسري عن الوطن. وبعد أن تأكّد لديه تواطؤ نعمة ثابت مع الحكومة اللبنانية نتيجة لما أجراه من تغييرات في الأسس والمفاهيم القومية الاجتماعية، لجّر الحزب إلى عجلة الساسة المحترفين مقابل وصوله الشخصي إلى مراكز المكانة والوجاهة على حساب الحزب والأمة، فضلاً عن تأمره الثابت بالسعي لتأخير عودة الزعيم إلى الوطن ومؤازرة الحكومة

اللبنانية في إصدار مذكرة التوقيف بحق الزعيم ومطارده إثر عودته إلى الوطن في الثاني من آذار 1947.

ثم طرد نعمة ثابت ومأمون إياس ومن كان يدور آنذاك في فلكهما. وقد أصبح فيما بعد نعمة ثابت عضواً في الرابطة المارونية ومأمون إياس عضواً في الكتلة الوطنية. وما يزالان حتى الآن على ولائهما الجديد.

بعد أيام من طردهما، صادف مرور نعمة ثابت في شارع المعرض - بيروت، وقد لمح على الرصيف المقابل الأمين كامل أبو كامل، فسارع قاطعاً إليه الشارع للسلام عليه بلهفة وحفاوة بالغة. فوجد الأمين كامل نفسه أمام الأمر الواقع، وبعد تردد عابر بادلته السلام والمصافحة تأديباً، ومضى كل منهما في سبيله.

وقد بلغ الزعيم لقاء الأمين كامل أبو كامل في شارع المعرض بالمطروود نعمة ثابت وتبادلتهما التحية والمصافحة. فاستدعى الأمين كامل واستوضحه الأمر، ثم قال له:

«لقد ارتبكت، يا حضرة الأمين إزاء انهماك نعمة بالسلام عليك ومددت إليه يد المصافحة مراعاةً لشعوره وإكراماً لحفاوته ولطفه. لكن، ألا ترى، أن خجلك من الرذيلة طعنة للفضيلة! فماذا أبقيت للفضيلة من تقدير وإكرام!».

|| الثقة بالحزب وعدالته النبيلة ||

نحن دولة الأمة السورية المصغرة. نمثل الشعب السوري بجميع فعالياته الفكرية، الاجتماعية والاقتصادية ونتفاعل وحدة بالإدراك للحقيقة ووحدة بالمنطلق والاتجاه ووحدة بالمطلب والهدف، حين نمارس العقلية الأخلاقية الجديدة الراقية التي توحد بيننا وتؤهلنا لمواجهة وحدة الحياة ووحدة المصير مجتمعاً موحد الإيمان والإرادة كي نحقق الأمر الخطير الذي تعاقدنا على اعتناقه والنضال من أجل انتصاره وخلوده لأجيال لم تولد بعد.

لقد أدركنا في الحزب السوري القومي الاجتماعي حقيقة كوننا دولة الأمة السورية وصرنا نجسد دعائمها الأربعة: الحرية والواجب والنظام والقوة حتى أخذ سلوكنا يتسم «بالابتكار الأصلي الذي هو من مزايا شعبنا». هكذا راح الأعضاء يتعاملون معاً ويعاملون الآخرين وفق مبادئ هذه الدولة و«نظامها القومي الاجتماعي الذي يصهر التقاليد المنافية لوحدية الأمة والنفسيات الشخصية المنافية لنفسية الأمة». وقد عمّ إدراك هذه الحقيقة

المواطنين ممن تعرّفوا إلى أعضاء الحزب وخبروا أخلاقهم من خلال علاقاتهم بهم ومعاملاتهم معهم في شتى الشؤون والأعمال.

جاء أحد المواطنين إلى الحزب في بيروت بُعيد إلغاء الدولة اللبنانية لمذكرة التوقيف سنة 1947 يسأل عن عميد الداخلية ليعرض إليه أمراً خاصاً وصفه بأنه هام. تقدمت إليه وعرفته بنفسه وقد رحّب بمعرفته لي بمنتهى التهذيب واللياقة لكن أيضاً بكثير من الارتباك المشوب بالخجل والتهيب. وقد بدا منه تردّد ظاهر بقبول دعوتي إليه للجلوس وقد ظلّ واقفاً يحملك بي دون أن ينبس بكلمة ثم جلس بينما الكلام كان يتلجج في حلقة دون أن يتمكن من الإفصاح عن حاجته إلى أن همس قائلاً:

- أشار عليّ بعض الأصدقاء أن آتي إلى الحزب وأعرض عليكم أمراً خاصاً يتعلق بأحد رفقاءكم فهل ذلك ممكن ومسموح في نظامكم.

• نعم تفضل، يهّمنا كلّ ما يتعلق بأي رفيق ونعمل على معالجته بالعناية والعدالة.

ثم توقف عن الحديث ليلتقط أنفاسه وهو بحال من الاضطراب والحيرة تثير الانتباه وأضاف قائلاً:

- أخبروني أنكم تهتمون بأمرى وتساعدوني على حل مشكلتي مع أحد القوميين بوجدان وعدالة.

• من كل بدّ نحن نحصر على التعامل مع جميع الناس بالحق والدفاع عن كل حق دون تفریق بين واحد وآخر ولا محاباة ضد أحد.

- إذن، أخبرك، يا حضرة العميد، أن لي مبلغاً من المال مع الأستاذ أسد الأشقر من أصل حساب جارٍ في مشروعه «التموين العائلي» القائم في محلّة الجميزة ومضى على موعد تسديد الدين بعض الوقت دون أن أجد

سبباً للاتصال به وتذكيره بتسديده. إنني بأشد الحاجة في هذه الأيام إلى المال لأنني أعاني أزمة أوقعتني بخسارة فوق طاقتي تحمّلها. ولولا ذلك لما أزعجتكم. وما أني أعرض الأمر على الحزب ليقضي بحكمه مهما كان نوعه. أرجو المعذرة وعدم المؤاخذة لإشغالكم بمثل هذا الموضوع البسيط لا بل التفاهة بالنسبة إليكم.

• هل أن المبلغ متفق على مقداره مع الرفيق (آنذاك) أسد الأشقر. وما هو وجه الخلاف بينكما؟

- نعم يا عميد الاتفاق تام على المبلغ وعلى تقسيطه لعدد من الدفعات. وقد سدد منه الأستاذ قسطين أي ما يقارب نصف المبلغ الإجمالي.

• فما هي دعواك على الرفيق أسد الأشقر؟ وماذا تطلب منا عمله من أجلك مع الرفيق أسد الأشقر؟

- معاذ الله، أنا لا أقيم دعوى على الأستاذ أسد بل أرجوكم التكرم بمساعدتي لإقناع الأستاذ بتسديد المتأخر مع ما تبقى من المبلغ دفعة واحدة وخلال هذا الشهر إذا أمكن. فيسهل عليّ التخلّص من الأزمة التي أنا واقع فيها ولا يسعني الخروج منها بدون ذلك.

• جيد، يمكنك، يا سيّد أن تعود إلى هذا المكان لمواجهتي بعد يومين وستسير الأمور على أحسن وجه يفرضه الوجدان والحق ويقتضيه الشعور معك. إلى اللقاء، لا تتأخر عن الموعد، إنني هنا بانتظارك. موفق.

رويت ذلك المساء لحضرة الزعيم هذه القصة الطريفة التي تنمّ عن عمق ثقة الناس بحقيقة شعور النهضة النبيل تجاههم وتمام استعدادها لمساعدتهم العادلة المنصفة وأنها ملاذهم في الملمات. في اليوم التالي دعوت الرفيق أسد إلى عمدة الداخلية واستوضحته تفاصيل الحادثة المذكورة

فأفاد بصحة كل ما ورد على لسان ذلك المواطن وأنه على أتم الاستعداد لتسديده كامل المبلغ الباقي له بالسرعة المطلوبة. وقد طلبت من الرفيق أسد الأشقر الحضور إلى عمدة الداخلية في المركز في الموعد المضروب للمواطن ليتواجها معاً ويتفقا على كل شيء.

حضر المواطن سليم والرفيق أسد الأشقر بتمام الموعد المحدد إلى مكتب عميد الداخلية وتباحثا بأمر المبلغ المالي الباقي للمواطن لدى الرفيق أسد الأشقر. كم كان خجل المواطن سليم من الرفيق أسد الأشقر. وكم كرر اعتذاره منه ورجاه عدم مؤاخذته لأنه اضطر إلى مراجعة الحزب بشأن ما بينهما من مال مؤكداً بأن اتصاله بالحزب كان بقصد الحصول على مساعدته إبان أزمته المالية الخائفة لم يكن يطلب غير الاستعانة بالحزب لا الشكوى ولا إقامة دعوى بحقه. فقال له الرفيق أشقر لا تؤاخذ نفسك إن لجوءك إلى الحزب ولو بنية إقامة دعوى أمر يدل على ثقتك بالحزب وبعдалته النبيلة وإيمانك بعميق اهتمامه بشؤون جميع المواطنين فضلاً عن أعضائه.

وقد تم الاتفاق بينهما على كيفية التسديد المطلوبة شعوراً من الرفيق أسد الأشقر مع المواطن فيما يعانیه من أزمة ومأزق حرج ومشاطرة من الحزب بالتخفيف عن كاهله ما أمكنه من وزر الأزمة المصاب بها.

وأخيراً أكد عميد الداخلية للمواطن وبِحضور الرفيق أشقر أن ما اتفق عليه الآن سينفذ بحذافيره دون تلکؤ وعليه أن يعلم العمدة بالنتائج في حينها ولدى الحاجة فالحزب لن يتخلى عن واجبه بإغاثة كل متألم.

غادر المواطن سليم مركز الحزب مودعاً بكل امتنان لما لاقاه من نبيل المعاملة وحسن التلبية لنداء الحق والخير والعطاء. ولم يفته أن يذكر

لصديقه جميل صنيعه لنصحته إياه بمراجعة الحزب ومناشدته المعونة
والمؤازرة كي ينال مبتغاه.

وقد شدّد على أن الحزب حرّي بكل تقدير وإعجاب وجدير بكل تأييد
وأنه سيكون، إن شاء الله، وفيماً لما لمسه من الأخلاقية القومية النبيلة ومن
صفاء المحبة وصدق التعامل. ولا بدّ أن يكون النجاح حليف الحزب، حزب
الإنسان الملهوف المعذب طالب الإنصاف والعدالة والكرامة.

|| حق الإقناع هو حق الاعتناق ||

لم يكن قد مضى على عودة الزعيم من المغترب سوى بضعة أسابيع إبان استمرار مذكرة التوقيف التي كانت السلطة اللبنانية قد أصدرتها بحق الزعيم، حين راح الزعيم يعد الطبعة الرابعة الموسعة لتعاليم النهضة السورية القومية الاجتماعية التي تتضمن تفاصيل وإيضاحات جديدة كي يقدمها للرأي العام الحزبي فضلاً عن الشعب السوري بأسره وإلى العالم كله. وقد حملت هذه الطبعة الجديدة آنذاك إلى الدارسين والقراء عامة ملحقاً خاصاً من صفحات عديدة باسم «إيضاح» يعرض فيه الزعيم التعديلات الجديدة التي أدخلها إلى حدود الوطن السوري من جهة الشمال والشمال الشرقي وشمولها نجمة جزيرة قبرص والمثبتة في نص المبدأ الأساسي. ويعلل الزعيم إضافته إلى اسم الحزب كلمة «اجتماعي» مبيناً الغرض منها ومشيراً إلى جميع مصادر الأبحاث والدراسات التي أوصلت الزعيم إلى الكشف العلمي عن هذه الحقائق وأهميتها القصوى مما اقتضى الأخذ بها واعتمادها للإفادة منها أمانة للحقيقة بجميع دقائقها وجوانبها.

تلك الأثناء عينها وقبيل توزيع الطبعة الرابعة المتضمنة بعض التعديل للمبادئ السورية القومية الاجتماعية الأساسية طلب الزعيم من العمدة في إحدى جلسات مجلس العمدة المنعقدة برئاسته أن يقتصر مجمل النشاط الحزبي خلال فترة معينة على صفوف القوميين الاجتماعيين من دون سائر المواطنين. كي يشرح لهم ما استجد من أفكار محدّدة أدخلت على مضمون مبادئ الحزب ومن صيغ بعض التعابير لتكون لها المداليل القومية الاجتماعية الأكثر دقة والأوفى وضوحاً. حتى يتاح للأعضاء مبدئياً تفهم مسائل قضيتهم واستيعاب جميع معطياتها ومفاهيمها قبل الشروع بإذاعتها. لأنه من بديهيات حقهم تدارس شؤون الفكر القومي الاجتماعي معاً والافتناع الكامل بصحتها وسلامتها حتى يصار إلى تقديمها إلى الأمة كلها وإلى العالم بأسره. وقد أشار الزعيم أيضاً بضرورة وضع لائحة تضم أسماء جميع القوميين الاجتماعيين الذين قد يتعذر علينا إفهامهم الجديد من مبادئ الحزب وإقناعهم بأهمية الأخذ به باعتباره وحدة كلية مع كامل المفاهيم والأسس القومية الاجتماعية. من أجل أن يدعو الزعيم هؤلاء للاجتماع لتسييد الشروح الوافية التي يحتاجون بها إليه مباشرة. فلا يبقى بعد ذلك لدى أحد الأعضاء أي غموض أو إشكال حول أية نقطة في مفهوم العقيدة السورية القومية الاجتماعية ونظامها لينطلق كلٌّ بدوره إلى إقناع الآخرين مزوداً بالقناعة التامة. وبذلك يكون الزعيم قد أجرى نوعاً من استفتاء حول تقبّل أعضاء الحزب التغييرات التي أحدثها في نص بعض المبادئ ما دام هؤلاء هم أحد طرفي التعاقد في تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي ولهم بالتالي ملء الحق الشرعي في إبداء الرأي والملاحظة وتقديم وجهات نظرهم بالأخص في ما يعني المسائل العقدية الفكرية. كذلك يتم للزعيم الوقوف عن كذب على حقيقة الوضع الحزبي والتأكد من مدى تقبّل القوميين الاجتماعيين بالفكر والفعل لما أدخله هو من جديد مهم على

مبادئ الحزب وتعاليمه. هذا الجديد الذي يشكل الإيضاح الأعمق دلالة للنصوص ويتناول تفاصيل الشروح التي لم يتَسَنَّ للزعيم سابقاً إنجازها وإكمالها بسبب ظروف الملاحظات آنفاً. فالزعيم قد أكد لنا أن لا حرية بلا حوار وأن لا واجب ولا نظام بُنِّىء بدون التعامل بالتفاهم والفهم الصحيح. لذلك هو لا يصدر أمراً بطاعة أفكاره وتأمُّلاته الفكرية العقديّة بل يحاور ويقنع. عندها فقط تتكون قوة الإيمان وتتكامل القناعة ويتم الاندفاع المادي النفسي السليم نحو ما يعمل به القومي الاجتماعي ويعمل له من حق وخير وجمال. فلا تكون القناعة فكراً ووجدانياً مجرد إجراء تنفيذي خاضع للتنفيذ كما هو قابل للاعتراض بعد التنفيذ. الفكر لا يرتبط بنصوص دستورية قانونية أو بصلاحيات إدارية لسلطات معينة قد تُعدّل وتُبدّل بالتصويت والاقتراع سرّياً كان أم علنياً.

ودأب الزعيم من موقعه القيادي على التوجيه والتفاعل الصميم في وحدة المجتمع الروحية المادية وتأمين التجاوب الصحيح بين صاحب الدعوة إلى القومية السورية الاجتماعية وبين المقبلين على الدعوة تجاوب مجموع العناصر التي تكون كيان الجسم الحي، من يولون الزعيم كامل الثقة ومطلق التأييد فيلبّون كل أمر وكل طلب يصدر إليهم حتى الإقدام فرحين على أذكي شهادة لسيادة الأمة السورية وفلاح نهضتها القومية الاجتماعية، أمل الأمة الوحيد. فالطاعة القومية الاجتماعية تجسيد عملي للقناعة واحترام صادق للأسس والمنطلقات والمقاصد.

لا بدّ أن تقودنا العقلية الأخلاقية الجديدة بقوة التعاقد على تحقيق الأمر الخطير الذي يساوي وجودنا إلى ممارسة التعاون النبيل والتعامل البناء من أجل مصلحة سورية فوق كل مصلحة. وتؤكد عقلانيتنا ومناقبيّتنا بأن حق الاقتناع هو حق الاعتناق وأساسه الأوحّد في تأسيس الإيمان والإرادة لتلبية التنفيذ الأفضل ما دامت القومية ثقة بالنفس ووعياً للحقيقة وما

دام سعادته لم يأتنا سوى بالحقائق، التي هي نحن ومَن نحن في حقيقة التعبير نحن الحق والخير والجمال، ترسخها قوة العقل سيّد الشرع الأعلى، الشرع الأساسي، القدرة بإيمانها على تجسيد القضاء والقدر إرادة الأمة السورية التي لا تُردّ.

كم مرة جئنا بيني وبين ممارستي لمسؤوليات الزعامة!

سعاده

عاد الزعيم من المغترب وبادر إلى إعادة النظر في تشكيل الهيئات
المسؤولة الإدارية وسواها، بدءاً من مجلسي الأعلى والعمد ثم المنقذيات
وفروعها، رغم ملاحقة السلطة اللبنانية لإلقاء القبض عليه.

وراح القوميون الاجتماعيون من رفقاء ومسؤولين يتقاطرون للاتصال
به والسعي إليه أينما حلّ في رحلاته إلى فروع الحزب ومهرعون للاستفسار
منه عن شتى المواضيع والشؤون الحزبية مهما بدت أحياناً أولية أو بديهية.
وهو يوجه مداركهم إلى الجوهر ويسدد مفاهيمهم للصواب ويرشد
اهتماماتهم إلى الأفضل والأهم، واضعاً جميع الأمور في نصابها ومكانها
المناسب. وكان يحيل الكثير من مطالبهم واقتراحهم إلى الجهات الحزبية ذات
الاختصاص والصلاحيات للبت بها والإجابة عليها، بطريقة التسلسل النظامي
المعروف في العمل الحزبي. واستمر الرفقاء إلى حدّ بعيد في إشغال الزعيم
بكثير من الشؤون الحزبية العادية التي هي مبدئياً من ضمن مسؤوليات

وصلاحيات الأجهزة الحزبية في المراكز أو الفروع. وهو دوماً يعاود تذكيرهم بأصول النظامية الحزبية. لشدة ما كانت هذه الأمور العادية تكلفه من وقت وجهد الأولى أن يصرفه في عمل أكثر أهمية وجدوى.

تمادى القوميون الاجتماعيون في التوجه إلى الزعيم بالاستيضاحات والاستفسارات عن مواضيع كان عليهم أن يتوجهوا بها إلى مديع المديرية أو المنقذ العام لحلها وتسديدها. إلى أن قال، ذات يوم، لأحدهم: «يا رفيقي، كم مرة حال أمثالك، بأسئلة كهذه، بيني وبين تأمين مسؤوليات الزعامة، وحملتي على القيام بمسؤوليات فرعية عوضاً عن مسؤوليتي الأساسية التي تظل شاغرة فترات غير قليلة».

ثابر الزعيم على إحداث التغييرات في الأجهزة الحزبية من ضمن حملة إعادة التنظيم للانطلاقة الجديدة. وكان في رأس اهتماماته جعل كل مسؤول يعي ماهية مسؤوليته، وأن يعرف حدودها فلا يتجاوزها ولا يسمح لسواه بتجاوزها مهما كانت المبررات. إن أهم ما كان يتناوله بالتشديد والإصرار هو عدم اعتياد الرفقاء الرجوع إليه بكل شاردة وواردة، وخاصة عدم المجيء إليه بغية حل المشاكل التي يتعرض لها المسؤول، دون محاولته أولاً معالجتها باعتماده على نفسه وصلاحياته الدستورية الواضحة كل الوضوح. لا يجوز أن يتحوّل المسؤول إلى مجرد ساعي بريد. همه الأوحد إيصال الرسائل إلى الجهات المرسلة إليها بأمانة، وتنتهي مسؤوليته هكذا بصورة آلية فارغة.

لذلك كان الزعيم دائماً يمتنع عن إملاء الحلول على طالها ليتلقاها جاهزة ويأخذها أو يأخذ بها دون مشاركة بها ودون عناء في الحصول عليها. وكان همّه إقامة الحوار وتقريب وجهات النظر والتداول بها مع سواه حتى يصل به أو معه إلى إيجاد التقرير أو التدبير المطلوب بشأنها. هو يثقّف بتوجيه المواهب وتحريك الإمكانيات الكامنة والثمينة بالتحرك والإنتاج

والإنشاء المتجدد. ويأبى مبدئياً الاقتراحات غير المعللة وغير المدروسة من قبل صاحبها. فحسن الاقتراح ضرورة ولون جيد هام من ألوان التفكير السليم، وإلا يصبح الاقتراح الملقى دون تعليل بلا معنى. ويغدو مجرد تيه بالتمنّيات والتصوّرات.

عزم الزعيم مرة على إتمام كامل تنظيمات الأجهزة الحزبية كي تعمل وتتفاعل متفاعلة لنفسها دون تدخّله، ولا السماح لها بالرجوع إليه، إلا في شؤون ملحة ومواضيع جدّ مهمّة، وجدّ جديدة، لا تدخل بأي شكل في إطار الصلاحيات الدستورية المنصوص عليها بجلاء تام. ثم أعلمنا في إحدى جلسات مجلس العمدة أنه بعد الانتهاء من تركيز العمل الحزبي كما يلزم، سيتركنا نصرّف جميع الأمور على مسؤولياتنا نحن من دون الرجوع إليه. وأنه بالفعل سيغيّب عنا إلى حيث لا نعلم لينقطع كلياً إلى الكتابة من أجل إعداد مواضيع فكرية ثقافية للمستقبل، سيطلعنا عليها في حينه وأنه سيطل علينا ويتفقد سير أعمالنا المنوطة بنا متى رأى ذلك ممكناً وضرورياً. المطلوب هو أن يكون كل واحد منا الزعيم، أن يعتمد على نفسه ويثق بقدراته تمام الثقة للقيام بمسؤولياته وواجباته القومية الاجتماعية. وأضاف الزعيم جازماً أنه لن يسمح لأحد أن يقطع عليه خلوته التي يأمل أن تتاح له في القريب العاجل، وأن يتسّى له أثناءها إنجاز الأبحاث التي لا تزال تحتاجها النهضة، والتي لا بدّ من إعدادها وإتمامها على وجه السرعة حالما يصبح في خلوته المرتقبة. وهذه الأبحاث تتناول كما أعلنها سعادته:

- كتاباً في «نشوء الأمة السورية» الذي أُعدّ في السابق وضاعت مخطوطته في المدهامات منذ سنة 1937.

- كتاباً في الاقتصاد القومي الاجتماعي.

- كتاباً في الفلسفة المدرجية القومية الاجتماعية.

- كتاباً في نظرة النهضة إلى الدين.

هكذا راح الزعيم يعدّ أوضاع الحزب الداخلية والتنظيمية إلى إتمام مسيرته السليمة القديمة مع ابتعاد الزعيم، ولو مؤقتاً عن الإشراف المباشر عليه. فقد حلّ مجلس العمدة في نيسان 1948 بقصد إعادة تشكيله مجدداً، بعد أن كان قد حل المجلس الأعلى في الرابع من نيسان سنة 1947 إثر عودته إلى الوطن بشهر ويومين. وكان ينوي إعادة تقييم وضع الأمناء ليصار إلى تشكيل مجلس أعلى جديد.

لكنّ التاسع من حزيران، يوم حادث الجَمِيْزة الذي كشف عن مؤامرة الرجعية الحاكمة بقدر ما هي خائفة. هذا اليوم، الذي انتهى إلى فجر الثامن من تموز، قد داهم الزعيم، إذ عاجلته أذكي شهادة، شهادة الدم. وكان صباح وكان مساء عهد صراع جديد بالغ الضراوة والشراسة. عسانا نكون جديرين بدفق عطاء الزعيم فنقتدي به ونؤسس دائماً بقدوته منطلقات جديدة للبناء والعطاء. وليكن كل منا مرآة صادقة لبطولات الزعيم المعلم ومنازل هادية لأجيال لم تولد بعد.

ما ينطبق على وداعة الخراف، ولو ضلّت،
لا ينطبق مطلقاً على شراسة الذئب
وضراوتها ولو فقدت أنيابها

سعاده

ما كاد الزعيم يصل إلى الوطن، بعد غياب قسري في المغتربات، دام تسع سنوات ونيف، حتى بادرت السلطة اللبنانية، إلى إصدار مذكرة الجلب بحقّ الزعيم، ثم مذكرة التوقيف، من ضمن خطة لإنبات وجودها، إعداداً لانتخابات الخامس والعشرين من أيار 1947 الشهيرة باتخاذها التزوير لإرادة الشعب مبدأً ورسالة في ممارسة الديمقراطية التي لم تتوان في تطبيقها.

إبان ملاحقات السلطة للزعيم، ولدى اقتراب موعد الانتخابات النيابية، حينها أخذ رهط من المرشحين لتمثيل إرادة الشعب وطموحه في عهد الاستقلال، والمستنويين من جميع المناطق يهرعون للاجتماع بالزعيم زرافات ووحدانا، في وضح النهار، وفي حلك ساعات متأخرة من الليالي.

لقد كانت تلك اللقاءات طريفة في عمق فراغها، بليغة جداً في إعطاء أدقّ الصور وأصدقها عن العقلية الأخلاقية القديمة، القائمة على احتراف الأعمال السياسية، واتخاذها مهنةً ومورداً دسماً، يدّر المال والجاه العريض

على دهاقنة السياسة، الذين «يعرفون من أين تؤكل الكتف» ساعة يتضوّرون جوعاً ومعظمهم مصاب بتكالب مزمن. تتخلّل أحاديث هؤلاء المدمنين بالسياسة من أجل السياسة، ومشاهد مسرحياتهم البارعة في العرض والطلب، مهازل مفعجة ومأسّ مضحكة، تستوقف الدارس للعقلية الرجعية بمفاهيمها التائهة وأساليبها المتلوية في معالجة شتى الشؤون العامة منها والخاصة.

في إحدى الليالي، جاء لمقابلة الزعيم، طبيب من عائلة مرموقة في دنيا السياسة الرائجة، يرافقه أحد المحامين اللامعيّ السمعة.

فجأة تطرّق الطبيب إلى بحث موضوع جديد، لم يكن بالحسبان، وليست له أيّة علاقة ظاهرة بالانتخابات، وهو الاستيضاح عن أسباب طرد نعمة ثابت ومأمون إياس، الذي لم يكن قد مضى عليه سوى بضعة أسابيع، والدخول في دقائق الأمور التي أثّرت في حدوث الحادث المؤسف.

أجابهما الزعيم على رغبتهما في فتح هذا الملف، وأخذ يشرح لهما أهم الأسباب وأدقّها التي أودت بأثنين من قادة الحزب السابقين إلى السقوط على جانب الطريق والطرّد من صفوف الحزب. ولم يفت الزعيم إبداء عميق أسفه لما وصل إليه مصيرهما في الحزب، بعد أن قضيا فترة مديدة من النشاط والنضال في سبيل قضية الحزب. وفي سياق تفنيد الأسباب الموجبة للطرّد، توقف الزعيم عند نقاط مهمة وأساسية أوجبت اتخاذ مثل هذا التدبير الصارم العادل، الذي لم يكن منه بدّ ولا بالإمكان التغاضي عنه إطلاقاً، خاصة وقد أُعطي مجالاً كبيراً للعودة إلى الصواب والانضباط واستدراك ما سجّلاه من خروج عن العقيدة والنظام، وهما ممن كان مفروض فهم القدوة والمثال القومي الاجتماعي الذي يُحتذى به. إن النظام

فوق الأشخاص وجميع الاعتبارات الشخصية الفردية التي وُجد الحزب للقضاء عليها، وتخليص المجتمع من مخازيها وشجونها.

فما كان من الطبيب، لدى انتهاء الزعيم من تبيان الأسباب التي استحق من أجلها الطرد كل من نعمة ثابت ومأمون إياس، إلا أن بادره بقوله: لا بأس فالأمر بسيط، وأنت مفروض فيك، كمعلم وزعيم، أن تقابل مثل هؤلاء بالتسامح، والتساهل، مهما تمادوا بالخطأ والضلال «ألم يقل السيد المسيح جئت لخراف إسرائيل الضالة» فلتكن هذه الحقيقة الكبرى عبرة لهما ومرشداً في معالجة هفوات الآخرين وإن تفاقمت.

فابتسم الزعيم! لدى سماعه هذا القول، متعجباً لا معجباً بتأويل ما قدمه إليهما من أدلة على موجبات الطرد ومراحل معالجته للارتكابات التي سبقت العقوبة قبل أن يضطر مكرهاً إلى اتخاذ أقصى العقوبات لأقصى الخروج عن جادة الحرص على مصلحة النهضة والأمة. وردّ الزعيم الملاحظة بلباقته المعهودة ووضوحه الرصين بالفكر والتعبير: «أجل الخراف الضالة تحتاج إلى هداية ورعاية عميقة الصبر، طويلة النفس، لكن، هل ما اقترفه المطرودان تجاه الحزب، هو من شيمة الخراف الضالة. أم من صفات الذئاب الضارية؟ إن ما ينطبق على وداعة الخراف ولو ضلت، لا ينطبق مطلقاً على شراسة الذئاب وضراوتها ولو فقدت أنيابها».

أعقب كلام الزعيم عن شراسة الذئاب الضارية حتى عند فقد أنيابها، صمت مضطرب فيه من الحيرة والارتباك ما جعله يفرض هيئته على الطبيب والمحامي الزائرين للزعيم في ليلة دافقة بالمطر الغزير.

ثم استأنف المحامي البحث في موضوع المطرودين من الحزب، نعمة ومأمون، بقوله: «لا بدّ أن يعرف كل منهما حدّه ويلتزم الصواب والانضباط مهما طال ضياعهما، لأنهما من أبناء النهضة منذ سنوات عديدة وتسلماً في

صفوف الحزب مختلف المسؤوليات المهمة. ونأمل أن يعودا عاجلاً إلى القواعد الصحيحة من التفكير والممارسة لأن «العين لا تعلق فوق الحاجب».

تفوه المحامي بهذه العبارة من الأمثلة العامية المشهورة للدلالة على الذلّ والتسليم للأمر الواقع دون تمرد ولا اعتراض، كأن مواقع الناس ومراتبهم موزّعة ومصنّفة على أسس ثابتة ونهائية كحكم القضاء والقدر الذي لا يُردّ. وليس لإرادة الإنسان وعقله موقف ولا فعل في تغيير المقدور وتبديل ما هو مفروض منذ الأزل.

لدى سماع الزعيم لهذه العبارة تفرّس في وجه كلٍّ منهما محاولاً تفسير ما يقصده ثم بادر إلى القول بصوت مرتفع معلناً بجديّة عميقة لفتت إليه الأنظار والانتباه: العين تعلق فوق الحاجب، دون أدنى ريب، فأجابه الاثنان معاً بصوت واحد وباستغراب جليّ: كيف يحدث هذا الأمر ومتى حصلت هذه الأعجوبة وأصبحت العين فوق الحاجب؟

أجل، العين تعلق فوق الحاجب، وبسهولة تامة، عندما يصبح الرأس من تحت، حين تنقلب المقاييس، وتنعكس المفاهيم سواء في التفكير أو التعامل، ولا يبقى شيء ولا كائن حي في حجمه أو في مكانه الطبيعي، وتسير القواعد والمبادئ العلمية والخلقية في عكس مجراها إلى عكس مصيها ومآلها السليم. لسنا إزاء خراف ضالة، تائهة تفتقر إلى هداية أو رعاية ولا أمام عين فقدت مكانها، ولم تعد تعرف أين هي من حاجبها، ألصق أعضاء الجسم بها وأقربها إليها، يلزمها النظر إلى مرآة صافية لترى وتدرّك مكانها الحقيقي.

لنا قواعد سلوكنا ومنطلقات تفكيرنا ومشاعرنا واستهدافات وجودنا وحياتنا، ولنا خاصة عقليتنا الأخلاقية الجديدة التي نقدّمها للأمة، لمصالحها ومصيرها، التي نعرف بها ونمتاز على سائر الناس لأنها الطريق الأوحده للأهداف الخيرة الجميلة نحققها بحركة الحرية والواجب والنظام والقوة.

«لقد رأيت في ذاك التصرف خروجاً أساسياً على نظام الحزب ومؤسساته، ولكلّ ما يعني وحدة الحزب، لبلوغ الغاية الواحدة، ونزعة شخصية شديدة نحو الأنانية ونحو دكتاتورية فردية قبيحة، لا تأخذ إرادة عامة ولا دستوراً نافذاً بعين الاعتبار».

«ففي الأفراد فقط تلعب المفاصد، ولا يمكن لهؤلاء أن يصمّموا المجتمع كله بالمفاصد التي في أنفسهم». «والأفراد تأتي وتذهب أما النهضة فباقية بقاء الأمة السورية والوطن السوري».

لا يتفق من معه شيء مع من ليس معه
شيء، الاتفاق يكون بين اثنين أو أكثر مع
كلّ منهم شيء يعتمد عليه

سعادته

انتهت الانتخابات النيابية في لبنان بتاريخ الخامس والعشرين من أيار سنة 1947. وفاحت منها رائحة التزوير الذي وقّرتَه السلطة المتحكّمة آنذاك عملاً بِـ «حرية الانتخابات الديمقراطية وباسم حق المواطن في اختيار ممثليه الشرعيين». ذات يوم فاجأنا أحد الزائرين إلى مركز الحزب في شارع المعرض مُطلاً بقامته الفارعة وسمرتَه الحالكة. وقدم نفسه بوصفه أحد المرشحين للانتخابات المذكورة عن مرجعيون الذين لم يحالفهم الحظ بالنجاح. وكان في صوته الأَجش نبرة تنم عن مرارة لا تخلو من اعتزاز مصطنع وهو يردد أن تزوير السلطة لإرادة الشعب جعل من الفاشلين المفلسين شعبياً نواباً وهم لا يمثلون بالحقيقة إلا دولة يحكمها أشخاص لا يهتمهم سوى مصلحتهم الخاصة. وبعد هذه المقدمة أردف مطالباً بموعد مع الزعيم لأنه يود التشرّف بمعرفته والتداول معه بشؤون الساعة الملحّة وهو يرجو أن تتم المقابلة في وقت قريب، لأن لديه مقترحات مهمّة ملحّة لا بدّ أن يتقدّم بها إلى حضرة الزعيم. فاستمهل السيد فرحة إلى صبيحة اليوم التالي ريثما يؤتى

بجواب الزعيم عن الموعد ومكانه. وكان حضرة الزعيم لا يزال ملاحقاً بحكم مذكرة التوقيف التي أصدرتها السلطة بحقه إثر عودته من المهجر وإلقائه في المطار يوم وصوله في الثاني من آذار 1947 خطابه التاريخي الشهير، حين أعلن ما معناه «إن الاستقلال لا يكون بمجرد جلاء الجيوش الأجنبية عن أرض الوطن بل بجلاء عقلية المستعمر وأساليبه التعسفية عن كاهل الشعب وتعهّد الحكومة الوطنية بجميع شؤون الاستقلال وحقوق الحرية. وألا يكون الاستقلال بمثابة خروج المساجين من القواويش إلى باحة السجن لحظات «للتنفس» بينما هم لا يزالون ضمن الأسوار محتجزين محرومين من ممارسة حق الحرية والسيادة».

مساء اليوم التالي ذهبنا برفقة السيد فرحة إلى مقر الزعيم في إحدى قرى المتن الشمالي. كان الزعيم منكباً على إعداد مقال لإحدى صحف بيروت حين وصولنا ومعهم عدد من الرفقاء كانوا يتولون مهمة الحراسة ورصد الطرق المؤدية إلى مقر الزعيم. قدّم نفسه متهيباً حضرة المرشح الذي لم تشمله نعمة التزوير ليتسنى له الفوز في الانتخابات المعلومة. وسارع إلى التحدث بإسهاب عن عمليات التزوير التي مارستها السلطة وعمّالها ضد المرشحين الذين رفضوا الرضوخ لمطالبها وأساليبها. مما قلب موازين القوى الشعبية المنتصرة رأساً على عقب وأفسد كل معنى للنظام الديمقراطي في لبنان، ذلك النظام الذي طالما تشدّد به وأشاد ذوو الشأن والسلطان، وطالما استغلّوا أشكاله للقضاء على كل معطياته ومضامينه الديمقراطية. وكان السيد فرحة يفصّل بدقة ما أسماه وقائع وحقائق راهنة مدللاً على صحّة أقواله بذكر أعداد الأصوات وأسماء الناخبين ومراكز الاقتراع التي تشهد على فظائع التزوير المشين. ولم يفتُ التأكيد على ضمان فوزه بالانتخابات وتفوّق شعبيته لولا طغيان التلاعب بإرادة الشعب والاستهتار الفاضح بحرية الشعب وحقه الشرعي في اختيار ممثليه. وكان فضلاً عن

شديد تحمّسه ونقمته العارمة ضدّ ما حصل من قبل السلطة من ضغط وإرهاب ورشوة كان أشدّ إلحاحاً على ضرورة الردّ على ما اقترفته تلك السلطة الجانية بما يليق بوعي الشعب وما تستحقّه مثل هذه الدولة من عقاب رادع. وكان عنيف الإصرار على استعادته التام وتوفير قدراته لتلبية رغبة الحزب في خوض المعركة واضعاً نفسه تحت أمرته لدى اتخاذ القرار المناسب والتدابير الجذرية الضرورية لذلك. كي لا تحاول أي سلطة تشويه إرادة الشعب بعد اليوم وتزوير مواقفه ممّن يعبرون عن حقيقة أمانيه ونبيل مقاصده. لقد أمعن السيد فرحة بتعاييره المثيرة واستطراداته الهادرة في تنفيذ الوقائع التي لا يرقى إليها أدنى شك، حسب قوله، بغية إثارة الزعيم وتحريضه على إشعال الثورة من أجل الإطاحة بالمزورين لأنهم انتزعوا منه الفوز الذي كان «مضموناً» في الانتخابات لو حدث غير ما حدث. وكم توقف طويلاً لدى ما اقترفته السلطة تجاه الحزب والزعيم بإصدارها مذكرة التوقيف تلك دون مبرّر ولا مسوّغ. وراح يكرّر التأكيد على أهمية إسهامه بكل إمكانياته في تدعيم الثورة العتيدة والعمل على إنجازها، فلا بدّ إذن أن ينال المرتكبون جزاءهم المصارم والعاجل «خير البرّ عاجله». وأن للسيد فرحة من قوة شخصيته الديماغوجية وتماديه في الاعتماد عليها والتفنن في استغلالها ما جعله يعتقد بحتمية إقناع الزعيم وحمله على الثورة ضدّ الدولة تشفياً له.

وما إن أخذ السيد فرحة لنفسه فرصة لاستعادة أنفاسه المكدودة وضبط انفعالاته المشدودة حتى بادره الزعيم بقوله:

«حسناً، يا سيد فرحة، لا ريب أن الحكومة عاصية إرادة الشعب متنكّرة لسيادته وحرّيته وهي تستحق العقاب العادل المعبر عن أصالة الشعب. ونحن مستعدّون لإعطاء المستبدّ الدرس اللازم علّه يدرك مدى تمسّك الشعب بحقه في الحرية وقدرته على إثبات هذا الحق والدفاع عن

كرامته المستهانة. ويسرنا أن نتعاون مع الأصدقاء الغيورين على المصلحة العامة أمثالك. فما هو استعدادك العملي للتعاون؟» ثم تناول الزعيم ورقة صغيرة وخط في أعلاها إلى اليمين اسم السيد فرحة، ووضع تحته بشكل عامودي ثلاث كلمات ذات دلالة عميقة الخطورة: الرجال، السلاح، المال. وتوجه فوراً إلى السيد فرحة مستوضحاً: «ماذا تقدم لمطلّبات المعركة من مقاتلين، من سلاح ومال توفيراً لإمكانيات نجاحها؟»

ولما لم يكن لدى السيد فرحة ما يقدمه لإنجاح الثورة التي شدّد على أهميتها ما عدا الحماس الغامر والكلام الوفير من دون أن يتجاوزها إلى العمل ووسائله الجدية، أعلن له الزعيم بحزم حاسم: «نحن بطبيعتنا وطبيعة تعاليم النهضة السورية القومية الاجتماعية رواد بحث عن القتال حتى نضع حداً نهائياً لآلام الشعب ومرارة ما يعانيه من تعسف على أعداء الشعب أينما وجدوا في الداخل والخارج. غير أننا لم نعلمك بالأمر ولن ندعوك لمشاركتنا بأي عمل ما دمت لا تملك شيئاً تقدمه لاحتياجات الثورة. فلا يتفق من معه شيء مع من ليس معه شيء، الاتفاق يكون مع اثنين أو أكثر مع كلٍّ منهم شيء يُعتمد عليه ونحن إذ نسجّل ملاحظتنا على اندفاعك الجارف نرى ضرورة الاقتصاد به للإفساح في المجال للعمل المجدي المصمّم الصامت. فلا ينجح أمر تكثرفيه الأقوال وتقلّ الأعمال.»

قل لحضرة عميد الداخلية ليصدر أمر
انتقال، لا إذناً بالهجرة، لمن يوّد الذهاب
إلى الكويت لأنها منطقة ضمن الوطن
السوري

سعاده

من أهم التدابير التنظيمية التي اتخذها الزعيم إثر عودته من المغرب، هي إصدار مرسوم بمنع الهجرة خارج الوطن، إلا لحالات استثنائية اضطرارية، وبإذن خاص من الزعيم، وأن على من يوّد مغادرة الوطن إلى أية جهة من العالم، أن يتقدم، أولاً، بواسطة التسلسل الإداري، بطلب يعلّل فيه الأسباب الموجبة لاغترابه، وعليه أيضاً أن يخضع إلى تحقيق تقوم به عمدة الداخلية حول جميع العوامل التي تفرض عليه الهجرة، حتى يُصار، بالتالي، إلى منحه الإذن بالهجرة مشروطاً بعدّة قيود والتزامات قومية اجتماعية، وإلاّ تمنع عليه مغادرة الوطن منعاً باتاً.

مذ ذاك، أخذت الدوائر الحزبية في المركز وجميع الفروع تهتم بشؤون الهجرة على العموم وخاصة بين صفوف الحزب، متتبّعة الأسباب المادية والنفسية التي تؤدّي إلى تفاقم دوافع الهجرة، للعمل بجميع الوسائل

القومية على تلافها والحد من الإقبال المتزايد عليها الذي يدل على حالة مؤسفة في الهرب الخطير من الوطن، والتخلي عن موجبات المواطن الأساسية، مما يتهدد ثروة الأمة من الوجهة البشرية والمادية بالضياغ، ويضعها في مأزق إزاء مستقبلها ومصيرها، وتجاه سائر الأمم النامية الناهضة.

ذات يوم، تسلمت عمدة الداخلية طلباً من أحد الرفقاء موجهاً بالتسلسل النظامي إلى الزعيم يستأذن به السماح له بالهجرة إلى الكويت، لأسباب مينة في الطلب ومديلة بمطالعة كل من مدير مديريته والمنقذ العام. فبادر عميد الداخلية إلى تكليف ناموس العمدة بدعوة الرفيق طالب الإذن بالهجرة لمقابلة العميد في موعد قريب، من أجل التحقيق معه في دواعي هجرته إلى الكويت ليرفع طلبه إلى الزعيم مرفقاً بمطالعة العمدة واقتراحها بشأنه.

بعد إجراء التحقيق اللازم مع الرفيق المذكور بموضوع طلبه الهجرة إلى الكويت، حملت ملفه المتضمن، إلى جانب طلب الإذن بالهجرة، كامل المعلومات عنه مع المطالعات والتحقيقات المتعلقة بطلبه من قبل المديرية والمنقذية إلى حضرة الزعيم لمعرفة ما يتوجب عليّ عمله بهذا الخصوص. أخذ الزعيم يتصّحّح بريد عمدة الداخلية بما فيه من التقارير والاقتراحات المرفوعة إما من قبلها أو بواسطتها إلى مقام الزعامة، موجهاً إليّ الملاحظات والإرشادات اللازمة إلى أن أخذ ملف طلب الإذن بالهجرة إلى الكويت. وما أن وقع نظره عليه واطلع على موضوعه، حتى لاحت ابتسامة على محياه تنم عن شديد الاستغراب والتساؤل ثم تناول قلماً من جيبه وخط في أعلى الصفحة الأولى من الطلب عبارة «الكويت منطقة سورية لا يحتاج من يود الذهاب إليها أيّ إذن بالهجرة بل يكفي إعطاؤه أمر انتقال من لدن عمدة الداخلية لإلحاقه هناك بأحد الفروع الحزبية حيث سيقوم». ثم التفت إليّ

قائلاً: «يَلِّغُ حَضْرَةَ عَمِيدِ الدَّاخِلِيَّةِ، أَنَّ الذَّهَابَ إِلَى الكُوَيْتِ هُوَ مَجْرَدُ انْتِقَالٍ ضَمَّنَ الوَطْنَ السُّورِيَّ، وَليْسَ اغْتِرَاباً أَوْ هِجْرَةً إِلَى الخَارِجِ عِبْرَ الحُدُودِ».

بِهذِهِ المُنَاسِبَةِ، عَلِمْتُ أَنَّ الكُوَيْتَ مَنطِقَةً مِنَ الوَطَنِ السُّورِيِّ، ضَمَّنَ حُدُودَهُ الطَّبِيعِيَّةَ، وَتَعَلَّمْتُ بِفَضْلِ تِلْكَ الغَلْطَةِ الجَسِيمَةِ الَّتِي اشْتَرَكْتُ فِيهَا بِالتَّسْلُسِ مِنَ مَدِيرِ المَدِيرِيَّةِ إِلَى عَمْدَةِ الدَّاخِلِيَّةِ، إِلَى أَيْنَ تَمْتَدُّ حُدُودُ وَطَنِي السُّورِيِّ وَأَنَّ الكُوَيْتَ هِيَ مَنطِقَةٌ سُورِيَّةٌ.

موضوع الاجتماع هو الاجتماع نفسه بمعانيه وأبعاده القومية الاجتماعية

سعاده

عُقد اجتماع لإحدى مديريات رأس بيروت صيف سنة 1947. حضره الزعيم وعدد من العمدة. ما أن التأم عقد الاجتماع، وقبيل المبادرة إلى افتتاحه رسمياً حتى توجّه أحد الأعضاء إلى المدير بسؤاله عمّا هو موضوع الاجتماع اليوم وهل من جديد لدينا؟

ثم افتتح الاجتماع وتمّت معالجة الأبحاث والمواضيع المقرّرة دون أن يُجاب مباشرة على هذا السؤال. ربّما لأن مدير المديرية لم يرَ السؤال جديراً بالإجابة الخاصة أو لأنه رأى أن ما حصل في الاجتماع نفسه من أبحاث هو بطبيعة الحال الجواب المطلوب والوافي للسؤال. كاد الاجتماع يختتم أعماله ويقارب إلى النهاية دون الرجوع إلى السؤال والاهتمام به.

حينذاك تناول الزعيم الحديث مبادراً إلى الإجابة على السؤال المذكور حول موضوع الاجتماع عينه والجديد فيه. فاستهلّ الزعيم كلامه بالتوجّه إلى صاحب السؤال: هل عرفت، يا رفيقي، موضوع هذا الاجتماع وهل وجدت فيه من جديد؟ فارتبك الرفيق وتلفظ بتردد خجول بكلمة «نعم

حضرة الزعيم». وقد تراءى له أن الزعيم يؤنبه للطريقة التي وجّه بها السؤال إلى المدير. ثم تولى الزعيم تسديد الجواب كما يلي:

يا رفيقي، أن موضوع الاجتماع، أيّ اجتماع، هو الاجتماع عينه بصرف النظر عمّا يُتداول خلاله من أبحاث وأحاديث ومعلومات وتعليمات وسواها. مواضيع جميع الاجتماعات دون استثناء هي واحدة بالمبدأ والأساس، هي أولاً وأخراً موضوع التلبية للاجتماع التلبية التي تؤكد عميق استعدادٍ للتلاقي الواعي المسؤول وللتفاعل الحقيقي من أجل تحقيق ما تعاقدا على تحقيقه. موضوع الاجتماع هو ممارسة النظام بالعمل الحي والواجب الفعلي، والنظام هو أعمق الواجبات دلالة على تراصنا وتضافر عزائنا، وهو أشدها تعبيراً عن حريتنا في العمل وإصرارنا على تحقيق حقيقتنا وتجسيد قوتنا في توليد التجاوب لصفوفنا وترسيخ الاستجابة الخطيرة الأهمية بيننا لأغراض النهضة ومرامها الحقيقية البناءة.

الاجتماع منطلق التحقيق لوحدة الإرادة ووحدة التصميم للعمل الموحد من أجل قضية الأمة السورية وسيادتها. ولا يتم العمل الصحيح إلا بتضافر عزيمة العاملين له وإجماع جهادهم وجهودهم في سبيل مفاهيم الحزب وغاية الحزب ومبادئه. والقصد من كل اجتماع حاصل حكماً بمجرد اللقاء ولو لم نعالج إبان الاجتماع بحثاً معيناً ونتداول حديثاً محدداً في إطاره. وماهية الموضوع لأيّ اجتماع تتكون من طبيعة ثقتنا بأنفسنا ووعينا معاً. هذه الروحية القومية الاجتماعية عينها التي تحملنا إلى الاجتماع هي التي تمدّنا بالموضوع الذي لا غنى عن معالجته، وتحدّد لنا ماهية الاجتماع. أما التنظيم فهو يعيّن نطاق الموضوع وتقسيم مراحل بحثه وتوزيع أجزائه في المجال الذي لا بدّ أن يكون مناسباً.

ففي التلبية النظامية يكون ضمان الاجتماع وفي الاجتماع بذاته تنشأ
المواضيع اللازمة له وتتكامل عمقاً وشمولاً تبعاً لممارسة العمل والوعي
فتتبلور إذ ذاك حقيقة وجودنا مع كل لقاء وينطلق وجودنا الحقيقي معبراً
عن تفوق حقيقة الأصالة السورية ومجسداً انتصارها بالأعمال والأفعال
وبالمواقف الفذة التي تؤسسها وترسخها القدرة على الاجتماع القومي
الاجتماعي وقوة الوعي لمعاني الاجتماع وأبعاده. فالجديد الحي يتجدد بقوة
نموه وطاقته على التطور للأفضل وحاجة الحياة للاستمرار بزخمه
وبفاعليته اللامتناهية التصاعد والتسامي في بلوغ مطالب الحياة العليا.

وتظل الحياة لنا بقدر ما نحن مؤهلون لنكون أبناء الحياة وباعثي
الحيوية لهذه الأمة العظيمة، أمة التجدد والتجديد، أمة الخلق والإبداع.

إذا سألك القوميون عمّا سيفعل الزعيم
بمبلغ الألفي ليرة التي يطلب جمعها، قل
لهم أنّ الزعيم سيرمي بها في البحر
سعاده

في أواسط الشهر الحادي عشر من سنة 1947 ولم يكن قد مضى الشهر الأول على سحب السلطة اللبنانية لمذكرة التوقيف بحق الزعيم، التي كانت قد أصدرتها إثر عودته من المغرب، كان المسؤولون منهمكين في تصريف أعمال مسؤولياتهم الحزبية، أثناء دوامهم في مركز الحزب، الكائن، آنذاك، في شارع المعرض. في تلك الأثناء والأعمال تسير على أشدها من النشاط والفاعلية، يقرع جرس الهاتف، يسود الهدوء جو المركز، حين أتناول السماعرة وأقول فوراً: «ألو، أنت غالي وطلبت رخيص». فرد المتكلم حالياً، «جيد عليك، إذن، أن تحضر إلى هنا، إني بانتظارك في مكتبي». أدركتُ، حينذاك، إنّي أتكلم مع الزعيم، ابتسمتُ والارتباك بل التهيّب قد بدا في صوتي وعلى وجهي، مما لفت إليّ الأنظار، وسارعت إلى الإجابة: «حاضر، وإني أصرّ على الشق الأول من العبارة، أنت غالي» فرد الزعيم «مع ذلك، لا بدّ من حضورك سريعاً». وضعت السماعرة في مكانها، حملت

حقيبي محاولاً مغادرة المركز لأوافي الزعيم إلى مكتبه في خان أنطون بك، باب إدريس، وتهامس الرفقاء الحاضرون قائلين أن المخابرة مع الزعيم وهو يدعو عميد الداخلية لمقابلته، وبدا على الجميع الاهتمام والمرح ثم قال أحدهم، أصبحت أنت الرخيص المطلوب من قبل الغالي، التفت إليه كأنني أهمّ بشكره ثم خرجت سريعاً من المركز باتجاه مكتب الزعيم.

وما إن صرت أمام الزعيم حتى بادرنى، وبالابتسامة تسبقه إلى الإفصاح عن ارتياحه وسروره «هذه المرة أدعوك إلى جولة سريعة قصيرة، لكن لشأن مالي لا إداري كالمعتاد، نحن بحاجة ملحة إلى مبلغ من المال لا يقلّ عن ألفي ليرة لبنانية، لا بدّ أن نحصل عليها خلال أسبوع واحد لا أكثر. استعدّ منذ الآن وفكر جيداً من أي منطقة يسهل جمع المبلغ، وضمن المهلة المحددة، لن أرضى دون هذا المبلغ ولو ليرة واحدة، وأريده في الوقت المعين، وإلا سألجأ إلى تدبير آخر للحصول عليه، لكّي أفضل أن أعتمد تبرعات القوميين، يمكنك أن تعود إلى عمك الآن لتحضر إلى هنا عند الظهر».

حضرت في الموعد إلى مكتب الزعيم، وأوضحت له إمكان جمع المبلغ المطلوب في المدّة المحدّدة عن طريق التبرعات، وسمّيت المناطق التي سأتوجّه إليها، بادئ الأمر، من أجل تأمين المطلوب كما يلزم. وافق الزعيم وأبدى ثقته بنجاح المهمة قائلاً: «غداً تبدأ الجولة منذ الصباح». وقبل أن يسمح لي بالانصراف تفرس بوجهي وهو يتلفظ بهذه العبارات بتأنٍ وهدوء، كمن يملي رسالة على أحد الكتاب النواميس، «انتبه، يا حضرة العميد، إذا سألك القوميون، الذين ستتصل بهم، حيث تتوجّه، ماذا سيعمل الزعيم بهذا المال، قل لهم أن الزعيم سيرمي به إلى البحر، لأن المصلحة القومية تقضي بذلك، إن ما أطلب منك عمله هو جدّ غالي، وليس رخيصاً أبداً. موفق.. وإلى حين».

توجّهت مستهلاً جولتي، بمنفذية اللاذقية، ومنها إلى جبلة، بانياس وطرطوس. وباشرت بعقد جلسات لهيئات المنفذيات أعلمهم بأمر مهمّتي إليهم، وبإصرار الزعيم عل أهميّة الحصول على كامل المبلغ في غضون أسبوع واحد. أعدت اللوائح بأسماء الأعضاء القادرين بالنسبة إلى إمكانياتهم المالية وقدرتهم على تلبية الواجب على أفضل وجه، وبمتمتى الدقة والنظامية القومية الاجتماعية ثم وُزعت تلك اللوائح على عدد معيّن من الرفقاء كلّفوا بعملية جمع المال بموجب إيصالات رسمية من قبل نظار المالية في المنفذيات المذكورة. هكذا أخذ التنفيذ يتم ويستمر بنظامية بالغة الروعة والانضباط، دون أن يحاول أي رفيق توجيه السؤال لمعرفة الغرض من جمع المبلغ، ونوع الحاجة إليه، لا تصريحاً ولا تلميحاً، كأنّهم جميعاً على علم أكيد بمرامي كلّ ما يطلب تأمينه، وعلى يقين قاطع من صحة كلّ ما يجري وصواب ما يعهد به إليهم، وكنت، طيلة الأيام الثلاثة الأولى من الجولة أتأمل روحية الثقة المطلقة التي كانت ترافق عملية جمع المال، وكم كنت أتمنى أن يستوضح مني أحدهم عن الغاية من تأمين هذا المبلغ، لأجيب بما أوصاني به الزعيم حول مصير المال، متوسّعاً في شرح وتحليل معنى قول الزعيم بأنه سيرمي بالمبلغ إلى البحر، وما يدلّ عليه من رسوخ الثقة بأعمال الحزب وأبعادها السامية في منهج تعاملنا وكيفية قيامنا بواجباتنا القومية الاجتماعية على أعلى مستوى من الثقة والأمانة والتلبية المجسّدة للعقلية الأخلاقية الجديدة التي نمارسها ونقدّمها للأمة لمصالحها ومصيرها. لكن أحداً من القوميين الاجتماعيين لم يُؤز، لا من قريب ولا من بعيد، مسألة حاجة الزعيم إلى المال المطلوب، واستمرّت التبرعات تردّ إلى نظار المالية تبعاً بهدوء ورسانة ويقين عميق عزّ نظيره في تاريخ أرقى الأمم وأعمقها إيماناً بالنصر، وأقدرها على تحقيقه.

ولما لم يرد السؤال من أحد حول وجهة صرف هذا المال، في حين أن الجولة أوشكت على الانتهاء والمبلغ جمع معظمه خلال خمسة أيام فقط، ومن المحتمل أن أتتمكن من العودة إلى الزعيم ومعى المبلغ في اليوم السادس مساءً، رأيت أن أخبر الرفقاء عن أن المال سيلقي به الزعيم إلى البحر لمصلحة قومية عليا، وأن أجعل من قوله هذا، منطلقاً لبحث موضوع الثقة في الحزب، التي هي أساس كلّ وحدة روحية، وبالتالي، كلّ عمل منظم وبنّاء، التي لولاها لما كانت الأخلاق والمناقب نبراس كل نجاح وفلاح للأمم. ولما كان أصلاً الإقبال البطولي على العطاء والتضحية من أجل القضية التي تساوي وجودنا، ولما استطاع الإنسان أي عمل مثمر في الحياة، وعجز عن الكشف عما في أعماق البحار والقفار، وما في الأجواء من كنوز ومن مناجم ومقالع، وفقد السيطرة بعقله الجبار وعزيمته العملاقة على مصادر الثروة ومنايع القوة في الحياة والكون، تلك التي تتزايد كل يوم وفي كل خطوة من مسيرة العقل والإدارة.

لا يكون العمل والإنتاج إلا وليد الثقة، الطاعة والانضباط بالعقيدة والنظام دليل الثقة، الطموح في التقدم وتحقيق الأفضل ثقة بالحياة والمستقبل، والثقة طاقة جبّارة تساعد على تحمل الآلام وتذليل الصعوبات وبلوغ النصر الموعود. الإيمان ثقة تصنع العجائب والمعجزات، بالإيمان، وهو أعلى مراتب الثقة وأسمى قمم الشجاعة والإقدام، يقول الإنسان لهذا الجيل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل، متغلباً على الموت ومنتصراً على جميع الويلات والمآسي، مهما بلغت حدةً وعنفاً.

«إننا ارتبطنا لنسير على سياسة واحدة، في نظام له منّا كلّ ولائنا في الحزب القائم على يقين كلّّي، وإيمان مطلق لا سبيل، معه، إلى الشكوك. فالشكوك تكوّن الجبن والخوف والتردد والفوضى وعدم الوضوح. فلا سبيل لهذه المخاوف إلى يقيننا».

«إن الذين لا يثقون بحقيقة قضيتهم، لا يثقون بحزبهم ونظامهم، ولا بشيء على الإطلاق، ومتى حلت الثقة محلّ الشك، متى حل الإيمان محل الشك فُضي على التردد والفوضى واللبلة. فإذا كنا نعود من الإيمان إلى الشك، كان لائقاً أن نقول بحق أننا لا نتقدّم بل نتراجع. يمكننا أن نتقدم من الشك إلى الإيمان، ولا يمكننا أن نتقدم من الإيمان إلى الشك بل يمكننا أن نرجع القهقري».

«ببقيين مثل هذا فقط يمكن الانتصار، بهذا الإيمان بمبادئنا، بأمجادنا بحقيقتنا، بأننا قضية. بأننا الحق والخير والجمال كلّه، نحقق كل ما هو سامّ وجميل وخير للمجتمع».

التعيين هو شرط الوضوح، وكلّ لا وضوح لا يمكن أن يكون قاعدة لأيّة حقيقة

سعاده

قبل التاسع من حزيران سنة 1949، يوم الغدر في الجميزة، بما لا يقل عن ثلاثة أشهر، حلّ الزعيم مجلس العمد. وكلف العمد بمسؤوليات أخرى من فرعية ومركزية، موكلاً إلى وكلاء العمد مسؤولية تصريف الأعمال الحزبية بإشراف مباشر من قبله. وقد نُقِلْتُ آنذاك، من مسؤولية عميد للداخلية إلى مسؤولية مدير مكتب الزعيم وناموسه الأول، في حين عُيِّن الرفيق جورج بشّور الناموس الثاني للمكتب.

تسلّمت مهامّ مسؤوليتي الجديدة، وكان أول ما طُلب مني القيام به، في اليوم الأول، هو تصنيف جميع الأوراق والوثائق التي كانت تكوّن مراجع الأبحاث في مكتب الزعيم والتي كانت مبعثرة دون أي تبويب أو تنظيم يساعدان على الاستفادة منها لدى الحاجة.

جلست إلى الطاولة وأخذت أتأمل فيما حوли من أوراق مطبوعة ومخطوطة، ومن صحف وقصاصات صحف ونشرات وبيانات صادرة عن الحزب وواردة من جهات حزبية سياسية وفكرية ثقافية متنوعة النزعات

والمآرب، كما رحبت أقلب النظر بِخَيْرَةِ الواقف على مفترق الطرق يفتش عن أقرب السبل وأسلمها للسير إلى غرضه المنشود، أقلب النظر في كميات الأوراق الموزعة في جميع أرجاء الغرفة، عليّ أهتدي إلى نقطة البدء الصالحة للانطلاق إلى العمل المطلوب إنجازه بعناية وسرعة. فراودتني فكرة بدت لي موفقة وجيدة للمباشرة منها إلى تصنيف الأوراق المتراكمة حولي، وسارعت إلى ورقة بيضاء كانت بالقرب مني لأخطّ عليها جدولاً بأسماء المواضيع التي لا بدّ أن يكون لها أوراق بين الوثائق، كي أعدّ لها المصنفات ثم أوّزّ كل نوع منها في مصنفه الخاص بموضوعه، أرقّمها وأسجّلها بأرقامها المتسلسلة في فهرست أبجدي تسهل مراجعته وتصفّح محتواه لدى الحاجة. وأذكر أن عدد أسماء المصنفات التي وضعتها على أساس المواضيع المفترض وجود أوراق تتعلّق بها قد بلغ ما يقارب الخمسين مصنفاً.

صبيحة اليوم التالي دخل الزعيم إلى المكتب ليتفقد ما تمّ إنجازه من العمل المطلوب منذ أربع وعشرين ساعة. وجدني مهمكاً في إعداد اللائحة بأسماء المصنفات للمواضيع التي افترضت وجود أوراق عنها بين كوم الأوراق التي كانت ما تزال على حالها كالسابق. تناول الزعيم الجدول بأسماء المصنفات وراح يطالع تفاصيله بإمعان كمن يحلّ رموز ألغاز يصعب تفهّم مدلولها وخلفياتها ثم ابتسم مقطباً وقال: «يا حضرة الأمين، بالرغم من عنائك واعتنائك بوضع هذا الجدول الطويل بأسماء مواضيع افترضت وجود أوراق لها، دون أن تطلّع حتى الآن على أية ورقة منها لتعرف مضمونها، فإنك لم تباشربعد عمك فعلياً، لأنك انطلقت من فرضية غير مستندة إلى أيّ معطى حقيقي يصحّ الاعتماد عليه. افترضت ما يمكن أن تحتويه هذه الأوراق من مواضيع ومراجع لمواضيع، ثم بادرت إلى إعداد أسماء المصنفات للمواضيع المفترض وجودها دون أن تمسّ ورق واحدة منها.

أنك لا تستطيع أن تعرف مواضيع هذه الأوراق التي بحوزتك لمجرد النظر إليها من بعيد، وبالتالي، لا يسعك توزيعها في مصنفات خاصة بها حسب هذه المواضيع التي يمكن أن تشتمل عليها هذه الأوراق سيوقعك هذا دون ريب بأحد أمرين لدى اطلاعك الفعلي على محتواها أو بالأمرين معاً.

فإما أنك ستجد بين يديك مصنفات معدة لمواضيع لا وجود لها في الواقع، وستبقى هذه المصنفات لديك فارغة بانتظار وجود مواضيعها الغائبة في المجهول، إذا ما تيسر وجودها يوماً.

وأما أنك ستجد أمامك أوراقاً لمواضيع لم تخطر لك في التصور الذي انطلقت منه لإعداد المصنفات المذكورة، ولم تُعد لها المصنفات اللازمة لترتيبها، وستبقى هذه الأوراق مهملة بانتظار مصنفاتها المتخلفة عن الحضور بسبب الافتراض الذي لا بد أن يقصر عن تصوّر الواقع الحقيقي بتمام دقائقه، الافتراض عادة مغرق بضباب الإبهام، وأن أيّ تصور أو افتراض لا يصح أن يكون منطلقاً صحيحاً لإنجاز أعمال وإقرار حقائق عملية.

وفي أي من الحالين لقد أهدرت جهوداً وبددت وقتاً دون طائل ولا جدوى، لأنك قد أحللت الافتراض النظري بل التصور المهم محل الاستناد إلى معطى عملي جاهز بين يديك هو وجود الأوراق بعينها التي كان عليك أن تبادر إلى الاطلاع عليها قبل أيّ شيء آخر لمعرفة ما تتناول من مواضيع وأبحاث، تصنّفها حسب مواضيعها، بعد معرفتك لمضمونها معرفة صحيحة لا تحتل الافتراض ولا التخمين ولا يرقى إليها الغموض ولا إشكال الإبهام.

لو اتجهت بعملك إلى اعتماد نظام الفكر والنهج الذي يجعلك تدرك الواقع وتبني عليه كل الخطوات التالية للتعرف به، لأمكنك، منذ البداية إلى اليوم، أن تنجز عملك بأكمله وجه وتنتهي من تصنيف ما لديك من أوراق ومراجع في مكتب الزعيم.

ففي الحزب لم نفترض وجود أمة افتراضياً، ولم ننشئ الأمة السورية بقرار ومرسوم، رغبة في أن تكون لنا أمة أسوة بسائر الأمم، أمة تناسب تأملاتنا وتطابق تصوراتنا وأمانينا. لم نؤسس لوجود الأمة المفترض نهضة قومية اجتماعية وحزباً مهمته أن يصون النهضة ويناضل لتحقيق وجودها وانتصار حقيقتها على أساس افتراض شئنا تصوّره لهواً واعتباطاً. وإننا نعرف ما نريد ونريد ما نعرف. كما أن الأعمال لا تكون بالنيّات فالحقائق لا تكون بالفرضيات والتصورات كيفما اتفق.

عندما توجهنا بسؤالنا «من نحن» عبّرنا عن يقيننا المطلق بأننا وجود حي وحقيقة قادرة على أن تفرض نفسها على الوجود. «والتعيين هو شرط الوضوح، والوضوح هو الحالة الطبيعية للذات المدركة الواعية الفاهمة. فكلّ لا وضوح لا يمكن أن يكون أساساً لإيمان صحيح، وكلّ لا وضوح لا يمكن أن يكون قاعدة لأي حقيقة». ولا سبباً لأي إنشاء أو تحقيق سليم فاعل.

أمل أن تكون أعصابك بمتانة روحيتك القومية لأنها من أساس متانة الإنجاز والتحقيق السليم

سعادته

ذات مرة في لقاء مع الزعيم كنا عدداً من الرفقاء دعانا للتداول بأمر طارئ وهام. كان يودّ الاطلاع على آرائنا واقتراحاتنا العملية بشأنه. تشعبت جوانب البحث في الموضوع وتوزّعت وجهات النظر في تعليقه وتحليله وخاصة في إمكان التوصل إلى الحل الصحيح. وكانت المسألة، على ما أذكر، تتعلق باتخاذ موقف من فئة معينة رداً على تصرف بدر منها تجاه رفيق في إحدى مديريات المتن الشمالي. وكان البحث يتطلّب الخروج إلى الرأي العام بتسديد حاسم للجهة التي تجرأت فأقدمت يومذاك على الإساءة لسمعة الحزب دون أي مبرّر مما يقتضي التصويب.

كان من بين الحضور الرفيق يوسف تاج من مديرية برمانا وكان أشدنا إصراراً على ضرورة الردّ، وإلحاحاً على نوع معين من أسلوب المعالجة للمسألة المطروحة على أن يكون الرد فاصلاً في تقديم العبرة القومية الاجتماعية وفي تمكين الشعب من تفهم حقيقة الحزب ومن تقديره للعقلية

الأخلاقية البناءة التي يرسّخها في نفسية الأمة. استمرّ البحث بعض الوقت فتزايد تحمّس الرفيق يوسف تاج خلاله متصاعداً إلى حد الانفعال الغاضب حتى راح يقرع الطاولة الخشبية الموجودة أمامنا دون أي انتباه لما يعمل. مما فاجأنا جميعاً وأخرج الموقف تجاه حضرة الزعيم بما أضفاه على سوية البحث من توترٍ مشدود غير مقبول. وقد حاول أحدها بكل تؤدة أن يمسك بيد الرفيق المتحمس ملفتاً انتباهه إلى خطأ ذلك التصرف مهما كان الدافع إليه وإلى ضرورة ضبط أعصابه وأخذ الأمر بالروية والانضباط السديدين. لكن الزعيم سارع بإشارة لبقة خاطفة إلى طلب الامتناع عن أي تدخل وترك كامل المجال للرفيق يوسف تاج كي يعبر عن رأيه كما يروق له وبطريقته العفوية التي سهّلت له ذلك. في تلك اللحظة بالذات تنبه الرفيق لنفسه ولاحظ خطأ ما بدر منه فتوقّف حالاً عن متابعة حديثه مستعيداً بسرعة هدوئه ورويّته النظامية. وبادر فوراً إلى تقديم اعتذاره الصادق لحضرة الزعيم موضحاً أنه قد استرسل بانفعاله غير النظامي والخارج عن اللياقة القومية الاجتماعية نظراً للأهمية القصوى التي أولاهها لموضوع البحث ولحرصه الشديد على ضرورة معالجة ما قد ينجم عنه من ملاحظات محتملة ليصار بسرعة إلى تلافيمها مستقبلاً. وراح يكرر اعتذاره بحرارة وإلحاح.

غير أن الزعيم تابع حديثه مستمراً في توجيه البحث من دون أن يتوقف عند الانفعال ولم يهتم بالاعتذار المعروض ولم يُبدِ أيّة ملاحظة أو تعليق بهذا الصدد بل ظلّ هادئاً كالمعتاد. استأنف الجميع البحث بدقة عميقة في السعي إلى معالجة المسألة بغية إيجاد الحل الملائم لها. وانتهى التداول باتخاذ موقف مناسب، وتقرر تدبير لازم نال موافقة الزعيم وحصل على تشجيعه وارتياحه لجدواه.

وقبيل السماح بالانصراف إلى مباشرة التنفيذ المقرر عاد الرفيق يوسف تاج مجدداً إلى تأكيد أسفه لما بدر منه والإصرار على طلب المعذرة بالنظر إلى صدق العوامل التي أدت إلى ذلك السلوك الانفعالي.

حينذاك التفت الزعيم إليه وهو يضع يده برفق المحب على كتفه ترافقها ومضات ابتسامة صافية الهدوء عميقة التأمل، ابتسامة تنم على أمل كبير يعلقه الزعيم على حرارة انهماك المخلصين للنهضة وعن الإيمان المطلق بالوصول بهؤلاء القلقين على مصير القضية إلى قمم من البناء ومعارج الفلاح. التفت الزعيم إلى أسارير الرفيق يوسف تاج المضطربة التعابير وجمال بنظراته الثاقبة متأملاً الوجوه الشاحصة إليه في هدأة السكون المفعم بالترقب الآمن والمليء بالرغبة في الكشف عن المجهول الشيق. وما «المعرفة سوى الكشف عن المجهول». ثم قال متوجهاً إلى الجميع بصوت نابض بأسرار الأعماق وكنوز الأغوار الخصبية، صوت من يتلو على العقول والنفوس عبراً بليغة في يقينها لبلوغ ما تقصد من مواجهة الأزمتا مهما اشتدت ومجابهة الصعاب مهما تصلبت واستعصمت:

«مع تأكيدي على صحّة الدوافع القومية التي حملت الرفيق يوسف تاج إلى إبداء الاندفاع بل الانفعال الذي حصل له ومع تقديري لمتانة الروحانية الدافعة لتدفق هذه الحيوية المباركة وإن تجاوزت حدود الاتزان النظامي إلى التوتّر المشدود، فإني آسف لما أعوز الرفيق يوسف من متانة الأعصاب وعمق الروية النضالية. كم أودّ أن يكون لنا من متانة الأعصاب وصلابة التعبير العميق عن حرصنا على مصلحة القضية ما يوازي متانة روحيتنا الصامدة. يتضافران متكاملين في مواجهة المعضلات وتذليل الملمات. لأنّ «الخطر في اضطراب الأعصاب» مهما أُعطينا من متانة الأخلاق والولاء للقضية. علينا أن نعرف كيف نبذل الجهود الرامية إلى إنجاح العمل وتحمل المسؤولية الملقاة على عواتقنا دونما تفريط بقوانا في مسيرتنا الطويلة

الشاقفة إلى الأفضل والأكثر جدوى ودون أي تبديد أو تبذير للوقت. فلا يُهدر سدى ولا يفيض عن مطلب الحاجة إليه في كل أمر. إن ضرورة الاستمرار في التلبية والعطاء تقتضي متانة التصميم ومتانة الإقدام على التحقيق المتين. لا بدّ أن تؤول جميع العوامل المبذولة بمتانة الاتجاه والإدراك إلى أمتن الغايات وأمنعها صدقاً وروية وعمقاً. لنكن دائماً في تماسك إمكانياتنا وتوازن طاقاتنا وفاعلية مواهبنا وحدة ومتانة وانطلاقاً مركزاً إلى الأفضل والأجمل. «ولا ينجح أمر تكثر فيه الأقوال وتقلّ الأعمال، فكيف والأقوال انفعالات جامحة وتوترات مضطربة، أقوال يعوزها صمود الإرادة وصلابتها».

لا شك أن المال امتحان مهم لنفسية
المرء، حين يصادف رفيقاً لم تكتمل
قوميته الاجتماعية يجرفه ويودي به إلى
السقوط

سعاده

تتكّر حالات معينة في سياق حياة الأمة وفي أمم أخرى على امتداد
مراحل من تاريخها. ويصبح تكرارها بمثابة ظاهرة اجتماعية طبيعية توشك
أن تشكل ما يشبه قاعدة ثابتة ومستمرة. فتلفت إليها الاهتمام وتستوجب،
بالتالي، التوقف لدراستها الموضوعية ومعالجتها الجديدة.

من هذه الحالات المتكررة عبر الأزمنة والمجتمعات قديمها وحديثها هي
أن رواد الرسائل، والنهضات الكبرى من دينية واجتماعية فكرية وكذلك
الأقطاب المؤمنون العاملون لنصرة هذه العقائد الأساسية في بناء صرح
الحضارات الخالدة والباذلون لتدعيمها وصيانتها كل طاقاتهم ووجودهم
جميع هؤلاء أو معظمهم هم من صميم صفوف الشعب المتألمة، لا يملكون
الثروة والجاه المرموق لا ينعمون بالنفوذ والمكانة المادية التراكمية. أغلبيتهم
الساحقة ممن يفتقرون إلى الحاجات المالية الأولية والإمكانات المادية

الضرورية وهم لا يحسنون توفير المال ولا التصرف به. شملت هذه الظاهرة أيضاً معظم المشتغلين في الشؤون الفكرية والمهتمين بقضايا الأدب والفن وقد قيل قديماً «فلان أدركته حرفة الأدب» أي أنه صار فقيراً معدماً لشدة انصرافه إلى المسائل الفكرية. وقد اعتبر وضع الأديب الفرنسي والمفكر الكبير «فولتير» من الحالات الشاذة عن هذه الظاهرة التي عمّت الكثير من الأمم والشعوب. لأن «فولتير» كان، وهو من أكبر رجال الفكر في عصره، أغنى رجل في أوروبا حينذاك. ألا تلتقي روحية العطاء الخيرة وبطولة الإقدام الصادقة في طلب الغايات والأهداف المثلى مع الاكتفاء المالي والاطمئنان المادّي؟ وهل أن الثراء المادي يقعد بالمرء، بالضرورة، عن مطالب الطموح العليا التي تتجاوز بأهميتها المصيرية محدودية الحاجات المادية ومرحلية الأعمال القريبة المنال الدانية القطوف؟ إن طبيعة الإنسان الأساسية هي التسامي في إحراز مدرجة الحياة بوحدة توازنها الأصيل وأن «القوة المادية دليل قوة نفسية راقية»، ولا وجود البتة لواحدة منهما من دون الأخرى ولا فصل بينهما ولا انفصام في الحياة السليمة الراقية. من المؤسف أن يكون لفقدان التوازن بين قوة المادة وقوة الروح آثاراً وأمثلة في سلوك العديد من القوميين الاجتماعيين، بالرغم من تفرّد الحزب بعقليته الأخلاقية البناءة مادةً وروحاً وما سجّله من مواقف بطولية فذة تجلّت في تصاعد العطاء والإقدام لترسيخ حقيقة الحرية والواجب والنظام والقوة. لقد أثبت الحزب خلال ما يقارب نصف قرن من تاريخ الأمة السورية في أدقّ مراحلها تعقيداً وتآزماً، أثبت جدارة الأصالة السورية للصمود والصراع على جميع الجهات وأكد قدرة النهضة على تجسيد فضائل هذه الأصالة المتفوّقة. فضائل العطاء بالأعمال والأفعال وبمواقف العز والكرامة لخير الأمة وسيادتها.

لوحظ منذ انطلاقة الحزب الأولى أن بعض من اندفعوا في النشاط القومي الاجتماعي بفاعلية دؤوبة مقدامة قد طراً عليهم بعد حين تلكؤ عن

تلبية واجباتهم النظامية بسبب تحسّن وضعهم المالي ثم أخذوا يتراجعون رويداً رويداً عن متابعة مواقفهم في حلبة الإقدام والنضال ويقصّرون عن الصمود خاصة لدى الأحداث التي تتطلب منهم أسوة بسواهم استجماع قواهم واستنفار إمكانياتهم إلى أقصى مداها إلى أن تخلّوا أخيراً عن التزامهم بالعقيدة والنظام وراحوا يتهبّون عن إبداء أدنى اهتمام بشأن الحزب ومصير الأمة متوارين وراء شتى الأعذار والذرائع الواهية والدالة على الترهّل والعقوق الفاضح. وقبعوا مُتزوّين هكذا في حفرة منافعهم الخصوصية يدورون بجشع وتكالب غير لائقين بالقومي الاجتماعي. مثّل هؤلاء المغرقيين بجمع المال للمال بعيداً إلى الأذهان عبيراً بليغة من خبرات الرسائل العظمية كالمسيحية مثلاً حيث يعلن المسيح: «الحق الحق أقول لكم أنه سهل على الجمل أن يدخل خرم الإبرة من دخول غني إلى ملكوت السماوات». وما زال هروب بعض الأثرياء من تحمل مسؤولياتهم القومية الاجتماعية مستمراً بنسبة تزايد ثرواتهم وتراكم أموالهم. حتى صار هؤلاء المتمولون كلما تحسّنت أوضاعهم المالية أمعنوا في الفرار من مواجهة تبعات المسؤولية القومية الاجتماعية وتنصّلوا من أعباء العطاء وواجب التلبية الصادقة الصافية. هل يتعدّر حتى على القومي الاجتماعي أن يجمع بين قوة نفوذه المستمدّة في المجتمع الحالي من توقّر المال بحوزته وبين قوة نفسيته القومية الاجتماعية المؤمنة بصحة العقيدة واستمرار الصراع من أجل القضية التي توازي كل وجوده؟ هل يحسب هذا المتمول أن ما يقدمه من مال مهما بلغ مقداره هو أكرم عطاء وأشد بطولة ممن يجودون بدمائهم تسديداً لحق الأمة عليهم، حقها بالسيادة والكرامة؟ وهل تكون الكرامة الحقيقية إلا بإغداق العطاء الكريم لتحقيق الحرية والواجب والنظام والقوة فتنهض الأمة العظيمة التي أعطت وما زالت تقدم أخصب المناجم وأصلب المقالع في تأسيس كل فن وكل علم وكل فلسفة لبناء الحضارات المتألّقة.

ذات مرة بينما الأحاديث كانت تدور حول أحد أغنياء الحزب الهاريين من وجه قسمهم القومي الاجتماعي، سئل حضرة الزعيم عن أسباب هذه الظاهرة من تلگو رفقاء عن ممارسة واجباتهم القومية الاجتماعية لما طراً من تحسّن أو استقرار على أوضاعهم المالية بعد أن سجّلوا سلوكاً نظامياً فاعلاً. فأجاب الزعيم إن الحياة المغامرة الكبرى هي سلسلة امتحانات واختبارات مستمرة لا تنتهي. منّا من يفوز بتأكيد أهليّته لخوض معركة الحياة لدى استمرارية هذه الامتحانات. ومنّا من تكشف الامتحانات زيف إيمانه وسطحية اندفاعه وتعلن انعدام مقدرته على الصمود والنجاح وعجزه عن الثبات في الطريق الطويلة. وما المال سوى أحد أهم هذه الامتحانات المغرية بالتخاذل والترهل. فحين يصادف المال رقيقاً لم يكتمل بناء قوميته الاجتماعية ولم تتبلور مفاهيمه للعقيدة وأهدافها فإنه يجرفه لا محالة وتستدرجه مغرباته المضللة إلى هاوية الهزيمة والسقوط. إنه يضيع بين دعوة الأنا التي يشده إليها المال ودعوة الواجب لتلبية أصالته السورية حتى يقع فريسة التكالب والجبانة ويقصي نفسه عن مسيرة الصفوف وزخم صمودها المتفوق بالعطاء والصراع حتى بلوغ النصر الأخير.

وضع النظام على قواعد حيوية تأخذ
الأفراد إلى النظام وتفسح أمامهم مجال
التطور والنمو حسب مواهبهم ومؤهلاتهم
سعاده

«إن مبادئنا القومية الاجتماعية قد كفلت توحيد اتجاهنا، ونظامنا قد كفل توحيد عملنا في هذا الاتجاه. النظام شيء عميق جداً في الحياة. هو نظام الفكر والنهج ثم نظام الأشكال التي تحقق الفكر والنهج».

كما أن النظام بطبيعته يضع الأمور في نصابها فهو كذلك يضع الأفراد في مكانهم اللائق بمواهبهم ومؤهلاتهم. لذلك يلتزم النظام بمعاينة من تُسَوَّلُ له نفسه مخالفة توجهاته والتهاون بتلبية أحكامه وتطبيق مضامينه بكل أمانة ودقة. والنظام القومي الاجتماعي يختلف عن كل نظام آخر لأنه نظام العقيدة السورية القومية الاجتماعية. نظام فوق الأشخاص وكل الاعتبارات الخارجة عن الحق العام وعن الغاية التي وجد من أجلها هذا النظام وتلك العقيدة. هذا النظام القومي الاجتماعي الذي يكفل توحيد العمل للحرية والواجب والنظام والقوة يدين التسويات ويفرض الأحكام المتسعة

الاعتباطية والحلول المنحازة ضد أشخاص أو من أجل أشخاص. هو تجسيد العدالة لأن «الأخلاق هي في صميم كل نظام يمكن أن يكتب له أن يبقى»، بفعل النظام القومي الاجتماعي نحصل على أكبر إنتاج وأفضله بأقل مجهود وأقل التكاليف وأقصر مدى زمني إذا ما أدركنا قيمته وشأنه البتاء في حياة الأمة والنهضة.

كان الزعيم دقيق المحاسبة بقدر ما هو دقيق التوجيه؛ شديد الحرص على تصويب أي تهاون واستئصال أي إهمال. مهما بدا في الظاهر طفيفاً وبسيطاً. مرة حضر عميد الداخلية متأخراً عن موعد جلسة مجلس العمدة مدة اثنتي عشرة دقيقة دون عذر. فما كان من الزعيم إلا أن أقاله من مسؤولية العمدة حالاً ليكون عبرة لسواه. من يحسب أن دقة الانضباط والتلبية الحاسمة أمر بسيط أو ثانوي يمكن التغاضي عنه. فالتأخير عن مواعيد العمل والإنجاز لا يقاس بمداه الزمني إنما بمغزاه النفسي الوجداني ذي الأثر الشديد الخطورة في البناء القومي الاجتماعي.

كان الشهيد عسّاف كرم قد طرد من صفوف الحزب إبان غياب الزعيم عن الوطن واستمر ينقذ هذه العقوبة القصوى خلال سنين عديدة حتى بعد عودة الزعيم فترة غير قصيرة. دون أن يُصار إلى إعادة النظر بهذا الوضع، لا يطلب منه ولا من قبل السلطة الحزبية آنذاك. ذات يوم حضر الأمين عجاج المهتار إلى المركز لمقابلتي بوصفي عميداً للداخلية ونقل إليّ رغبة عسّاف في الاجتماع بي لأمر حزبي هام. استمهلته ريثما أرفع الأمر إلى الزعيم أستأذنه الاجتماع بعسّاف كرم المطرود. في اليوم التالي أبلغت الأمين عجاج الموعد للقاء عسّاف. فحضر بتمام الموعد المحدد إلى المقابلة. أدّى التحية القومية الاجتماعية بنظامية رائعة وبخشوع من يتلو أدعية الصلاة لتحيا سورية. ثم أردف قائلاً: «أنا يا حضرة العميد. كما تعلم، مطرود من صفوف الحزب منذ كذا من السنين وإني دون ريب أستحقُّ الطرد. وليس لي من

اعتراض ولا طلب بصدد العقوبة. إنما بثُّ منذ حين أشعر بأنني قومي اجتماعي صادق العقيدة وصادق العزيمة وأودُّ أن أمارس واجبات العضوية بصورة فعلية ونظامية أسوة بسائر الرفقاء العاملين. وقد جئت إليكم أرجو العمل على إعادة اعتباري القومي الاجتماعي ومنحي حقوق العضوية النظامية كي يتاح لي القيام بواجباتي القومية الاجتماعية كاملة. واني أمل تلبية طلبي هذا. وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان». أبديت له عميق ارتياحي لمطلبه البالغ الأهمية ووعدته بمراجعة حضرة الزعيم بالأمر على أن أبلغه ما قد يتم بشأنه في موعد قريب جداً عن طريق صهره الأمين عجاج المهتار. رفعت تقريرتي إلى الزعيم عن موضوع عسّاف كرم وما أبداه من نبيل الرغبة وصفاء الإيمان للعودة إلى صفوف النهضة عضواً عاملاً ومناضلاً في العقيدة والنظام. فأمرني الزعيم بأن اتصل بعسّاف كرم ثانية وأطلب منه توجيه رسالة إلى الزعيم بما أعلنه شفويّاً وبواسطة عمدة الداخلية ثم ينتظر الجواب. تمّ الحصول على رسالة خطّية من عسّاف كرم تؤكّد مطلبه بالوضوح والإيجاز عينه الذي سجله شفويّاً لدى مقابلته لعميد الداخلية.

بعد أيام ثلاثة من تاريخ وصول الرسالة إلى حضرة الزعيم تلقّى عسّاف كرم طلباً ليرافق عميد الداخلية إلى مواجهة الزعيم في مكتبه. وقد كرر أمام الزعيم فحوى الرسالة ذاتها مصراً على ثقته بنفسه وجدارته لتحتمل مسؤوليات العضو في الحزب السوري القومي الاجتماعي على أتّم وجه وأعلى مستوى. دامت المقابلة بضع دقائق وقد طلب منه الزعيم الانتظار بعض الوقت حتى يتسّلم القرار اللازم لمعالجة وضعه. سمح له بالانصراف ثم أدّى عسّاف كرم بقامته الفارعة ووقفته النظامية الهيّبة التحية للزعيم الذي تجلّت في ملامحه المشرقة روعة الإيمان بعظمة هذه الأمة وجلال اليقين بتألّق أصالتها وتفوّق صفائها وقدرتها على كل عطاء وكل تحقيق خيرٍ وخالد.

هكذا عاد عسّاف كرم المطرود إلى صفوف الحزب ليمارس عضويته بكل أمانة ودقة وعاود نضاله البطولي مجسّداً تعاقده على تحقيق أمر خطير يساوي وجوده فبلغ ذروة العطاء وصار قدوة الأبطال ومن تراث الأجيال التي لم تولد بعد. فالقومي الاجتماعي السليم الأخلاق مهما أُلّت به حالات الضعف والانكفاء يظلّ القوة القادرة على التحرر من كَبُوتِها فلا تحوّلها النكبات إلى إنسان متخاذل جبان. لا بدّ للقومي الاجتماعي أن ينتصر على نفسه وينتصر بالتالي لحقّ أمته ومن أجل كرامتها وعزّها ومجدها. إن الأبطال المنتصرين على ضعفهم وتردّدهم هم جحافل القوى التي يقودها سعادته إلى النصر ويضع بقدوة مواقفهم القومية الاجتماعية وصلابة صمودهم حدّاً نهائياً للفتوحات.

أنت تستحقّ العقوبة من الحزب لا المعونة
لأنك أسأت بعملك إلى الثروة القومية
سعاده

يتبارى الجميع في اعتماد «الوسائط» لإعفاءهم من أحكام القانون مهما بدت عادلة ومحقة، لأن الناس بمعظمهم، خلال فترات الانحلال الخلفي الشائع، يعتقدون أن القانون بحد ذاته مجحف وظالم وهو مجرد سوط يستعمله عامة الأقبياء من شعبنا لمطاردة الضعفاء الذين يشعرون بأن لا حول لهم ولا قوة تحمهم من حيث المكانة والنفوذ والثراء. لذلك يخشون القانون والاحتكام إليه. هذا من جهة ومن جهة أخرى تعود الناس التهرب من مواجهة مسؤوليات تصرفاتهم وتحمل جزاء أعمالهم. وهذا الموقف من النظام والقانون يكاد يكون بين المواطنين عامة على اختلاف مستوياتهم. لذلك قلماً يتعرض المرء إلى مخالفة العقاب والحساب القانوني إلا ويسعى جاهداً إلى إيجاد من يتوسط له لدى ذوي السلطة وأصحاب الشأن للتملص ما أمكنه من تحمّل تبعات سلوكه مهما كانت مخالفته للقانون

والأخلاق جسيمة وشائنة بحق أحد الأفراد أو إزاء الحق العام والسلامة العامة.

وقد خُيِّل لأحد القوميين الاجتماعيين أن واجب المساعدة والمساندة في الملمات بين الأعضاء هو إلزامي وهو من دون قيد ولا شرط يفرضه الحق العام والمصلحة العامة كما يحدث عادة في ممارسة التعاون والتآزر بين الجماعات التي تشدها العصبية الطائفية أو العشائرية والعائلية وسواها من التكتلات الفئوية إذ يتم التعاون بينهم خاصة على الإثم والعدوان بعامل الحقد على الآخرين. المساعدة بين هؤلاء هي أساس ترابطهم وغاية له وهي شرط استمرار تجمّعهم اللا اجتماعي لأن علاقتهم بعضهم مع بعض هي علاقة المساهمين في شركة استثمار، تتغيّر وتبدّل وفق أرصدة الأرباح والخسائر. هم في اختلاف أو وفاق دائم سواء على تقسيم الأرباح أو توزيع الخسائر، كل فرد منهم على أهبة الاستعداد للتشهير بالآخرين والانقضاض عليهم مهتدداً متوعداً بالويل والثبور. لذلك فإن تواجدهم ووجودهم بأسره مهتد بالدمار والانهيار بين لحظة ولحظة هم على شفير الانفجار والاندثار أفراداً وأعداداً. مجموعهم شراذم من مقامرين ومغامرين. كلُّ يستثمر الآخر ولا يجرؤ أحد منهم على محاسبة سواه ومقاضاته. هذا بعض ما يحدث لدى من يحسبون أنفسهم زوراً وتزويراً أحزاباً وهم مجرد شركات وتشكيلات سياسية أو غير سياسية، والسياسة لدى هؤلاء المتحزبين الذين يجمع بينهم كره سواهم هي فقط من أجل السياسة عينها ولا يمكن أن تكون عملاً قومياً ولن تعرف سبل النجاح مهما ملأت الأرجاء والأجواء ثرثرة وصباحاً فضفاضاً.

جاء أحد أعضاء الحزب الذي لم يكن يفترق بين نهضة تعمل لسيادة الأمة بانتصار المناقب، والأخلاق البناءة الخيرة في صفوفها وبين شركة استثمار، واستيراد. جاء هذا العضو إلى الزعيم يشكو إليه همّاً قد حسبه

أنداك مهمّاً وجسيمياً وهو أنه قد أُحيل إلى إحدى محاكم الدولة اللبنانية بتهمة اصطياد السمك في غير المواعيد المحددة والأساليب المسموحة. وهو يخشى إصدار الحكم بمعاقبته. الأمر الذي لا يستطيع تحمّله. لأنه رجل فقير معوز لا يملك ما يمكنه من سدّ رمق عائلته. فكيف العمل للخلاص من المشكلة؟ وقد طلب مواجهة الزعيم لعلّه يتدخل أو يأمر من يتدخل مع أعضاء المحكمة لتخفيف العقوبة المتوقعة عنه أو تبرئته من التهمة، وهذا بالطبع هو الأنسب لديه والأفضل. والرفيق يرى أنه يستحق مسامحة المحكمة له ويأمل عطف الزعيم عليه واهتمامه بأمره وهل غير زعيم حزبه، وهو أب الجميع، يكون سند القوميين وعوناً لهم في الأزمات والملمات وفي المآسي والمآزق؟

ما كاد الرفيق الصياد يفرغ من كلامه هذا حتى وجم الزعيم وتجهّم وجهه فنمّت ملامحه بوضوح عما كان يعانیه حينذاك من مرارة وخيبة ثم ما لبث أن استعاد روعه وأخذ يتكلم بروية وتؤدة مؤاسياً الرفيق الصياد علّه ينشله من ضياعه ويوقظه من هذيان استولى عليه دون أن يدري ما يقول أو يعي ما يعمل. وقال له، يا رفيقي، أنت تعلم أنك خالفت القانون، وعرضت نفسك للعقوبة وموردك الوحيد للضياع. باصطياد الأسماك في وقت ممنوع وبوسائل محرّمة من شأنها أن تهدّد ثروة البلاد التي هي أيضاً ثروتك إلى الانقراض والزوال وإلى حرمان الكثيرين من موارد رزقهم. لأن مواسم الأسماك تشكل جانباً مهماً من اقتصاد الأمة. وأن عملاً كهذا هو تصرف لا قومي اجتماعي تستحق من أجله عقوبة من حزبك لا معونته لك، فضلاً عما تستحقّه من عقوبة قانون الدولة اللبنانية يجب ألا تُعدّ ثانية إلى مخالفة كهذه وارجع إلينا بنتيجة المحاكمة.

أما إذا كنا صفوفاً متعاونة وقوة متراصة متماسكة تشدنا عصبية قومية اجتماعية واحدة ضرورية لنموننا وضمودنا وأساسية لانتصارنا، فإن

هذا التعاون بيننا الضامن لاستمرارنا وانتشارنا بمنعة وقوة هو تعاون قومي اجتماعي في سبيل التقدم بالأخلاق والمناقب ومن أجل الدفاع عن حقوق الوطن والمصلحة القومية التي هي لصيانة سيادة الأمة وتوطيد ثروتها وقوتها وكرامتها. فأين سلوكك يا رفيقي من هذه العقلية الأخلاقية القومية الاجتماعية ومن غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي وأهدافه.

الرابطة العائلية قسرية لا خيار فيها، أمّا الرابطة القومية فهي رابطة الحرية والوعي

إن أقدم رابطة عرفها الإنسان وتعامل على أساسها وبمقتضى عاداتها وتقاليدها هي رابطة الحسب و النسب، رابطة العرق والدم. لقد قادت البشرية وفعلت في كيانها أزمنة متلاحقة عريقة القدم. كما كانت العامل المؤلّد لكل صداقة والمحرّك لكل عداوة، يومها عاش الإنسان عشائر وقبائل متنقّلة لا تعرف الإقامة في مكان معين ولا الاستقرار في موطن محدد تتفاعل في بيئته الجماعات والأجيال المتعاقبة. ثم اتخذ الإنسان لنفسه وطناً يقطنه ويدأب على استثمار خيراتهِ والعيش من موارده فنشأت حينذاك بين الفئات العائلية القبلية المتجاورة في البيئة الواحدة رابطة جديدة غدت فيما بعد شديدة التأثير في استمرار الإنسان ومصيره خلال تلاحق الحقبات التاريخية.

وهذه الرابطة هي رابطة الأرض ركيزة تفاعل الإنسان مع الحياة والوجود. وصارت رابطة الدم تتناوب ورابطة الأرض في توجيه الإنسان وتعيين اتجاهاته وعلاقات جماعته بعضها مع بعض. وكان الصراع عنيفاً بين هاتين العصبيتين وما زال محتدماً في الشعوب البدائية المتخلفة. أما في الأمم والمجتمعات المتطورة فقد راحت العصبية العائلية أو العشائرية تتراجع وتنحل أمام تمكن العصبية القومية من لِمِ شتات أبناء الوطن الواحد على اختلاف أصولهم الدموية ومذاهبهم الدينية. وبذلك أصبحت الأمة مجتمعاً واحداً ومزيجاً قومياً مميزاً بخصائصه ومواهبه ومواقفه الموحدة أمام شؤون الحياة والكون والوجود. وأصبحت مصلحة الأمة الواحدة فوق كل المصالح الجزئية المعطلة لِحَمَّة وحدتها وتَطَوَّرَ تكاملها ونموها كأبي كائن حي له شخصية واحدة وقضية واحدة ومرام مادية روحية واحدة كلية التماسك والتفاعل.

نشوء الحزب السوري القومية الاجتماعي في مدينة طرطوس ومنطقتها بدأ قديماً منذ أوائل سنة 1935 وكان انتشاره بين أوساط الشعب عامة عميقاً فيما أحدثه من تغيير جذري في النفوس والعقليات. قد سجل الكثير من أعضائه المواقف الفعّالة لصرح البناء القومي دلّت على أهَمِّية وعميم لحقيقة أبعاد الحركة السورية القومية وعلى مدى صلابتهم في الصمود أمام المصاعب الحادة التي تواجههم. من أجل أن يزودوا عن العقلية الأخلاقية الجديدة التي يقدّمها الحزب للأمة السورية ولمصالحها ومصيرها. وهم يؤكّدون فعلها الأصيل في بناء الإنسان الجديد وقدرتها الجريئة على جعل الإنسان ينعق من مفاهيم العقلية السياسية البالية التي تقف في طريق الزحف القومي الاجتماعي مهما طالبت وتراكت على دروبها الصعوبات والنكبات.

من الأحداث الدالة على ثبات القوميين الاجتماعيين في حلبة الصراع والنضال أمام القوى المعارضة لمسيرة النهضة، هذه الأحداث هي مواقف صفوف الحزب إزاء تألب فئات الرجعة إبان المعارك الانتخابية مثلاً التي تحسب محكاً هاماً للعناد والإصرار في وجه المغريات والتهديدات التي كانت تتوالى وتتراحم حينذاك.

لقد رشح الحزب عن المقعد النيابي في طرطوس لعدة دورات انتخابية الرفيق بديع أنيس اسماعيل، وتمكن من إيصاله إلى النجاح. تدعّمه قوى الحزب وقوى الأصدقاء والمؤيدين. لقد حدث ذات مرة. في إحدى الدورات الانتخابية، أن أنيس اسماعيل، والد الرفيق بديع، وهو أحد أصدقاء الحزب البارزين في طرطوس قد فاجأنا بترشيح نفسه عن المقعد ذاته، دون أن يتشاور مع الحزب أو يتداول معه في الأمر ودون الإفصاح لأحد عن بواعث تقدّمه على ابنه وتجاوزه له. وقد كتم الأسباب حتى عن ابنه نفسه. وكان يبدو أن وراء هذه المفاجأة التي أرادها الصديق أنيس إسماعيل تأثيرٌ بعض الفئات التي لم يَرُقْ لها ما قد بلغه الحزب آنذاك من قوة وانتشار يهدّدان نفوذهم ومكانتهم المتوارثة.

أمام الأمر الواقع الذي فرضه على الحزب أحد أقرب أصدقائه ووالد مرشح ونائب قومي اجتماعي كان الموقف يتطلب الحزم والروية معاً. فما كان من الإدارة الحزبية بعد تدارس الموضوع من جميع جوانبه وبمنتهى السرعة إلا أن اتخذت قرارها القاضي بترشيح الرفيق بديع أنيس إسماعيل مقابل ترشيح والده بدون أي تعليق أو إيضاح. وقد أعلن الترشيح وبوشر العمل للمرشح القومي الاجتماعي بصورة طبيعية كالمعتاد. فكان لهذا القرار واستجابة الرفيق للتنفيذ وقعٌ أثار الدهشة والإعجاب من جهة كما ولّد عند البعض الاستغراب والتعجب. كيف يرشّح الابن نفسه ضد أبيه؟ وكيف يتصرّف الحزب بوضع الابن خصماً لأبيه؟ كيف الخروج من هذا الذي اعتُبر

مأزقاً لكل الأطراف المعنيّة؟ راح الجميع يترقّب ردود الفعل وتطوّراتها لذلك الموقف الطريف بقدر ما هو دقيق لكن ما لبث الصديق أنيس اسماعيل أن بادر إلى الاتصال بالمسؤول الحزبي المكلف بهذه المسؤولية وهو عميد الداخلية آنذاك الأمين إلياس جرجي قنيزح، وتمّت لقاءات عديدة بين المسؤول الحزبي والصديق أنيس إسماعيل بحضور الرفيق بديع دارت فيها شتى الأبحاث والأحاديث بصدد ترشيح الأب والابن للتنافس على مقعد نيابي واحد في طرطوس. وكان أهم ما تداولاه:

- هل يجوز يا حضرة العميد أن يتدخل الحزب ليفصل الابن عن

أبيه؟

• الحزب لا يفصل بين الاثنين بل يجمع بينهما بأن يكون مرشحه الرفيق بديع أنيس اسماعيل في هذه الدورة أيضاً كما كان النائب لأكثر من دورة سابقة. وهو في الوقت نفسه ولدك الأكبر. ناهيك عن كونك صديقاً للحزب وقد سبق وسلّمت بمثل هذا الترشيح وتحمّست له دائماً. فما الداعي لتصرفك اليوم المنافي للماضي؟ هل بطل أن يكون الرفيق بديع ابنك. أم أن الحزب قد تغيّر بنظرك؟

- لكني اليوم قد رشّحت نفسي وأعلنته للجميع فهل يليق أن أراجع

أمام ضغط ابني وبدعم من الحزب وتشجيعه ضدي؟

• ليست المسألة إعلان ترشيح قبل ترشيح ولست أمام ضغط إطلاقاً. فابنك يبقى بالنسبة إليك ولدى جميع الناس مثال الابن البار في كل الشؤون العائلية كما أنه يبرهن للملأ أنه مثال القومي الاجتماعي الوفي لقسمه الحريص على أن يكون لرفقائه قدوة تُحتذى. ويستحق منك أنت قبل سائر الناس التقدير والاعتزاز لأنه رجل عقيدة ورجل قضية كبرى من حقنا أن نفاخر به ونسانده بموقفه الشجاع.

- لكن ما رأي الحزب لو سمح «للرفيق» بديع بالانسحاب لمصلحة أبيه حفاظاً على سمعة وكرامة العائلة هذه المرة فقط ويكون بعد ذلك مرشح الجميع ندعمه كلنا نحن والحزب؟

• يا أبا بديع نحن لا نطلب دعم ابنك ورفيقنا في الترشيح ليغدو نائب الحزب فقط لمرة واحدة أو مرات محددة هو لنا بقدر ما هو لك ونحن له أيضاً ومنذ الساعة عليك أن تبايعه وتبارك له بالمركز الذي هو جدير به. يجب أن تعتزّ بغدك الذي هو بديع وتعتز بنا جميعاً ولا يجوز أن تطلب منا أي تراجع ليس لمصلحة أحد سوى الخصوم فأسرع يا أبا بديع وبارك ترشيح ابنك حالاً ولا تكن عثرة في وجه تمسكنا برفقته وبصداقتك أيضاً. إن حرصنا عليه في صفوفنا قومياً اجتماعياً مناصلاً لا يحق لك تعطيله. لا تحاول إقناعنا بالتخلي عنه لأن الرفيق بديع يعبر بموقفه الرائع عن أخلاق الحركة السورية القومية الاجتماعية دون أدنى إساءة إليك من جراء إصراره على البطولة المشرفة. لا بد أن تمسك بيده ليُثابر على هذا الصمود. إياك أن تدفعه إلى ما يعيبه من التخلي عن قسمه. حينذاك فقط يسيء بسلوكه اللا قومي إليك وينال بالفعل من كرامتك وسمعتك، خاصة، بنظر من يعرفون حقاً قيمة الشرف والحقيقة والمعتقد لحياة الإنسان، لا تدع يا سيد أنيس مجالاً لأيّ فريق ثالث أن يتداخل بينك وبين الحزب وأنت تعرف ماذا يعني تداخل أولئك الخصوم الذين لا يركن إليهم ولا يضمرون لك ولنا سوى الأذى والإساءة البالغة.

- فهمت يا حضرة العميد، أمهلني لأعود في الغد بالجواب الذي آمل أن يفي بالغرض. سأندبر الأمر بالتالي هي أحسن. لكن أرجو التريث حتى الغد دون أي تصعيد إعلامي للمعركة الانتخابية قبل أن نلتقي ثانية خلال أربع وعشرين ساعة على الأكثر.

وقبل أن يغادر أنيس اسماعيل الغرفة أطلق عبارة مدوية وهو يضحك وقد أثارت اهتمام الجميع ومرحهم: «يا جماعة، ما هذا الحزب الذي يلزمني أن أطلب منه تأييد ابني لي في الانتخابات»، ثم أعلن بخاطركم.. إلى اللقاء.

وفي اليوم التالي تمّ التفاهم بين الأب والابن على خوض معركة انتخابية للمرشح القومي الاجتماعي الرفيق بديع اسماعيل وقد تكّلت المعركة بالنجاح والانتصار المنشود.

هل يصحّ أن تكون السلطة فريقاً غريباً عنا مفروضاً علينا

عَوَدَتْنَا عهود متراكمة من الاستعمار والتسلط أن ننظر إلى السلطة نظرتنا إلى فريق غريب عنا. فريق لا يعبر عن أمانينا في الحياة ولا عن رغباتنا في الوجود. الفريق المتسلط الذي لا يعرف العدالة ولا يعمل على معالجة شؤوننا من منطلق وجداني إنساني، وبزاهة وأخلاق. إنما همه الأوحده التشنده على إنزال العقوبات الجائرة علينا ولأننا بتنا نخشى أصحاب السلطة، رحنا نتحاشاهم خوفاً ورهبة، والمفروض، غير ذلك أن يتحلّى رجل السلطة برحابة الصدر، والقدرة على الاستماع لمشاكل الناس ليصار إلى تصحيحها وتسيير الأمور نحو الأفضل ولكن السلطة عندنا هي طبقة فوقية مستغلة مستبده، طبقة تفرض وجودها علينا تنفيذاً لمآرب سواها. وبتنا لا نعرف كيفية التعامل معها بوضوح من أجل الخير العام والسلامة الاجتماعية التي هي أخيراً سلامتنا جميعاً والتي تقتضي تضافر قوانا قاطبة

وتفاعل كامل إمكانياتنا وطاقاتنا ومواهبنا. إن السلطة في الحقيقة والواقع لا بد أن تنبثق من إرادتنا. لقد وجدت لنا ومن أجل حقوقنا ومصالحنا القومية ليس إلا. وما عليها إلا أن تعبر عن أمانينا وتجسد توقنا إلى الرقي والتقدم. مهمتها الأساسية والمبدئية هي مهمة الطبيب والمربي القدوة. مهمتها أن تزودنا بالمعرفة والقوة وتمدنا بالمحبة والولاء وتسهر على راحتنا وتزودنا عن المكاره والمكائد المهدة لوحدتنا وتطورنا. السلطة بمفهومنا القومي الاجتماعي هي التعبير العملي الأفضل عن مدى ثقتنا بأنفسنا ووعينا مرامي قضيتنا في الحياة والوجود هي لنا بقدر ما نحن لها، هي قدوة في التحقيق لقوة إرادتنا ومضاء عزيمتنا مدى طريق الحياة الطويلة الشاقة. تتبدل الأفراد في السلطة، يأتي هؤلاء ويذهبون.

أما حقيقة السلطة فباقية لا تزول تزول مسؤولياتها الجسام، وتمارس مهماتها الدائمة لتأمين دورها العظيم في البناء والتنظيم، في الإرشاد والتوجيه، خارج هذه القيم والمناقب لا معنى للسلطة ولا لزوم لوجودها، إذ تصبح مجرد تسلط منحرف أثم، مجرد عصيان لإرادة الشعب وتمرد على كرامته وسيادته، لأنهما شعار كل سلطة شرعية ومبرر بقائها واستمرار أفرادها في سدة المسؤولية وسدة الاحترام والتقدير.

إبان غياب الزعيم القسري عن الوطن، واجهت القيادة الحزبية العديد من الانحرافات سواء في المفاهيم أو المواقف اللا قومية اجتماعية. وقد بلغت أشدها عندما طلب عميد الإذاعة وعميد الثقافة في آن واحد، فايز صايغ في جلسة مشتركة لمجلسي الأعلى والعمد أن يبحثنا موضوع إبقاء الزعيم في المغرب وعدم السعي لعودته إلينا. الأمر الذي سبق أن تشاور به الصايغ مع زميله في التأمير نعمة ثابت ومن كان يدور في فلكهما المنحرف عن جادة الصواب والأخلاق القومية الاجتماعية، لكنهما سرعان ما تراجعاً بحنكة ودهاء إزاء ما لقياهُ من استنكار حاد ورفض عنيف للطلب المذكور.

ثم تابعت القيادة الحزبية آنذاك السعي الحثيث لعودة الزعيم والإعداد الدؤوب ليوم استقباله الميمون.

عاد الزعيم إلى الوطن في الثاني من آذار سنة 1947 وكان قد أُحيط علماً وهو في المغرب ببعض حالات الانحراف التي حدثت أثناء غيابه، غير أننا جميعاً أحجمنا وقتذاك عن إبلاغه عمّا بدر من فايز صايغ بخصوص محاولته لإقناع مجلسي الأعلى والعمد بالإقلاع عن الاهتمام بعودة الزعيم إلى قيادة الحزب في الوطن وضرورة إبقائه خارج البلاد ما أمكن ذلك أو ما استطاع المركز فعله بهذا الشأن. كتمنا هذا الموضوع عن الزعيم ظناً منا أن فايز صايغ هو إمكانية ثمينة وأنه من الأفضل الإبقاء عليها في صفوف الحزب بطريقه إخفاء الحقيقة عن الزعيم.

فما كان من الزعيم إلا أن اعتمده في كثير من المهمات الحزبية الهامة وانتدبه للأعمال التي تقتضي صفات قومية اجتماعية ممتازة أو بالأحرى صفات متفوقة عالية، على أساس أنه إمكانية حزبية جديرة بكامل الثقة والتقدير من قبل الزعيم! من هذه المهمات الخطيرة التي عهد بها إليه إفاده وحده بصفة مندوب للزعيم في جولة حزبية إلى فروع إفريقيا. الغرض منها وضع جموع القوميين الاجتماعيين والأصدقاء أمام مسؤولياتهم التاريخية إبان مطاردة الحكومة اللبنانية للزعيم إثر عودته من المغرب وبغية استنفار روحيتهم القومية الاجتماعية في تلك المناسبة الحرجة من حياة الحزب والأمة، كي يجودوا بالتضحيات المالية وغير المالية التي تليق بجنود النهضة المناضلين إبان تصاعد النضال.

قام مندوب الزعيم إلى إفريقيا، عميد الإذاعة والثقافة فايز صايغ بجولة واسعة في جميع المناطق الإفريقية. ألقى فيها الخطب الكثيرة داعياً إلى عقيدة غير عقيدة الحزب السوري القومي الاجتماعي استقاها من أفكار

معلمه في مفهوم الفردية «كركيغارد» الذي يرى أن المجتمع وسيلة للفرد ليس إلا. وقد جمع خلال جولته أموالاً تبرّع بها القوميون الاجتماعيون وأنصارهم للحزب من مختلف فروع إفريقيا. لكنّه بعد عودته لم يؤدّ أيّ حساب عن أعماله في الجولة وراح يثير مسألة الحرية الشخصية في نطاق الحزب ويطعن بسلامة قواعد ارتباط الأعضاء بالحزب وخاصة في مدى ثقتهم بالزعيم وتسليمهم بصلاحياته الدستورية المطلقة.

عندما افتضح أمر تآمر فايز صايغ على العقيدة والنظام وثبت سوء تصرفه بأموال الحزب وتعاليمه، آنذاك، أطلعنا الزعيم على ما سبق له وقام به من طعن وتآمره على عودته إلى الوطن، فوجّم الزعيم أمام سلوك فايز صايغ وفساد إيمانه بالنهضة والزعيم. وتألّم كثيراً أن تصل «إمكانية» في الحزب إلى هذا القدر من استغلال ثقة الزعيم بها أسوأ استغلال ومن إساءة استعمال المسؤولية الحزبية بهذه الصورة المؤسفة المنكرة. وكان له معنا درس لن ننساه. يصلح أن يكون طليعة الدروس المسلكية النظامية لكل قومي اجتماعي ومن أهمها روعة ودقة. «لقد اقترفتم بإخفاء الحقيقة عن السلطة الحزبية، أي عن الحزب، أخطاء جسيمة هي:

أولاً: الحنث بالقسم في فقرته «وأن أسهر على مصلحة الحزب وأويد زعيمه وسلطته».

ثانياً: التفرد بالاحتفاظ بمعلومات ليست ملكاً شخصياً لكم. ممّا حرم السلطة الحزبية صلاحية البتّ في أمر خطير واتّخاذ التدابير اللازمة لحماية الحزب من المرتكبين المندسّين بيننا.

ثالثاً: إن كتمان المعلومات المتعلقة بالسلامة العامة يشكّل جرماً تعاقب عليه جميع القوانين في العالم ويُعتبر مؤازرة، ولو غير مباشرة، لفعل المتآمرين على سلامة أمن الدولة وسيادتها.

رابعاً: اعتبار أنفسكم أشد حرصاً على مصلحة الحزب من المؤسسة وأعمق وعياً منها لما هو خير القضية وسلامتها.

خامساً: وضع قوميتكم موضع الشك في حال كتمان سرّ يتعلق بأحدكم ربما بعامل علاقتكم الشخصية معه ثم إعلانه متأخراً بعامل العلاقة الشخصية أيضاً لا من أجل مصلحة قضية الأمة التي يجب أن تظلّ فوق كل مصلحة وكل علاقة أو قرابة أو عاطفة أياً كان نوعها وشأنها لأشخاصكم. عندئذٍ يضاهي إعلان الحقيقة كتمانها وإخفاءها من حيث الانحراف والارتكاب.

سادساً: إن الأعمال ليست لدينا بالنيّات غير أن قصور تصوّركم عما أسأتم به للقضية التي تساوي وجودنا، قصوركم عن تفهم الحزب وكيفية قيامكم بواجباتكم تجاهه بفتنة وحرص فضلاً عن خلوّ سلوككم من أي سوء نيّة أو سوء غرض، لهذه الأسباب مجتمعة أكتفي الآن بهذه العقوبة الوجدانية النفسية».

أجل ليس في الرجوع إلى المؤسسات الحزبية بأي شأن أو شكوى ما يدعى وشاية أو نميمة، بل يعني هذا دقّة التمسك بنظام الحزب القائم على المؤسسات لا على مجموعات من الأفراد أو الرفقاء.

هل الإنسان للدين أم الدين للإنسان؟

أكثر ما يشغل بال المتديّنين خوفهم على الدين ونصوصه لئلا ينالها أدنى أذى أو تحريف من قبل رجال العلم والمفكرين عامة. كأن العلم مجرد بدعة يحمل في طياته الإلحاد. أو جدته زمرة من الأبالسة الأشقياء بُغية النيل من الدين ويقصد الإساءة إلى الإيمان وأصحابه. أو كأن موهبة العقل تختلف عن سائر مواهب الإنسان. وجودها كان عبثاً أو للعبث بمقدسات الأديان ليس إلا.

الإنسان بطبيعته البشرية كائن عاقل لديه غريزة وحب الكشف عن أسرار الوجود، بإطلاق العنان لتأملاته ليبحث في اللا مرئيات، يعلّل أسباب هذه الظواهر بالعقل ويحلل خصائصها الدقيقة ليخلص إلى النتائج التي تؤهّله إلى إحراز المزيد من المعرفة ومن القدرة على معالجة النتائج بالمعرفة والإرادة، كي يبلغ ذروة التفاعل والتجاوب مع الحياة والكون والوجود، كما يسحب خياله وتصوراتهِ عبر الوجود الراهن إلى ما وراء الوجود عساه

يستحضر المجهول إلى عالم الشهادة والواقع فتتسع آفاق معرفته وتنمو طاقاته على الاستشراق والاستطلاع إن قدرة الإنسان على التوصل للمعرفة، وإخضاعها لإمكاناته الإنسانية تتكامل كلها وتتضافر بالتحام صميم أصيل لتجعل من الإنسان وحده سيّد المخلوقات على صورة الله ومثاله بالعقل والتوق الدؤوب للإحاطة بأبعاد اللامتناهي.

الإنسان العاقل المدرك لا بدّ أن يكون مؤمناً بالحق والخير والقيم العليا. ساعياً إلى إرواء تعطش العقل والنفوس بكل ما هو أفضل وأسمى وأقوى. المجتمع هو الكائن الحي الباقي، الكائن السرمدي القادر على الخلق والإبداع، مدى تعاقب الأجيال واستمرارها بالنمو والتطور هذه سُنّة الدين ودين كل رسالة صحيحة سليمة صالحة للحياة.

ما أن برز الحزب السوري القومي الاجتماعي إلى الوجود حتى هبّ فريق المسحوقين تحت كابوس المخاوف التي تتأكل بصائرهم وتعطلّ في نفوسهم حقيقة الإيمان بالمحبة والفضيلة، هبّ فاقدوا الإيمان هؤلاء ليرموا الحزب بكل فرية باطلة مُثَمِّمِينَ بأنه ضد الدين. لأن الحزب يبغى تحرير الأمة من التعصّب الطائفي وهمّه تحرير المواطن من المفهوم السائد بجعل الدين مجرد طقوس وتعاويد، يهيمن بها رجال الدين المتزمتون على عقول الناس، إذ يحسبون أنفسهم المصدر الأوحّد للدين والأوصياء على جماعة المؤمنين وملاذهم الأخير من حماة التعصّب الحاقد الكافر بالأخلاق والمثل.

همّ المتزمتين إثارة القلق وبثّ المخاوف بين أبناء الوطن الواحد من أجل إشعال الفتن وإشغال الشعب بما يدمره ويفرقه بتمسّكه بترهاتهم وأباطيلهم الآثمة.

إبان جولة الزعيم إلى الجمهورية الشامية خلال شهر تشرين الثاني سنة 1948 توقّف الزعيم لمُدّة يومين في مدينة حماه، حيث كان للحزب

منقذية فاعلة تضمّ نخبة من شبان البلدة وتستقطب اهتمام خيرة الرجال والعائلات العاملة في سياق الفكر والاجتماع. وقد كثيرون من جميع الفئات والفعاليات للتعرف إلى الزعيم والسلام عليه. وقد عقدت له معهم العديد من الندوات والاجتماعات الموسعة، تداولت فيها شتى المواضيع والأبحاث حول الأمة والحزب، وتناولت أيضاً معظم الاتهامات التي تفسّدت بين الناس منذ إعلان وجود الحزب سنة 1935 لتعمل على تأويل مبادئه وأهدافه على هواها. تلك الاتهامات التي ألصقتها الأجنبي المستعمر بالحزب. يؤازره أعوانه وعملاؤه الضالعين بالتسكّع ومن قطعان الأغبياء النفعيين الذين يسهل الاستيلاء على عقولهم وتضليل نفوسهم وجرحهم صاغرين إلى التهلكة.

كان من جملة الوافدين إلى الزعيم، المأخوذين بالإشاعات المشوّهة لحقيقة الحزب ومراميه القومية، جماعة من «الإخوان المسلمين» جاءت لتطمئن إلى حقيقة موقف الحزب من الدين ومن الرسائل السماوية عامّة. سأل أحد الإخوان المسلمين الزعيم بشيء من التردد والتلعثم، وبحضور جمع غفير من الناس، وبعد مضي ما يقرب من الساعة والنصف على شرح تناوله الزعيم حول مفهوم القومية الاجتماعية: ما هو موقف الحزب السوري القومي الاجتماعي من الأديان والإيمان الديني؟

أجاب الزعيم بهدوءه المعهود وتأنّيه اللبق المشهود في جميع المناسبات والحالات: «نحن جماعة إيمان بالدين الحقيقي القائم على حقيقة الحق البناءة بالمحبة والفضيلة، العاملة بالإخاء وبالبرّ والتقوى لخير الإنسان. نحن نقدر المؤمنين الذين يتقون الحزبيات الدينية ويدركون حقيقة دورهم في توحيد النفوس والعقول وجمع القلوب من أجل مطلب السيادة والكرامة، مطلب الحق والخير والجمال لحياة المجتمع وازدهاره الذي ينشده الجميع.

نحن نترك لأعضاء الحزب حرية المعتقد باتخاذهم أيّ دين سماوي إيماناً لهم. يمارسونه كما يشاؤون. ونطلب منهم التخلّق بأخلاق الدين ومناقبه الداعية إلى المحبة والفضيلة السمحاء. لأن الدين، كما نفهمه، هو بالأساس عامل توحيد وتعاون نبيل، لا عامل تفرقة وتباغض بين الناس. هو يجمع الإنسان إلى الإنسان بممارسة المثل والقيم التي تعلّم العطاء وتلقّن أخلاق البناء والتقدم. لا يجوز لنا أن نتخذ الدين أداة تعصب وإكراه لتفتن بين الناس، وتفتك بإنسانية الإنسان ومناقبه السامية، كما يفعل جماعة ممن يسمون أنفسهم رجال دين وتقوى، هؤلاء بعقولهم الملتوية ونفوسهم الملوثة يجعلون الدين معولاً للهدم وموقداً للحرق والإبادة الجانية التي تجتث جذور الدين، وتستأصل مآثر الرسائل الدينية، وتشوه كل معانيها ومراميها الخيرة الرائعة الأغراض.

كل ما نصنعه نحن لهذا الشعب الممزق القوى، المفتت العزائم؛ هو إعادة بنائه مجتمعاً واحداً. أمة واحدة موحدة الإيمان والإرادة، موحدة النفوس والصفوف، موحدة الرؤية والموقف من جميع الفضائل والقيم والمثل، ومن جميع الشرور والمخازي والآثام، التي تهدد وجوده وتقتلع من أعماقه كل معاني الإيمان ومطالب الدين الصحيح «ليس من سوري إلا وهو مسلم رب العالمين، فاتقوا الله، واتركوا تأويل الحزبيات الدينية العمياء؛ فقد جمعنا الإسلام؛ ممّا من أسلم لله بالإنجيل، وممّا من أسلم لله بالقرآن، وممّا من أسلم لله بالحكمة. قد جمعنا الإسلام وأيد كوننا أمة واحدة، فليس لنا من عدوّ يقاتلنا في ديننا وحقنا ووطننا سوى اليهود».

أفاض الزعيم في تشريح نظرة النهضة إلى الدين وموقفها من رجال الدين والمتديّنين بالترتّم والحقّد، وأفاض في كشف جوانب مهمة لأضرار الطائفية على جوهر الدين وسلامة المجتمع. ثم توجه إلى وفد الإخوان المسلمين أمام جمهور الحاضرين: ما رأيكم برسالة الدين في المبدأ، هل

الدين للإنسان أم الإنسان للدين؟ فراحوا يجيبون على السؤال باهتمام بالغ. لكن سرعان ما توزعت الآراء بينهم وتباينت وجهات النظر وتضاربت الاجتهادات حول الموضوع، حتى التفت أحدهم الذي كان أقلهم كلاماً وأقلهم حماساً إلى الزعيم ليطلب إليه إبداء رأيه في الأمر والتفضّل بالإجابة على السؤال الذي طرحه على الإخوان.

أوجز الزعيم الجواب بقوله: لا شك أن الدين للإنسان الذي يعمل بوصاياهِ وتعاليمه التي أوجدت فقط لتكون لخير الإنسان، ومن أجل رفاهِهِ وسعادته، سواء في هذه الدنيا أو أي دنيا في عالم الغيب. «الدين المعاملة الخلق كلهم عيال الله. وإن أكرمكم عند الله أنفعكم لعِيالِهِ». «أحبوا بعضكم بعضاً تأكلون خيرات الأرض». الدين وسيلة لتشريف الحياة.

نحن إذن ضدّ من لا يفهم معنى الدين، ضدّ كلّ من يريد أن يجعل من نفسه مرجعاً أخيراً مرجعاً وحيداً، يحتكر بواسطته معرفة الدين، وتفهم أغراضه العليا. هؤلاء المتألهون لا دين لهم غير فرديّتهم، لذلك نحن ندينهم بالتمرد على حقيقة الدين والخروج على حقيقة تعاليمه السامية.

بينما تُضاعَف العناية بالمتخلفين قومياً يستمرُّ العمل كالمعتاد لتدعيم بناء الأصحاء

كان العمل الحزبي على أشدّه في مختلف المدن الداخلية الشامية في السنوات بين 1946- 1949 وكانت منفذية حمص بالذات من أهم مراكز النشاط والانطلاق للحزب، إبان تلك الفترة. ومما كان يُذكي الفعالية الحزبية هناك، تكاثر عدد الأحزاب، من جهة، واستمرار تصادمها، من جهة ثانية، في ساحة التسابق لكسب التّفاف الرأى العام حولها، خلال سنة 1948 وقع في إحدى مديريات مدينة حمص حادث داخلي بين عدد من الرفقاء أدى إلى حدوث تصدّع، ثم تفاقم فيما بعد. بين صفوف رفقاء المديرية عينها، فأشغل وضع المديرية أجهزة المركز برمتها مدّة شاقة وغير قصيرة. فاتّخذت حياله مختلف التدابير وشقّى الوسائل الحزبية بُغية إعادة الرفقاء إلى حالتهم الطبيعية من الانضباط والتلبية النظامية. وبينما مشكلة المديرية المذكورة تزداد تعقيداً وتبليلاً بين الأعضاء، كانت تنهال على المديرية طلبات الانتماء من المواطنين الراغبين في دخول الحزب، لأن قوة الحزب عامّة وحسن

سمعته لدى الرأي العام، كانت تجعله مركز جذب وإقبال الجميع، لكنّ الحالة الداخلية للمديرية لم تكن تدعو إلى الارتياح، ولا تشجّع على استقبال المواطنين طالبيّ الدخول إلى الحزب، الأمر الذي أوقع عمدة الداخلية في حيرة وارتباك من أجل الوصول إلى التوفيق بين الحالين.

لذلك لم يكن من الرجوع إلى الزعيم بدّ لحل المشكلة الناشئة والناشبة في جسم المديرية، بالرغم من تراكم أشغاله وإلحاح مهماته تلك الأثناء. فرفعتُ، بوصفي عميداً للداخلية تقريراً مفصلاً بالموضوع الشائك. ورحت في تقريريّ أتساءل عما يمكن عمله بشأنه، دون أن يتخلّل عرضي للمسألة أي اقتراح عملي أو وجهة نظر تساعد الخروج من الأزمة التي كنت أعاني منها الأمرين دون جدوى.

ما هو العمل الذي يفضي إلى استيعاب طالبي الانتماء إلى الحزب وإنقاذ المديرية، بالوقت نفسه، من التفكك المهديّ لوجودها كوحدة نظامية؟

تسلّم الزعيم تقرير عميد الداخلية. فكان التقرير كأنه وصف لكارثة، أو هو بمثابة استغاثة ملهوف يوشك على الغرق، يرسلها قبيل أن تبتلعه أعماق اللجة الظالمة. ثم دعاني إلى مكتبه للاجتماع به بعد ساعتين من حينه، على أن أصطحب معي ملف المديرية مع بيان خطي بجميع الخطوات التي كنت قد قمت بها من أجل معالجة الموضوع المطلوب حله.

وقابلته في الموعد أحمل إليه جميع الأوراق والمستندات التي يود الاطلاع عليها. فأخذ يطلع التقارير الواردة إلى العمدة بشأن المديرية، مع ما قامت به منقذية حمص من تدابير ومعالجات إزاء تلك المديرية التابعة لها. ثم اطلع على ماهية الإجراءات التي قامت بها العمدة بدورها. وقد تركّز اهتمامه على ما اعتُمد لمعالجة مسألة المواطنين طالبي الانتماء إلى الحزب،

عندئذٍ بادر الزعيم إلى توجيه أسئلته أو تساؤلاته إلى العميد طالباً الإجابة عنها: هل يفصل المخالفون عن جسم الحزب، وهم أكثرية أعضاء المديرية وتحلّ المديرية كي يُصار إلى إلحاق بقية أعضائها بمديرية أخرى؟

هل تشكّل المديرية من الأعضاء الصالحين مضافاً إليهم الأعضاء الجدد في العي نفسه بعد أن يتمّ فصل غير الصالحين نهائياً؟

هل يسمح بإيقاف الإدخال إلى الحزب، ولو مؤقتاً، ريثما ننهي تداييرنا الإدارية داخل المديرية؟ أم يفسح المجال لإطلاع العضو الجديد على أوضاع المديرية المتردّية؟ هل تؤمّن هذه التدايير أو بعضها إبقاء مشكلة المديرية سرّاً لا يتعدّى معرفة أعضاء المديرية أنفسهم حرصاً على هيبة الحزب ومعنوياته في الخارج وداخل الصفوف، مع تأمين دخول الحزب للمستحقّين من المواطنين دون إبطاء؟

كيف سيواجه هؤلاء الجدد الوضع الرّزي القائم في المديرية، وكم سيصيب روحيتهم المتوتّبة من أذى إزاء ذلك؟

كيف العمل إذن للخروج بالمديرية من حالتها الشاذة بأقلّ أضرار لا تعيق مسيرة العمل الحزبي النشطة في حمص، خاصة والصراع مع بقية الفئات والأحزاب على أشدّه؟

امتنع الزعيم عن تقديم الإجابة عن الأسئلة التي توجه بها إلى عميد الداخلية، تاركاً له التأمل بها، والسعي بنفسه لإيجاد الحلول اللازمة، والاهتداء إلى المعالجة الناجعة الضرورية. ولم يشأ الزعيم أن يسهّل مهمة العميد ويختصر الطريق عليه بتلقيه الحل المطلوب وتحميله إياه جاهزاً للتطبيق الهين، إنما تداول مع العميد جميع الحلول التي تخطر على البال، وراح يُنقّحها ويصوّبها متوجّهاً بها نحو الأفضل والأجدي إلى أن حصلت وكنتيجة للحوار الذي أخذ بها أخيراً ووُضعت موضع التنفيذ وهي:

- يقبل المواطنون الصالحون للانتماء إلى الحزب أولاً، ثم تشكّل منهم وحدة حزبية ويظلون إلى حين، أعضاء سرّيين عن الآخرين.

- بينما تستمر معالجة أوضاع المديرية التي تعاني مشكلة داخلية، ينقل منها تبعاً للأعضاء الذين يصلحون إلى الوحدة السريّة المكوّنة من الأعضاء الجدد ويمارسون معاً واجباتهم الحزبية.

- إذا كان لا بدّ من فصل من يستعصي إصلاحهم فيتم ذلك، في حين تكون الوحدة الجديدة قد أنشئت بمعزل عنهم، وضمتّ الجدد مع نخبة من الرفقاء القدماء، هكذا تنقل الحجارات الصالحة لإقامة البناء الصالح وتتمّ سريعاً عملية هدم الفاسد.

بهذه الطريقة الصحيحة نكون كأننا نقلنا المديرية الواحدة تدريجياً من مكان إلى آخر مع التخلّي عن غير الأصحاء، ويتواصل العمل الداخلي والعمل بين المواطنين على كلّ الأصعدة النظامية.

خط الفكر السوري حقيقة بارزة في تاريخ الفكر

سعاده

قام الزعيم بجولة إلى فروع الحزب في الجمهورية الشامية استغرقت شهراً ونيف سنة 1948 وقد دعي إبان هذه الزيارة مراراً للالتقاء بمواطنين في بيوت الرفقاء، فضلاً عن عقد الاجتماعات العامة والندوات الثقافية وإلقاء المحاضرات. في دمشق دعاه أحد الرفقاء للقاء مع عدد من الشبان المثقفين لا يتجاوزون الثلاثين شخصاً عدا الرفقاء الذين أتوا بصحبة الزعيم.

تخلل هذا اللقاء أبحاث متعدّدة عن مبادئ الحزب وأهدافه وعن مواقفه التاريخية التي تدل على مدى تطبيق الحزب للمبادئ والعمل الدؤوب على ترسيخها في صفوف الشعب. وقد توقّف الزعيم عند شرح مراحل حرب النهضة ضد الرجعة والرجعيين وما يشكل هؤلاء من عثرة وعقبة تجاه مسيرة الأمة وانطلاقة النهضة، في التحرير والبناء، ثم خصص بعض الوقت للإجابة على الأسئلة. وكان من أهمها ما يتعلق بشطر الأمة المغترب في شتى أنحاء المعمورة وأهمية الدور المنوط بالمغتربين وما يترتب عليهم للإسهام في دعم النهضة والبذل المعنوي والمالي لإنجاحها وانتشارها في

الوطن وعبر الحدود. خاصّة وللحزب في مختلف المغتربات ركائز أساسية من رفقاء وأصدقاء عاملين بجد ونشاط في صفوف النهضة.

استمر الاجتماع حتى ساعة متأخرة من الليل، ثم أخذ المدعوون ينصرفون تبعاً ولم يبق مع الزعيم سوى القوميّين الاجتماعيّين ومواطن واحد هو محام شاب وموظف مدني في وزارة الدفاع الشامية آنذاك. ومن أقرباء الرفيق صاحب الدعوة، وبينما كنا نتناول شيئاً من الفاكهة والمرطبات متحلّقين حول الزعيم، توجه المواطن الأستاذ خبّاز بسؤال إلى حضرة الزعيم «لقد ورد في كلامك أكثر من مرة ذكر للفلسفة السورية وخطّ الفكر السوري من دون إعطاء الإيضاح عن هذه النقطة. فهل هناك فلسفة سورية ذات خصائص مميزة وخطّ للفكر السوري له مزاياه ومعالمه؟» أجابه الزعيم أجل للفكر السوري خطّ جليّ واضح يميّزه عن سواه في الفلسفة والفن والعلم وفي شتى شؤون الفكر. وليس الآن مجال الإفاضة في بحث هذه المسألة المهمة وإبراز دقائقها والشواهد على تفوقها وعراقه أصالتها بالنسبة إلى سائر الحضارات ومفاهيمها لدى الأمم جمعاء. واني أوجز لك ما يلي:

أولاً: تميّز الفكر السوري إجمالاً بالنظرة الموضوعية العملية إلى شؤون الحياة والوجود في محاولات الفكر السوري الكشف عن أصول المعطيات التي تشتمل عليها هذه النظرة، كابتكار الأرقام الحسابية والحروف الأبجدية، مثلاً، وإقامة الإنشاءات العمرانية من مدنية وعسكرية ودينية وتنظيم القوانين والتشريعات العامة والخاصة لجلاء أسس العلاقات بين أفراد الشعب وبينهم وبين المؤسسات العامة الحكومية منها والشعبية.

ثانياً: الانكباب على استخدام معطيات البيئة الطبيعية الخام في حقل الريّ كفتح الترع وإقامة السدود، وحقل الزراعة والهندسة والتجارة وما

يَتَّصِلُ بهذه المشاريع من أصول المعاملات والعقول والعلاقات الداخلية والخارجية من الوجهة الاقتصادية المالية.

ثالثاً: إشغال الفكر بالاهتمام الفني في طبيعة البيئة الجمالية وفي ألوانها وألحانها وموحيات ما فيها من منابع الروعة والجمال سواء في عالم النبات والحيوان والطير والجماد، أنتج الفكر السوري أروع الملاحم الشعرية والأساطير الدقيقة الوصف، البالغة الدقة والإشراق في تدقق الخيال ورقّة المشاعر وتألّق التأمّلات الفكرية في رحاب الوجود وما ينطوي عليه من غرائب الكنوز العجيبة.

رابعاً: الالتفات العميق إلى أهمية الرحلات الكبرى حول القارات البعيدة لكشف المناطق الجديدة واستثمارها الاقتصادي والعمراني والإفادة من أهمية مواقعها العسكرية عملياً وفنياً سواء أثناء الحروب الكبرى أو إبان الانتفاضات الداخلية التي كانت تتعرض لها السلطة الحاكمة. منذ أغرق عصور التاريخ بنى السوري القلاع والحصون وصنع أدوات القتال ووضع الخطط الرائعة للحروب، وما تزال هذه مراجع قيمة للفن الحربي حتى يومنا هذا. وقد كانت الجيوش السورية بتنظيمها وانضباطها وتجهيزاتها مضرب المثل ومحطّ إعجاب العالم القديم منذ فتوحات بابل وأشور وصيدا وصور وقرطاجنة. وقد قامت القوى السورية بالفتوحات الكبرى وعلمت العالم القديم والحديث كيف تُسّاس الأمم وتحكم الشعوب وتستثمر موارد الطبيعة وثرواتها إبان السلم وأثناء الحروب، ناهيك عن صناعة السفن وإنشاء المدن البحرية في أدق المواقع الاستراتيجية من الناحية الاقتصادية، التجارية والناحية العسكرية القتالية.

خامساً: وقد سجّل تراث الفكر السوري تفوّقاً بارزاً في صلابة الصمود والعناد بإخضاع الشعوب التي كانت تحاول الاعتداء على مصالح الأمة

ومواردها أو على أمنها وسلامتها. وكيف كانت سورية تعلم تلك الشعوب وتتعهد تطويرها وإنماءها. وبين أيدينا للآن، في متاحفنا وأثارنا، ومتاحف كثيرة لدى معظم أمم العالم ما يدل على تفوق الفكر السوري في الفنون والفلسفة والعلوم والتي ما تزال أسسها خالدة باقية لتشهد على مرور الزمان للأصالة السورية وخصب قدرتها على الإبداع والعطاء والبناء.

ما كاد الزعيم يصل إلى هذه النقاط من البحث في تبيان ما أسماه خط الفكر السوري وماهية الفلسفة السورية عبر عهود التاريخ القديم حتى تنقّس الأستاذ خبّاز الصعداء كمن أفلت من كابوس محكم الضغط على عنقه. ثم بادر إلى التعليق على حديث الزعيم وقال «هل يعقل أن يحدث كل هذا الفكري بلادنا؟ أنا لم أسمع شيئاً عن خطّ الفكر السوري والفلسفة السورية قبل اليوم» كأنّ حدود معرفة الأستاذ خبّاز ودراساته هي حدود الحقيقة وتحديد لصحّة الوقائع وقيمتها ونطاق الصواب في تأريخ الفكر.

عند ذلك خطر لي سؤال مهم، ورأيت مناسبة توجيهه إلى الأستاذ خباز، فالتفت إلى حضرة الزعيم أستأذنه بتوجيه السؤال، ولدى موافقته قلت للأستاذ خباز «هلاً عرفت والدي يا أستاذ، أو عرفت عنه أي شيء؟» فأجاب بالنفي مؤكداً بكل جدية عدم معرفته له. وفي الحال رفعت صوتي مُعلنًا، «بما أنك يا أستاذ لا تعرف والدي فأنا إذن مولود بصورة عجيبة من دون والد. ولأنك أيضاً لا تعرف والدتي بالتأكيد فأنا كذلك من دون أم». فتأمل كيف يكون هذا الأمر معقولاً وقابلًا للتصديق وهل تفوق غرابته وجود خطّ للفكر السوري.

ضحك الزعيم بملء رتتيه بعد أن كاد يضيق ذرعاً من تفوق الأستاذ خبّاز بمادة الغباء والسخافة وقال له «كان لازم نبحت معك «هيك» على طريقة الأمين إلياس».

هالكِرسِي ما بْتُخْصُ إِيلاس جِرجِي ابن قِنيزِح، بْتُخْصُ حِضْرَة عَميدِ الداخِليَة

سعادَه

ليست الذاكرة مستودعاً يخترن فيه المرء مخبآت الأُمس بإرادته ليعود إليها ساعة يشاء ولدى حاجته إلى مَدَخراتها. ليست الأرشيف المجهز بالمحفوظات والوثائق يستنطقها الباحث من أجل الحصول على المراجع اللازمة لمعالجة موضوع مطروح. الذاكرة طاقة نفسية عقلية كالخيال والعاطفة والنباهة والشجاعة وسواها من خصائص النفس الإنسانية. تمتاز بمخزونها من الأفكار والصور والمشاعر والميول وبمرونتها في تلبية ما يطلب منها أو ما تقدمه هي من تلقائها. وتعبّر بطبيعتها عن حاجات النفس وعن عميق ميولها واستعداداتها الفنية الفكرية وعن صميم مفاهيمها المناقبية الأخلاقية لأنها تلتقط ما يتجاوب مع مؤهلات الإنسان ومواهبه في تعامله مع الأفكار والأشياء والناس. وهي لذلك تدلّ على الإنسان نفسه، على نظرتة إلى الحياة والإنسان والوجود، على أسس مفاهيمه في شتى شؤون الفكر والسلوك، وعلى منطلق مواقفه من الأعمال والأحداث والإنسان.

ذاكرة ذوي النفوس الكبيرة لا تحفظ الذكريات عينها التي تدخرها ذاكرة ذوي النفوس المجرمة الدنيئة. بل تختلف عنها كلياً كاختلاف مضامين كل منهما النفسية المناقبية. لكلٍ ذاكرته وذكرياته كما أن لكلٍ مقدراته وإمكانياته المادية النفسية يتداولها عفويّاً في العمل والتعامل، في التفكير والتأمل، في تصوراته وأمانيه وأشواقه وفي مخاوفه ومخازيه. يسعُ الإنسان تحليل مستحضرات ذاكرته وتفهم مضامينها وأبعادها التي تقدمها له كما يُمكنه استخدام مواردها ومحاصيلها في مجالات الغرس والإِنماء والتطوير وما عليه إلا أن يَسْتَنْبِتَ خصوبتها.

قام الزعيم بجولته إلى الجمهورية الشامية بين الثالث من تشرين الثاني إلى العاشر من كانون الأول سنة 1948 وكانت مرافقتي له فرصة رائعة أنارت أمامي الكثير من سبل المعرفة والاختبار الثمين. تعلّمت من تلك الرحلة أشياء جديدة برمتها بالنسبة لمعلوماتي السابقة، وصحّح لدي الكثير مما كنت أظنّه معرفة صحيحة قبل ذلك، كما تلقّنت الدروس العملية في السلوك والتعامل المطابق لمفاهيم النهضة وتقاليدها. من هذه الدروس ما كنت أجهله تماماً ومنها ما كنت أهمل الاهتمام به لاعتقادي أنه قليل الأهمية لا يستوجب دقة الاعتناء والممارسة.

حين زار الزعيم مدينة طرطوس، مكان مولدي، توافد إليه جمع غفير من المواطنين بينهم شخصيات سياسية مما يقال أنها مرموقة، قاصدين التعرف إليه والاطلاع على آرائه خاصة حول شؤون الساعة. وأهمّها صدور قرار تقسيم الجنوب السوري، فلسطين. وكان هنيّ آنذاك. وأنا في طرطوس، أن أعتزّ بزعيبي أمام أهل بلدي وأفاخر بنفسي كعميد للدخالية برفقتي له في الحل والترحال، كما أعتزّ بأبناء بلدي إزاء زعيبي. وقد حضر لزيارة الزعيم، ذات يوم نائب طرطوس رياض بك عبد الرزاق وهو قومي سابق تخلى عن الحزب متوهماً أنه ضد العروبة منذ أواخر سنة 1936 وكان

برفقته رهط من وجهاء البلدة ممن أعرفهم جيداً وأعرف ميولهم السياسية ومواقفهم من الحزب، منهم الخصوم ومنهم المعتدلون وهم بالطبع من أنصار النائب. ما أن تقدم رياض عبد الرزاق إلى مصافحة الزعيم حتى سارعت إلى التخلي عن مقعدي إلى يمين الزعيم وأجلسته مكاني. وكنت أقصد التعبير عن عميق اهتمامي اللائق به وكي أتيح له مجال التحدث إلى حضرة الزعيم والتداول معه ملياً بما يروق له عن كذب، علّه يعود إلى صوابه القومي الاجتماعي بتأثير شخصية الزعيم والاستماع إلى أبحاثه.

بعد انقضاء النهار وانصراف الناس جميعهم دعاني الزعيم إلى غرفته. وكثيراً ما كانت تحدث مثل هذه الخلوة ليستوضحني الزعيم بعض المعلومات بوصفي عميداً للداخلية، أو ليكلفني بمهمة معينة تقتضي سرعة التنفيذ أو ليوجه إليّ ملاحظة اقتضتها تصرفات خاطئة بدرت مني. وكانت آنذاك لإبداء ملاحظة في تصويب سلوك محدد. وقد استهل كلامه بقوله: «هالكريسي إلى يمين الزعيم ما بتخصّ الياس جرجي ابن قنيزح هي لحضرة عميد الداخلية، ولا يمكنك تقديمها إلى نائب طرطوس هبة مجانية إلا إذا كانت لديك صلاحية تعيينه عميداً للداخلية». فابتسمت مرتبكاً لأنني تعلمت أن أفكر وأتصرف كمسؤول حزبي حتى بأبسط الأمور والمواقف والحالات ملزماً نفسي دائماً بمفاهيم الحزب وتقاليدِه لا أن أتصرف كفرد عادي يمثل شخصه على طريقته ويعبّر عن اعتبارات ولباقات محلية من خارج مفاهيم النهضة مستمدة من مجاملات خصوصية. بعد يومين من تاريخه بدأت زيارتنا إلى مدينة صافيتا. وصادف آنذاك وجود مأمّم حافل لأحد وجهاء البلدة حضره حشد مزدحم من الناس. وقد رافق المأمّم وفد من منقذية صافيتا وتقدّم بالتعازي لآل الفقيدي باسم الحزب والزعيم. بعد المأمّم توجه الكثير من الحضور لزيارة الزعيم في منزل الرفيق يوسف خوري. وكان في مقدّمة الوافدين عدد من المطارنة الذين شاركوا في المأمّم. لدى استقبالهم

في مدخل الغرفة حاول أحد المطارنة الجلوس في المقعد المخصص لعميد الداخلية إلى يمين الزعيم فسبقتة إليه سريعاً واتخذت مكاني المختص دون تردد، ولا كياسة قروية هذه المرة. فبادرني الزعيم بالتفاتة عاجلة. وابتسامة رقيقة دقيقة التعبير تعلو ثغره وتنم عن ارتياح ظاهر يعيد إلى الذاكرة ما حدث مع رياض عبد الرزاق الطرطوسي.

انقضت أيام وسنون مكتظة بالأحداث والأهوال مفعمة بالهزائم والانتصارات وظل نوع من الناس لا يفرّقون بين القضية والأشخاص، بين العقيدة وشعارات الغوغاء، بين مواقف السياسة التي تخدم غاية والسياسة التي تخضع إليها كل غاية عامة «كأنها مهنة خاصة يحترفها بعض الأفراد ويحتكرون بواسطتها النفوذ وتقرير مصير الشعب» خدمة لمنافعهم الخصوصية ويدعونها عقيدة. هؤلاء الناس جعلوا يسمّون حزبنا «جناح قنيزح، أو جماعة قنيزح»، الحزب السوري القومي الاجتماعي العامل أبداً لترسيخ أسس منطلقات النهضة السورية القومية الاجتماعية بفكرها العقدي وفعلها المناقبي في النفوس والعقول من أجل حياة الأمة السورية والوطن السوري ورقمهما. وقد أوقف سعادته نفسه لهما وبذل لقضيتهما حياته ودمه.

|| المهّم أن لا يذبح المرء عجل جاره سعادته

حرص الزعيم إبان جولته الحزبية إلى الشام سنة 1948 على إجراء اتصالات واسعة وعقد الاجتماعات المتنوعة بمواضيعها وأبحاثها وأغراضها. من هذه اللقاءات ما حصل مع مواطنين من صميم الشعب العامل ومنها ما تمّ مع فئات متعلمة أو مثقفة من بين رجال الفكر ومحترفي السياسة وسواهم. هذا بالإضافة إلى تفقّد الزعيم لسير العمل الحزبي في مختلف الفروع التي زارها وتعرف إلى أعضائها عن كثب. تخللت هذه الاتصالات والاجتماعات كلها شتى الأبحاث والأحاديث والتوجهات عالج فيها الزعيم أهم شؤون الساعة وأدق المواضيع القومية الاجتماعية وأهمها في بناء المجتمع وتأسيس مفاهيمه واتجاهاته ومواقفه العملية المسؤولة. وقد وُجّهت للزعيم خلالها العديد من الأسئلة عن معنى العقيدة القومية الاجتماعية وأهدافها وما يتصل بالنظرة الفلسفية للحزب، النظرة الكلية إلى الحياة والكون والفن. تلك النظرة الجديدة التي أشغلت الناس منذ بدء إعلانها وما

تزال للآن مدار اهتمام طلاب المعرفة، ورجال الفكر وموضع دراستهم وتنقيحهم عن ماهيتها ومصادرها ومدى شمولها لمدارك الفكر وخصائص النفس الإنسانية، وخاصة عن مجالات توافقها أو تباينها بالنسبة لسائر الفلسفات والنظرات. وقد اشتملت هذه الأسئلة على الكثير من الاهتمامات المتفاوتة إن من حيث الجدّية والعمق أو من حيث الخفّة والسطحية تبعاً لتوزع فكر شبابنا بين خليط من المعطيات والمفاهيم الثقافية العلمية والمناقبية النفسية التي تصدر إلينا وتفرض علينا فرضاً.

ففي مدينة اللاذقية حيث توجد منقّدية للحزب تميزت بانتشارها الواسع ومكانة أفرادها بين المواطنين، زار الزعيم وفد من حركة الشبيبة الأرثوذكسية ضم مجموعة من الشباب المتعلّم والمتعطّش لتحصيل المعرفة والتعمّق في دراسة عقيدة الحزب وغايته. وكان من بين هؤلاء أصدقاء للحركة السورية القومية الاجتماعية معروفون بمتابعتهم الوثيقة للمواضيع القومية والعقائد الاجتماعية. غير أن تأييدهم للحزب قد تعرض للوهن وخالطه بعض الشك بل العتب المرير إثر طرد فايز صايغ من صفوف الحزب ظلّاً منهم أنه استحق عقوبة الطرد بسبب موقف فكري من تعاليم الحزب ونظامه. خاصة وقد كان لفايز صايغ لقاءات صميمية مع حركة الشبيبة الأرثوذكسية في بعض الجوانب الفكرية المرتكزة إلى معطيات فلسفية صادرة عن المفكرين المعروفين برديايف وكركيغارد وهما من مراجع الفكر الأساسية لدى الحركة الأرثوذكسية.

لقد كان وفد الحركة الأرثوذكسية يحمل في جعبته إلى الزعيم، كما تبين، مجموعة ثمينة وطريفة من الأسئلة والملاحظات وقبضة قيّمة من الأبحاث والاقتراحات حول قضية الحزب السوري القومي الاجتماعي وشؤون العمل القومي عامة. بدأت جولة تمهيدية مقتضبة من الأحاديث المتنوعة كانت بمثابة مقبّلات شائعة للإقبال النشط على الوليمة الشهية ثم دار

الحوار حول الأسباب الموجبة لطرده فايز صايغ من الحزب بعد أن كان في مرحلة سابقة عضواً بارزاً في الحزب بنشاطه وإنتاجه ثم صار عميداً للثقافة وللإذاعة خلال فترة غير قصيرة من وجوده في الحزب. فأوضح الزعيم للوفد الأسباب الحقيقية التي أودت بفايز صايغ إلى الطرد وفتد العوامل كلها التي أوجبت معاقبته مؤكداً عميق أسفه لما حصل له وانتقل الحديث بعد ذلك إلى تداول أبحاث عامة وهامة تتعلق بعقيدة الحزب السورية القومية الاجتماعية، أساس منشأها وأصول نظرتها الكلية إلى الحياة والكون والفن. وتناول الحديث دقائق مفاهيم النهضة السورية القومية الاجتماعية بكامل أطرها وجذورها الأصيلة في النفسية السورية وعمق تاريخها الحضاري ذات الخصائص المميزة والمتفوقة فكراً ونهجاً في إبداع كل فن، كل علم وكل فلسفة للعالم بأسره. تشعبت الشروح في العقيدة ومضامينها المادية النفسية واتسعت مجالات الأسئلة إلى أن انبرى فجأة أحدهم بتوجيه سؤال طريف إلى الزعيم.

«كيف يكون لمجتمع ما نظرة واحدة كلية شاملة إلى الحياة والكون والفن؟ هل من المعقول والممكن أن يحدث هذا الأمر لأي مجتمع في العالم؟ فمثلاً، لو فرضنا أن لأحد من الناس عجلاً يعبه ويؤله بإيمان عميق وقناعة تامة. وهو، بالتالي، لا يسمح لأي كان أن يمسه بأدنى إزعاج أو أذى على الإطلاق. بينما يقطن بجوار هذا المؤمن امرؤ لديه عجلة أيضاً، لكنه لا يعبه بل هو بنظره كسائر الحيوانات قد وجد لخدمة الإنسان ونفعه وله أن يتصرف بمصيره كما يشاء. فما العمل للتوفيق بين موقف الاثنين من العجل. أحدهما يعبه إلهاً والثاني يذبحه طعاماً له. هذا في أبسط الحالات ناهيك عن إمكان التقاءهما في نظرة واحدة كلية إلى سائر شؤون الحياة والوجود؟»، قبل أن يهّم الزعيم للإجابة على هذا السؤال حاولت عبثاً بيّني وبين نفسي أن أنصّر ما يمكن أن يكون جواب الزعيم. التفتت إلى الزعيم

فألفيته يبتسم وهو يجول بنظرات مستغربة في الوجوه المحيطة كأنه يفتش عن مفقود أو فقيد عزيز متوارياً بين أحداق العيون الشاخصة إليه بأنفاس متأرجحة. إثر لحظة عابرة من التأمل والترتّب اكتفى الزعيم بالجواب المقتضب «المهم أن لا يذبح المرء عجل جاره» وساد الصمت باحثاً في السكون عن المعنى لعبارة الزعيم التي أحدثت لدى الحضور صدمة من الاستغراب والحيرة لا بدّ من جلائها والتفريح عنها. ثم أردف الزعيم شارحاً أنّ النظرة الكليّة الشاملة إلى الحياة والكون والفن لا تلغي تعدّد جوانب الرؤى بل تعني بإطلاق القدرة على الخلق والإبداع وهي ترى ضرورة التباين وأهمية النقاوة في تعدّد وجهات النظر خاصة فيما يتعلق بالتفاصيل والجزئيات والمشتقات أو الروافد القابلة للتغيّر والتبدّل بطبيعتها الجزئية. مهمة النظرة المدركة لوحدة المصادر وراء كل المظاهر والحالات هي أن توحد قواعد الانطلاق ومراكزه الأساسية في اتجاه واضح لنؤسس حياة جديدة أفضل ونحقق للمجتمع الواحد شمول النمو وكلية القدرة على التطور والتكامل. لذلك لا تفرض النظرة القومية الاجتماعية على أحد موضوعاً لمعتقده أو أسلوباً لممارسته له ولا تلزمه بنمط جامد من الفهم والسلوك يجعله صدى لغيره أو تكراراً لسواه في مواجهة كل شاردة وواردة. نظرتنا الواحدة للحياة والإنسان تحرّر هذا الإنسان من تفلت الفوضى وكابوس الجمود ومن ميوعة الضياع في خضم المغريات والتزوات الفردية التي تعبت بكل وجود حقيقي لشخصية المجتمع ومُثله وتعرقل وحدة كيانه ووحدة مصيره.

«المهم أن لا يذبح المرء عجل جاره». تعني أن من يعبد العجل هو حرّ في التصرف بعجله وكيفية التعامل معه. كذلك لمن يود أن يجعل من عجله ذبيحة لوليمة كامل الحرية المطلقة فليس لأحدهما أن يمنع عن الآخر حق ممارسة الحرية سواء حرية العبادة أو التصرف بملكيتته الخاصة. ما دامت

هذه الحرية حقاً عاماً لا تسيء إلى المصلحة العامة ولا تحرم أحداً من أي حاجة مشروعة أو حق يناله بأخلاق واحترام لحق الغير وحرية.

وما الحرّية وحق ممارستها البناء إلا من صميم النظرة إلى الحياة والكون والإنسان والفن والحقيقة وفي أساس هذه النظرة الجديدة ومفهومها لمعاني الحرية والواجب والنظام والقوة من أجل حق الأمة في الحياة وحقها في السيادة والكرامة.

إِنَّ الْعَدَالَهَ، وَإِنْ أَخْطَأْتَ، لَا تَكْبُرْ، إِنَّمَا تَعْتَرِفُ وَتَصَحِّحُ بِكِبَرٍ

«لم يأتنا سعادته بالمعجزات والخوارق، بل أتانا بالحقائق التي هي نحن». لقد كشف لنا حقيقة الأصالة السورية بتفوقها التاريخي الفذ وقدرتها على التحرر والانطلاق متغلبة على الويلات والنكبات، دعانا بقدوة عبقرية إلى الثقة بأنفسنا والوعي لحقيقتنا أمام الحياة والعالم بأسره. كان تأكيداً قاطعاً على أن الحقيقة السورية ليست أمراً واقعاً بقوة المعجزات والخوارق إنما كونت ذاتها الأصيلة بقدرة العقل الخارقة التي تغير وحدها وجه التاريخ. وتحوّل مجرى حياة الشعوب الحية الجديدة بالنهوض. «العقل قوة إنسانية فاعلة تقدر أن تعي الحقائق وتفكر وتقصد وتعمل. ولا شيء مطلقاً يمكن أن يعطل هذه القوة، الأساسية وهذه الموهبة الأساسية للإنسان». ولرسالة الإنسان إلى الحياة والوجود التي هي رسالة الإبداع والتفوق والانتصار على المجهول وكل مُسْتَعَصٍ يعيق تجلّيها وامتدادها. فالعصمة هي لقضية العقل وحدها قدرة «التمييز بالإدراك لما هو أفضل.

فيقرر العقل من ذاته وبذاته ما هو المصير الأفضل والأجمل لحياة الإنسان»
وحياة أجياله الطالعة التي لم تولد بعد.

كم يحذرنا من مغبّة الوقوع في شرك التأليه للإنسان وفي برائن
التصوّر التائه أنه قادر على فرض اللا معقول واللا واقعي، بغية الانتصار
على واقعية المدرحية تشمل مقوماتها جميع طاقات التحقيق والتجسيد
الإنساني لمدرجات الكون وإمكانيات الوجود. كي لا نتعرض لفقدان الثقة
بمواهبنا ولا نستسلم مكبلين مهورين أمام أفذاذ العباقر. أننا لا نتراجع عن
مواجهة الموهوبين بأفعال العقل والإرادة. مهما بلغت مؤهلاتهم من التألق
والإشعاع الخلاب. لسنا نتورع عن مخالفتهم أو تجاوز تفوقهم العبقري إذا
قضت قدرة المعقول التي تقوى على الإحاطة بما في الوجود من حق وخير
وجمال، وعلى الإطاحة بكل ما يعترض العقل من عوائق، من أجل أن يحقق
الإنسان السيادة بعقلانيته الفائقة التفرّد ذات الدعائم الراسخة الأسس
والمناثر الشامخة القمم. لأننا إذ نؤله الإنسان، نحكم عليه بالجمود ونلزمه
بالوقوف عند حد يُفقد حقه الخطأ، وبالتالي يحرمه من حق النمو والتطور
والارتقاء، ومن موهبة التمتع بمآثر الماضي وروعة ذكرياته الأخاذة. نحن
نسلبه طاقة المعاناة الراهنة لمعطيات الحاضر ولتأملات الغد وحوافز آماله
وجميعها تشد بالإنسان إلى تجسيد الإيمان بخير الأعمال والأفعال في عالم
الواقع ومشاتل حقول الأجيال الآتية. نحن إذ نخطئ نعرف أننا نخطئ لعجز
نعانيه وأن «لنا الحق في الخطأ كما لنا الحق في الصواب»، لذلك نحن
نتقدم ونرتقي بوعينا حقيقة الخطأ وحقيقة الصواب التي نتعلمها ونمارسها
في أصول حياة الحرية والواجب والنظام والقوة. حياة الإدراك والتميز
والعمل الصحيح، حياة الانعكاف من العتيق البالي والإقدام للاعتناق
الجديد المحرر.

إبان جولة سعادته إلى الجمهورية الشامية الممتدة من الثالث من تشرين الثاني إلى العاشر من كانون الأول سنة 1948 تناول اهتمام الزعيم شؤون العمل الحزبي وأوضاع الحزب الداخلية في شتى حقول المسؤوليات والمؤسسات القومية. فضلاً عن اتصالاته بالأوساط الفكرية من طلابية وسواها واتصالاته بالأوساط السياسية. وقد كانت هذه الأوساط تنظر إلى الحزب نظرها إلى فتى يافع لا يخلو من مؤهلات. يحاول أن ينطلق بقدرة معينة لإثبات وجوده وتوكيد أهميته إذا استطاع. لكنه ما يزال حتى ذلك الحين بحاجة إلى الإرشاد والتوعية لئلا ينزلق في مَهَاوي الطريق الوعرة التي يقحم نفسه في ولُوجها. وهو بعد طرِيّ العود نديّ القوى ضئيل الإعداد والاستعداد لا ترى بأساً من مجاملته. بينما يظنّ أساطين السياسة حينذاك في الشام أنهم حققوا المستحيل واخترقوا المعجزات. وهم يضمنون على الحزب حتى بفتات معرفتهم وفضلات خبرتهم التاريخية المنقطعة النظير فلا يتجاوز الحزب حدود ما رسموه له من خطوات أولية. كي يظل تحت سن الرشد بأمرتهم ووصايتهم.

من جملة المواضيع الإدارية التي أعارها الزعيم اهتمامه القيادي، وتولى الدخول بمجمل تفاصيلها لإعطاء حكمه فيها، كانت مسألة التعرف بعمل حزبي قام به منفذ عام دمشق، آنذاك الرفيق عصام محاييري، واختلافه بالرؤية حوله مع أحد النظاري في هيئة المنفذية، الرفيق رياض سكر. وقد كان الزعيم على علم سابق بهذا الأمر وملابساته من قبل عميد الداخلية الأمين قنيزح الذي أُتيح له آنذاك أن يرافق الزعيم في تلك الجولة المخصّصة لمناطق الجمهورية الشامية. اطلع الزعيم على دقائق المسألة؛ مدار الخلاف في هيئة منفذية دمشق. واستمع إلى وجهات نظر الجميع بشأنها. وقد لفظ الزعيم حكمه المعلل بها. وهو يتضمن تخطئة الرفيق رياض في ما ذهب إليه من فهم للمسألة وتأكيد صحة رأي المنفذ العام بصدها مع الملاحظة أن

دوافع التباين في الرؤية كلها كانت نابغة من روحية التسابق في الحرص على مصلحة الحزب والتشدد على سلامة مسيرته ونموه الوطيد.

انتهى كل شيء بوضع جميع الأمور في نصابها من الصحة والصواب ثم تابع الزعيم جولته المقررة من دمشق إلى حمص، حماه وحلب فإلى سائر مناطق الساحل الشامي قبل أن يقفل عائداً إلى بيروت.

بعد مضي ما يقارب الشهر على نهاية الجولة أي ما يزيد عن الشهرين على معالجة الزعيم للحادثة الإدارية الأنفة الذكر في دمشق، حضر الرفيق أنطون سلامة إلى بيروت لمقابلة عميد الداخلية والتباحث معه في ذيول «تلك المشكلة» وهي أن الرفيق رياض سكر، المعروف ذلك الحين بان دفاعه القومي الاجتماعي ونشاطه الحزبي المثمر الجيد، قد أوقف نشاطه المعهود إثر زيارة الزعيم إلى دمشق، والتزم جانب القعود عن كل تلبية قومية اجتماعية. لأنه شعر بالغبن يحز في نفسه من جراء حكم الزعيم عليه بالخطأ والخلط في فهمه وسلوكه الإداري بالنسبة إلى «تلك المشكلة». فاستعدت، بوصفي عميداً للداخلية، مع الرفيق سلامة تفاصيل المسألة إياها وسائر جوانبها وملابساتها وفحوى ما أشار به الزعيم بخصوصها. ثم وصلت بالبحث والتحليل إلى القول: «لنسلم أن الزعيم قد أخطأ بالفعل في معالجة المسألة مما ألحق الحيف بموقف الرفيق رياض سكر منها. فلا يضير الرفيق من ممارسة قوميته الاجتماعية كما يمليه عليه إخلاصه وتمسكه بقسمه القومي الاجتماعي».

لكن الرفيق أنطون سلامة قد رأى ضرورة مواجهة الزعيم بالأمر ووضعه بالصورة التي صار إليها الرفيق رياض سكر من التقاعس في تلبية الواجب القومي الاجتماعي للأسباب المذكورة، كي يقف من الزعيم نفسه على رأيه الأخير والحاسم بالموضوع. فمت، كعميد للداخلية، بالحصول على

موعد من الزعيم للرفيق أنطون سلامة. فوافى الزعيم بمفرده إلى الموعد ليقص عليه خبر الحلول الإدارية التي جرت في دمشق للمسألة الحزبية التي أحد طرفيها الرفيق رياض سكر. غير أن الرفيق سلامة سرعان ما عاد إلى عمدة الداخلية بعد فترة قصيرة ليعلمني:

إن الزعيم ما كاد يطلع على موضوع وضع الرفيق رياض سكر حتى بادره بقوله، «الزعيم قد أخطأ بحق الرفيق سكر في الحلول التي أعطاها للمسألة المعلومة. ومن طبيعة الفكر أن يتعرّض للخطأ في تكوين رؤيته لدقائق الحقائق خصوصاً في مجال إصدار الحكم اللازم بشأنها. أما المطلوب من الرفيق رياض فهو أن يصمد في المثابرة على قوميته والعمل بموجب ما أقسم له وهو يساوي كل وجودنا. فالمبادئ هي للإنسان الذي يستحقها ويناضل من أجل انتصارها بالعقلية الأخلاقية الجديرة بالأصالة السورية. القادرة على تحقيقها وتجسيدها أعمالاً وأفعالاً. نحن نعتنق القاعدة الأصيلة التي انبثق منها وعينا حقيقة وجودنا. لذلك نعرف كيف نتصر على الأخطاء غير المقصودة كما نجتث الأخطاء المتعمدة. لأن هذه ليست أخطاء بل انحرافات وارتكابات. لا بدّ من بترها واستئصالها لنسير إلى الانتصار الحق الذي لا مفرّ منه».

ليس الكرم أن تجود جزافاً بالمال بل هو العطاء من أجل بناء الكرامة التي تحرّر وتبني

يختلف مفهوم الكرم، وبالتالي، الموقف منه حسب الأوساط الاجتماعية والمجتمعات الإنسانية كما يختلف أيضاً في الأمة الواحدة سياق تطورها ونضوجها القومي ففي الجاهلية مثلاً، جعل الكرم المادي في رأس الفضائل القبلية وصار موضع الاعتزاز والمباهاة بين الناس وقورن بشجاعة المقاتل وبطولة المناضل الذي يواجه الموت غير هيباب. لأن حاجات الحياة في العهد القبلي كانت مادية بالدرجة الأولى وقلما ترتفع عن ضرورات العيش وما يتصل بها من مفاهيم ومقاييس بدائية. لكن لدى تمكن العقلية الحضارية في نفوس الناس وفي تعاملهم وعند نموّها وامتدادها في تطوير الشعوب تبدّلت النظرة إلى الضيافة حتى في مناسبات الأفراح والأتراح وأمثالها. وغدا كرم الضيافة لوناً بدائياً رجعيّاً من تقاليد الجماعات البشرية المتأخّرة خاصة إذا أدّى إلى إهمال الشؤون الاجتماعية التي هي أساس

التقدم والارتقاء وفي صلب البناء الاجتماعي والنهوض القومي الاجتماعي مثل إنشاء المشاريع والمؤسسات القادرة على مجابهة الأعداء والأوبئة والانتصار عليها.

وإن آفة هدر الطاقات وتبديد الإمكانيات سدى في غير الطريق المؤدية إلى البناء والتقدم لا تزال متغلّبة ومتفاقمة في كيفية الحصول على المال وكيفية التصرف به واستثماره اجتماعياً للأفضل والأرقى حتى أننا نلاحظ بين صفوف النهضة تفسّي هذه العلة وأثرها البالغ في السلوك المالي تجاه القضية الخطيرة التي تعاقدا على تحقيقها وهي تساوي كل وجودنا. إلى سوء التصرف بالمال وعدم إخضاعه للمفاهيم القومية الاجتماعية، يعود افتقار الحزب إلى المال الضروري لانتشاره وانتصاره في صميم الشعب. مع أنه سجّل المواقف القدوة والأفعال الفدّة في شتى الميادين والحقول التي لا يشكّل فيها المال الأساس والسبيل الأوّل إلى التحقيق والتفوّق.

كنت مرّة، بوصفي عميداً للداخلية سنة 1948، بزيارة حزبية لمديرية ميمس التابعة لمنقذية مرجعيون يرافقتي إليها المنفذ العام الرفيق نواف حردان وناظر الإذاعة في المنقذية آنذاك. وصلنا نحن الثلاثة إلى بيت المدير حيث تمّ اللقاء مع القوميين الاجتماعيين لعقد الاجتماع من أجل تفقد أوضاع الحزب وسير أعمال المديرية قبيل موعد الاجتماع المقرر حان وقت الغذاء دعانا المدير لتناول الغذاء فوجدنا أنفسنا أمام وليمة حافلة بمختلف ألوان المقبلات وألوان الطعام الشهي الدسم إلى جانب أنواع الفاكهة والحلوى. حُيّل إلينا في البدء أن المدعوين إلى هذه الوليمة هم جمع غفير في حفلة عرس لأحد وجوه العشيرة وأركان الإقطاع في المنطقة. هذه الوفرة من الطعام بتعدد أنواعه وألوانه كان مجرد وجبة طعام يقدمها رفيق قومي اجتماعي إلى ثلاثة من رفقائه يأتون إليه لعمل حزبي.

ما أن بدأنا بتناول الطعام حتى خطرت لي فكرة تراءت جديدة وجميلة المغزى. هي أن اشتراكات أعضاء هذه المديرية وعددهم آنذاك ثمانون رقيقاً لا بدّ أن تكون مرتفعة ومسددة بالدقة النظامية، خاصة من قبل المدير الذي يقدم على تحمل تكاليف هذه الضيافة.

طلبت من المحصل أن يأتيني بلوائح الاشتراكات لأعضاء المديرية كي أقف على تفاصيل الوضع المالي. فهالني أن أعلم أن أرفع اشتراك في المديرية لا يتجاوز ربع ليرة لبنانية وهو اشتراك المدير صاحب «الوليمة» المؤلفة وقد مضى عليه سنتان كاملتان لم يسدّد خلالهما شيئاً من متوجّباته المالية وهو إذن مدين لصندوق الحزب من متأخّرات مالية بمبلغ ست ليرات لبنانية خلال عامين. كما أن التلكؤ عن تلبية الواجب القومي كان شبه شامل بين أعضاء المديرية الثمانين.

إذا كان المال متوفراً لتكديس الطعام في وليمة لا معنى لها ولا ضرورة خاصة بين القومين الاجتماعيين فلماذا لا يتوفر في سبيل النهضة بتغذيتها بقوة المال؟ لماذا لا يبذل المال من أجل مصلحة الحزب فوق كل مصلحة عوض أن يهدر هباءً في ترسيخ عقلية قبلية يعمل الحزب على إزالتها كل ما يتّصل بها من مفاهيم ومقاييس وتقاليد لا قومية اجتماعية. أما إذا توفر المال لإقامة وليمة من هذا النوع لا تليق بالأخوة القومية الاجتماعية ولا تعبر عن العقلية الأخلاقية الصريحة الخالية من العقد هي أساس التعامل بين القومين الاجتماعيين وفي صلب كيان المجتمع القومي الاجتماعي وتكوينه الصحيح، فما الداعي للكرم الجاهلي في عهد النهضة وفي علاقة أبناءها بعضهم مع بعض. بينما يتخلّى القومي عن تأدية واجبه من أجل الكرامة القومية الاجتماعية مما يكبل مسيرة النهضة ويعيق نموّها واستمرارها. إن تلبية واجب العطاء الواعي كفيلاً بتحقيق مبادئ الحزب

وتنظيم حركة تؤدي إلى استقلال الأمة السورية استقلالاً تاماً، وتُحرّرها كلياً من جميع عوامل التخاذل والضعف والتفسخ المدمر لكل سيادة وكرامة.

غير أن اختلاف المواقف هو دائماً وليد اختلاف المفاهيم الاجتماعية، لذلك يرى البعض الكرامة في كرم الضيافة ويرى الآخرون الكرامة في تقديم كل ما يتمكنون من عطاء لإقامة الحياة الكريمة وقتل العيش الذليل. الكرامة اجتماعية لا تتجزأ ولا تتمزق أشلاء وأجزاء بين الأفراد و«كراماتهم الشخصية»، فالأمة مجتمع واحد وكرامتها حقيقة واحدة اجتماعية كلية في شمولها أفراد الأمة بأسرها ووحدة مصالحهم ومصيرهم الأوحد.

أنا لم أكلّفك بالتفكير الذي يعطلّ العمل ويشوّهه. أنا كلّفتك فقط بالتنفيذ الفهيم ليتمّ العمل المطلوب بنجاح

سعاده

من مزايا العصر المنتشرة بين أشباه المتعلمين والتي تشكل ظاهرة تهدر الجهد والوقت سدى بالإكثار من الكلام والتكرار والاجترار لقوالبه عينها ومقالبه اللفظية. هذه السيئة التي تبدو حيناً حسنة جذابة هي إدمان نوع من «المفكرين» على تعاطي عادة تقليب وجهات الرأي والرؤية في أمر معين والاستغراق الشارد بالتحليل والتعليل في ما يطلقون عليه عملية «التنظير».

هذا الأسلوب من البحث أو النمط من التفكير هو إجراء فكري من حيث الشكل والإخراج أما من حيث الجوهر والغرض الفكري فهو وسيلة إغراق المضمون في سيل جارف من الألفاظ والصور اللفظية تجعل أخيراً من الموضوع المطروح مجرد عبارات واستعارات بيانية لا تعني فكرة واضحة ولا تدل على مرمى فكري معين. سواء كان هذا العمل التنظيري متعمداً لتضليل السامع أو غير مقصود بمثابة لون من اللهب في معرض الجدية الموضوعية. قد يصادف هذا التنظير بادئ الأمر إعجاباً وإكباراً بالمحدث من

السامعين لما فيه من سهولة التعبير ومرونة العرض والاستعراض لشتى العبارات والصيغ الرشيقة للأداء والإدلاء بوجهات النظر وإبداء تعليقات للأخذ بها أو التخلّي عنها لدى الاقتضاء. لكن إعجاب السامع بالتنظير والمنظرين لا يلبث أن ينقلب إلى تعجب إزاء الفراغ الفكري الذي يملأ أحاديثهم وأبحاثهم البراقة. وممّا يلفت الانتباه إلى هؤلاء مدى استعدادهم الدائم لمعالجة أي موضوع بمناسبة وبلا مناسبة استجابة لأي طلب أو رغبة يبديها أحد الولوعين في الاستماع إليهم والمؤهلين لتحمل الإصغاء وإغداق التقدير والثناء على إبداعهم التنظيري. وكم يتخلل التنظير من عبارات الوعظ والإرشاد للأخريين وعبارات التعالي والتعظيم الترسيسي لمواهم المتفوقة وكفاءتهم الفذة. المنظرّون يبالغون بصياغة الكلام والاسترسال بإلقائه جزافاً كأن الكلام لديهم هو من أجل الكلام عينه. أو في سبيل استماعهم هم إلى إيقاع ألفاظهم ونبرة أصواتهم بصرف النظر عن وقعه على الآخرين. وما يحدثه من وقية في أعصاب السامعين ونفوسهم ومن فضائل المنظرين تمادهم في التكرار والترداد ولجوئهم أيضاً إلى التخيل والاختراع يحدثونك عنه كأنه من صميم الوقائع والمراجع الثابتة.

لقد أصيبت صفوف الحزب، مع الأسف، بعدد من هؤلاء المحدّثين، الخطباء أو المنظرّين خطابة وكتابة. وقد استطاعوا في فترات متعددة أن يملأوا أيامهم وأيامنا معهم بفيض من طبقات الثرثرة والصياح. يقولون ما هو خارج عن كل موضوع، يقولون ما لا يعملون يقولون ليبرّوا أعمال الآخرين بالأقوال والشعارات الضبابية التي تحجب الحقائق بالأوهام والتصورات. إن التاريخ بالنسبة إلى الديماغوجيين هؤلاء لا يسجل الأعمال والأفعال إنما يسجل الأمنيات والنّيّات يسجل هدير الصخب وقرع طبول الغوغاء. إذا كان لدى القوميّين الاجتماعيّين الواعين حقيقة النهضة ورسالتها إلى الأمة السورية «لا ينجح أمر تكثّر فيه الأقوال وتقل الأعمال»

فإن الديماغوجيين من المنظرين وأشباههم يرون أن الأمر الذي ينجح هو ما تكثر فيه الأقوال وتندّر الأعمال. المنظرون المعجبون أبدأً بمواهبهم وقدراتهم هم المتفوقون بمرآة غرورهم في كل مجال، والمجلّون في كل ميدان وقد اضطرت أن أقول لأحد المتباهين بفضوليتهم: «يا رفيقي أراك لا تحدثنا عن أمر أو شأن إلا وأنت الأول في فهمه ومعالجته. فهل لك أن نخبرنا عن مسألة أو موضوع كنت منه في المرتبة الثانية لا الأولى بالنسبة إلى أقرانك ومنافسيك؟».

ومما يذكر لأحد من هؤلاء أنه كان يردّد أمام المسؤولين والزعيم تكراراً لدى أي عمل يقوم به ويلاقي في معالجته الفشل والإخفاق: «فلان من الأعضاء أو من المسؤولين لم يفهم مقصدي أنا لم أقل كذا... ولم أعن بقولي كذا.. وكذا..» إلى أن قال له الزعيم مرة ولدى استمرار سوء الفهم أو سوء التفاهم بينه وبين معظم من يتعامل معهم: «هل المشكلة أن الرفقاء لا يفهمون دائماً ما تقول لهم، أم أن المشكلة أنك قاصر ومقصر عن إفهامهم ما تريد قوله أو ما تطلب منهم عمله ويحصل لك، بالتالي، مع الجميع سوء الفهم ويتعذر التفاهم مع العلم أن هذه الصعوبة في التعامل لا تحدث هكذا مع سواك».

كلّف الزعيم رقيقاً من جماعة المنظرين بعمل معيّن محدّد أفاض الزعيم بشرحه له الشرح الواضح الوافي. وفي اليوم التالي عاد الرفيق المذكور يحمل إلى الزعيم خلاصة ما أنجزه من المهمة الموكلة إليه. وما أن بادر إلى اطلاعه على ما أجراه من تنفيذ حيال مهمته حتى قاطعه الزعيم مستغرباً بقوله «كيف تحوّل الموضوع في ذهنك إلى موضوع غريب لا يمتّ بأيّة صلة إلى ما كلّفت القيام به؟ ماذا فعلت؟ وهل تذكر جيداً ما كلّفت به من عمل؟ وما علاقة كلامك عما قمت به وما أنجزت بالمهمة التي عهدت إليك». فسارع الرفيق إلى إيضاح ما حدث له مستهلاً كلامه: يا حضرة الزعيم. أنا فكرت أن

أعمل كذا هو أفضل.. غير أن الزعيم أوقفه في الحال عن متابعة كلامه مؤكداً له قوله: «أنا لم أكلفك بالتفكير الذي يعطل العمل ويشوّهه. أنا كلفتك فقط بالتنفيذ الفهيم ل يتم العمل بنجاح دون أي شيء آخر». ولم يترك له المجال لتقديم التبريرات وإبداء الأعذار التي أودت به إلى إفشال المهمة التي أنيط به تحمل مسؤوليتها.

الفاشلون اثنان، واحد يعمل ولا يفكر وواحد يفكر ولا يعمل. وكلاهما فريسة توهمه أنه ناجح ومؤهّل للفكر والعمل. والاثنان نمط طريف من مركبات النزعة الفردية ومشتقاتها. هذه النزعة التي تشكل أشد الأخطار على صاحبها وعلى الآخرين وخاصة المتعاملين معه. ذوو النزعة الفردية هم طالبو الموت وهم بفرديتهم صائرون إلى السقوط على جانب الطريق، تساقط أوراق الخريف في غمرة الأنواء والرياح أو تساقط الأغصان العاتية بقوة القصف العاصف ولن يثبت في طريق الحياة سوى الأحياء وطالبو الحياة.

أبناء الحياة الواثقون بأنفسهم غير المغرورين الواعون للحقيقة غير المضللين المتوهمين، والعاملون للحق والخير والجمال غير المتوانين ولا المتواكلين.

لنقبض على ناصية الأمور في الوقت المناسب دون أن ندعها تفلت من قبضتنا سعاده

من أبرز الظواهر المرضية التي تتفشى في حالات التخلف والميوعة، تتحكّم بسلوك الناس وتبدّد من بين أيديهم فرص الإنتاج والنجاح كما تؤدي بهم إلى الضياع هذه الظاهرة الشائعة بين أبناء شعبنا هي تعود المماثلة والتسويق بتحمّل المسؤوليات وإنجاز المهمات حتى الضرورية والملحّة. كثيراً ما نفوّت علينا الفرص السانحة والمناسبات الملائمة لإتمام الأعمال في حينها مع أنّ النجاح في الحياة يقضي بوضع الأمر في نصابه بالوقت المناسب.

أما إذا انقضى الوقت المناسب للعمل وأصابتنا الخسائر الموجهة؛ فأننا نملاً الدنيا صباحاً بالندم على ما فات ونشغل أذهان الناس بالتشكي من سوء الحظ ومعاكسة الأقدار. قد تمرّ الأيام وربما الأشهر والسنون ونحن في غمرة التنظير تائهون، نمتهن التأقّف والتدمر من جميع الناس ومن كلّ الأعمال والأشياء. ونتقن التملّص البارع من مواجهة الحقيقة والواقع

دون أن نكلّف عقلنا عناء التفتيش عن الأسباب الموضوعية لما يصيبنا من فشل وإخفاق أو نحلّل العوامل الفعلية التي تؤدي بنا إلى حيث التبعضر والتقهقر عن ركب الأمم والشعوب الناهضة. وكلّما ضاق وقت أحدنا وتراكمت عليه المشاغل والمهمات كلّما وجد مدسّعاً من الوقت للتحدّث عن ضيق وقته، بمناسبة وبدون أيّة مناسبة، استجداءً لإعجاب الناس بقدرته ونشاطه الخارق. ما أكثر المتملّقين وأبرعهم في ممارسة الرياء وإتقان التمويه والخداع. أنهم أبعد الناس عن قول الحق وإعلان الحقيقة الصادقة البناءة.

إذا خطر لأحد المهتمّين من مواجهة مسؤوليات مصيرهم أن ينفذ عنه وزر القعود والخمول وينتفضض على عجزه فإنه يلوذ بالندامة معلناً التوبة والتكفير عن إهماله مُجدّداً وعوده بمضاعفة الاجتهاد واليقظة أو أنه يلجأ بسهولة عفوية إلى صياغة الأعذار وتنميق الذرائع الواهية التي لا تقلّ فضيحة عن عار الإهمال بعينه وعن نقیصة التهاون والتلكؤ الشائن.

كلّف الزعيم أحد المسؤولين بعمل معين شارحاً له مقدار أهميته وضرورة الاعتناء بحسن إعداده وإنجازه بإتقان، لكن الزعيم لم يشأ أن يعين لهذا المسؤول موعداً لانتهاه من العمل ولم يُشرُ كذلك إلى المدى الزمني الذي يستغرق إتمامه الجيّد، بل ترك مسألة الموعد والمدة اللازمين للعمل المطلوب إلى تقدير المسؤول نفسه الذي أبدى أمام الزعيم كلّ تفهّم لماهية المهمة التي أسندت إليه كما أكد استعداداه للقيام التام لمبادرة الاهتمام بها سريعاً وجدياً.

راح الزعيم من وقت لآخر يتفقد ما قام به المسؤول ممّا أوكل إليه القيام به مصرّاً على أهميته وخطورة النتائج المترتبة عليه وكان يتلقّى البيانات المطولة المملوءة بالأعذار التي تفرض عليه تأجيل البدء بالعمل. إلى أن فاجأه الزعيم ذات يوم بقوله أن لا لزوم للعمل المذكور بعد ذلك الحين

لأنه قد تم إنجازُه نهائياً وبكامل العناية والإتقان من قبل مسؤول آخر كلفه الزعيم القيام به بعد أسبوع من موعد تكليفه هو به. فلم تعد إذن من حاجة ليشغل اهتمامه به بعد تماديه بإهماله اللا نظامي الذي لا يليق بالقومي الاجتماعي، ثم توجّه إليه الزعيم بحضور عدد من الرفقاء بينهم المسؤول الذي لبي الواجب القومي الاجتماعي الذي ألقاه على عاتقه خير تلبية نظامية دون أن يلجأ إلى حشد أكوام الأعدار والمبررات لتغطية إهماله الفاضح كي يلقنه درساً بليغاً لا ينساه ولا يستغني عنه القومي في أي مجال من الحياة العملية:

«ليس فقط لا ينجح أمر تكثرفيه الأقوال وتقلّ الأعمال، إنما يقتضي مبادرة العمل بحزم واضح حاسم وحضور عقلي نفسي تامّ الوعي والتصميم وفي الوقت المناسب كمن يقبض على مقود السيارة يوجهها ساعة يشاء وإلى حيث يريد وهو في أتمّ حالات الهدوء والاتزان المادي المعنوي. كلّمًا يتساهل المرء مع نفسه باغتنام الفرصة الأنسب لمباشرة العمل المطلوب تعرّض لإضاعة فرصة اللحاق بالعمل إلى الأبد أما إذا أُتيح له استدراك بقية الفرصة العابرة فقد يتلقّط بالعمل وهو متوتّر الأعصاب منهك القوى والأنفاس مشتّت المدارك و الطاقات لا يسعه السيطرة لا على أعصابه المضطربة ولا امتلاك قدرة التصرف المجدي بمسؤوليته يخضعها إلى مشيئته وإلى متطلبات مقاصده وأهدافه متمتّعاً بعميق الثقة بالنفس و صفاء الوعي لكل أبعاد الحقيقة»، وقد أفاض الزعيم في تحذيرنا من أن نكون من صنف تلامذة النعامة الساذجين فنقتدي بفلسفتها الكبرى أو الصغرى على حد سواء.

فلسفة النعامة الكبرى تجعلها تدعي دوماً أنها تجمع في شخصيتها الفدّة خصائص فريق الجمال وخصائص الطيور بالآن ذاته. لقد قيل لها مرة أن تطير أسوة بأبناء فصيلتها فقالت إنني كالجمال قادرة على حمل

الأثقال فحسب. أما عندما طلب منها أن تقوم بأحمال الجمال فأجابت إنها قادرة على ممارسة الطيران مثل باقي الطيور زملائها. لكنها لم تطر وهي من جملة الطيور ولم تحمل الأثقال وهي من جماعة الجمال. إنها جاهزة للاعتذار عن تلبية أي عمل يعهد به إليها مهما كان نوعه وشأنه.

النعامة تدعي عمل كل شيء وتتملص دائماً من القيام بأي عمل بشئى الحجج الواهية والمبررات الملققة الباطلة.

فلسفة النعامة الصغرى تبيح لها أن تزج رأسها في الرمال حين يقترب منها الصياد محاولاً اقتناصها حتى لا يتمكن هو من رؤيتها ولا ينالها بأدنى أذى. هكذا تنوهم أنها تؤمن سلامتها بالتهرب من مواجهة مخاطر الواقع مستسلمة إلى تصوّرات العماوة وطمأنينة الغباوة اللامسؤولة بينما تمعن في قلب الحقائق وتشويه المفاهيم والمعطيات الحقيقية وتفسد على نفسها كل سبيل إلى التحقيق والتقدم وكل مجال للنجاة من متزلاقات أوهاهما.

ليس لنا من ينقذنا من شرور الفلسفات النعامية سوى الإقبال على العمل بأخلاق وتفهم ونشاط رزين، فنأمن الوقوع فريسة الإخفاق وال فشل ونبليج محجة النجاح والانتصار على جميع الترهات والأباطيل. لأن الفاشل بالرغم من حمأة نشاطه المحموم هو أحد اثنين: من يعمل ولا يفكر، ومن يفكر ولا يعمل، لكن لا سبيل إلى إحراز خير المطالب ونبيل المقاصد سوى مدرحية العمل المفكر والفكر العامل للحق والخير والجمال.

مهما بلغت النصوص من بلاغة التعبير فالنفوس وحدها تظل ضماناً كل تشريع

لا تستطيع الدساتير والقوانين قاطبة أن تحيط بجميع الاحتمالات أو أن تتحسّب لكل الطوارئ والمفاجآت الممكنة. فليس للإنسان قوة النبوءة أو قدرة الاستشراف اللا محدودة لكل التوقّعات المجهولة. إنما همّ الإنسان هو أن يلمّ بماهية الوقائع ويحيط بأهم عواملها وأسبابها الأساسية. كي تتاح له الإطّالة على أبعادها المرتقبة من ضمن المعقول الذي يستمدّ قوّته ويكتسب مناعته من خلال سابقات الأحداث المتقاربة، وما تقدمه له التجارب من جديد المعطيات الجيدة فالأحداث تترابط وتتلاحق في سلسلة حلقات متكاملة ومتماسكة لتغدو النتائج السالفة بدورها أسباباً جديدة لوقائع تالية. ليس من انفصام كلي أو انقطاع تام بين منطق المبادئ ومرامي الأهداف، إذ لا مبادئ بدون أهداف تتجه إليها ولا أهداف شاردة لا تعدها مبادئ أساسية. غير أن ضماناً كل فلاح وتقدّم هي النفوس الكريمة التي لا

تكفّ عن العطاء والولاء لمطلب أعلى. نفوس تفيض محبةً ونبلاً وتغدق أبوة وأمومة صافية صادقة. تعلّم بقدوة الفضيلة والعطاء.

إن الشارع صاحب الدعوة إلى القومية السورية هو الزعيم وهو القائد الأعلى لقوات الحزب ومصدر السلطتين التشريعية والتنفيذية. الزعيم مطلق الصلاحيات والمسؤوليات تجاه الحزب. لا تقيده إلا التشريعات والإدارة الدستورية التي وضعها هو وأصبحت تكوّن قضية الحزب السوري القومي الاجتماعي وكلّ منطلقاته وأغراضه. أين إذن الضمانات القانونية والتشريعات الحقوقية الكفيلة بضبط سلوك الزعيم ووقاية الحزب من أي حيف أو ويل قد نتحمّل أوزاره وتدفع الأمة عواقبه من جراء تصرفات الزعيم. وهو واضع كل أسس النهضة؟ أقسمنا جميعنا على تأييد الزعيم وسلطته اللامحدودة إلا بالقيود التي أراد الزعيم هو نفسه أن يلتزم بها تجاه صفوف الحزب والأمة بأسرها. كم يبدو الأمر شديد الغرابة والخطورة من وجوه عديدة. خاصة في مرحلة من حياة الأمة، يتدنّى فيها الوعي إلى درك فقدان هويتها وانعدام الثقة بنفسها وبمعنى وجودها! هل تكون العلاقة الإنسانية بين الناس وليدة متانة النصوص القانونية وديباجة الشرائع؟ هل نبغي من التعاليم والوصايا معجزة تضبط جنوح النفوس الشاردة، وتصون الأخلاق والمناقب من أي خلل يصيبها أو اختلال يؤدي بالإنسان إلى الفساد والانحلال.

قد يوفق الشرطي بعض الوقت بإيقاف المرتكب عن التماذي بإجرامه تحت وطأة العقاب وسطوة السوط. لكن جميع قوى الأمن وقوى القمع والردع في العالم ترى نفسها عاجزة عن تقويم روحية الإجرام ومعالجة مصادر الشرور والمفاسد لدى الإنسان. ولو قدّر لهذه القوى أن تُزوّد بجميع وسائل المطاردة والتنكيل والإرهاب. «تدرك النفوس القوية الحق وتدرك النفوس الضعيفة الباطل».

● في إحدى جلسات مجلس العمدة المخصّصة لتدارس وضع الحزب المالي، طلب الزعيم بياناً تفصيلياً عن مقدار التعويضات التي يتقاضاها المتفرغون للعمل الحزبي، وعن كيفية تأمينها وتسديدها إبان ما يعصف بالحزب من أزمة مالية. فتبيّن لدى تنفيذ أرقام التعويضات وما كان قد سُدّد من كل منها حتى ذلك الحين أن بعضهم لم يتقاض من تعويضه الشهري نسبة ضئيلة بينما سُدّد لآخرين مبالغ تزيد على تلك النسبة دون مبرر إلا إلحاح صاحب حق على المطالبة بتعويضه. عندها وضع الزعيم أساساً واضحاً لتسديد ما يمكن من التعويضات المتوفرة قيمتها في صندوق الحزب إذا تعدّر تسديدها كاملة في موعد محدّد بالنظر لضيق في الموارد المالية. يقوم أساس التسديد على تحديد موعد أو أكثر يوزع فيه التعويض أو بعضه على الرفقاء بنسبة واحدة فلا ينال أحدهم نصف تعويضه مثلاً لينال الآخر ربع ما يخصّه أو يتقاضى تعويضه بكامله. ولا يجوز منح السلفات لأحد إلا بإذن خاص يستند إلى الأسباب الموجبة والاضطرارات الاستثنائية وبموافقة الزعيم.

وقد أضاف الزعيم موضحاً منطلق هذه الأسس في التعامل المالي: كما أن جهودنا تتضافر لتأمين متطلبات القضية بكل أمانة ودقة. فأنا ننال حقنا بمنتهى الإنصاف والعدالة. ما دمنا متضامنين في مواجهة المصير الواحد فإننا نتحمل المصاعب والأزمات بروحية واحدة إزاء وحدة حياة ووحدة مصير. إننا نسير معاً. نعمل معاً، نعاني الآمانا وصعوباتنا معاً، نسقط معاً ونتنصر معاً دون تمايز ولا تهرب ولا محاباة. هكذا يجب أن نتعاون ونتعامل لإقامة الإخاء القومي الاجتماعي.

● كان مسكني يوم كنت عميداً للدخلية، على مقربة من منزل الزعيم في رأس بيروت. وكان عليّ أن ألتقي به كل صباح لأضع أمامه حصيلة اليوم

السابق وبرنامج اليوم الراهن. ثم أنصرف بعدئذٍ إلى تنفيذ ما يعهد به إليّ مزوداً بالتوجيهات والتعليمات الضرورية لمسيرة الأعمال ونموها السليم.

ذات صباح حضرت كالعادة إلى مكتب الزعيم في منزله وأنا مضطرب الأعصاب مكفهر الملامح مشوّش التصرفات. أُلقي التحية على حضرة الزعيم. وحالتي تشير إلى ما كنت أعانيه من ألم عميق وأكابده من أزمة شديدة الوقع، عميقة التأثير في مزاجي المعروف بالمرح على العموم. خاصة عندما أكون مع الزعيم. فسمح لي بالجلوس ثم بادرني بعباراته: أنت لست حاضراً هنا، يا أمين إلياس؛ أنت مأخوذ إلى مشكلة تشبّت وجودك. فلا بدّ من معرفتها ومعالجتها كما يلزم.

وَجَمْتُ فترة أمامه لا أنبس بكلمة والقلق يشتدّ بي. إلى أن استجمعت عزمي وحوالت الإفصاح عما ينتابني بشيء من هدوء الأعصاب. حين سمعته يردّد بحنو الأبوة وحمزها المهيب: القومي يصارح زعيمه بكل شيء ولا يخفي عنه أمراً من أي نوع. هات ما لديك. إنني أريد معرفة كل تفصيل والوقوف على كل شاردة أوصلتك إلى هذه الحالة غير الطبيعية.

- حضرة الزعيم، أنت شقيقتي من طرطوس لزيارتي منذ ثلاثة أيام وهي طيلة الوقت طريحة الفراش، تحت وطأة حرارة شديدة كاوية. يتولّى السهر عليها أهل البيت الذي أسكن بجوارهم. استدعيت لها الطبيب. وقد أعطاني «رشاتة» العلاج اللازم الذي يقتضها تناوله سريعاً. وإلا تتعرّض إلى مضاعفات مؤذية خبيثة. لقد مضى يومان دون أن يتوفر لديّ ثمن العلاج. وغداً سأضطر لمغادرتها في جولة مقررة سابقاً. هذا ما يقلقني في الصميم ويحرجني. الجولة ضرورية، العلاج إلزامي وشقيقتي مريضة يعتني بها الجيران ولا أرى كيفية الخروج من المأزق. قد يكون المرض حتى الآن بسيطاً لكن شفاءه بحاجة إلى العلاج السريع وقبل تفاقم الحالة وتعمدها.

ما كاد الزعيم يطّلع على قصة اضطرابي الحادّ حتى لمسْتُ في ملامحه شيخ الأزيمة التي كانت تشدّ بخناقٍ لتشلّ قدرتي على التحرك والتنفس الطبيعي. لكنه لم يقل لي كلمة واحدة ولم يستوضح عن مدى محاولاتي لتدبير ثمن العلاج بل اعتصم بالصمت لتَنوب نظراته الحانية بالإفصاح عن مكنونات نفسه وعن عميق مشاعره المتألّمة.

ثم انتقلنا بصورة طبيعية إلى معالجة المواضيع الحزبية التي أتيت لمقابلته بشأنها. تلك الأثناء دخلت حضرة الأمانة الأولى علينا إلى مكتب الزعيم وهي ترتدي لباس الزيارة. وبعد تبادل التحية معها اقتربت من الزعيم لتهمس في أذنه كلمات سمعت منها «إني ذاهبة إلى السوق مع الرفيق.. لشراء بعض الحاجيات فهل بإمكانني أن أحصل على شيء من المال..» أجابها الزعيم بمثل صوتها الهامس «يمكنك إرجاء هذا الأمر اليوم. أنا أحتاج منك مقداراً من المال وبعدها نتدبر مسألة الحاجيات للبيت». ناولته الأمانة قطعة ورقية. أضاف إليها من جيبه قطعة أخرى. ووضع الكل في غلاف ثم طواه في قبضته. وحين انتهى الحديث الحزبي وقبل انصرافي ناولني الزعيم مغلفاً شبه مغلق. وقال «عليك الآن قبل كل شيء أن تتوجّه إلى صيدلية قريبة في آخر الشارع وتشتري العلاج المطلوب لشقيقتك. بعدئذٍ تذهب بأمان في جولتك. ونحن سنؤمّن أثناء غيابك العناية بها لتعود أنت سالمًا وتلقاها معافاة».

واجهت كلمات الزعيم بارتباك وتردّدت في تناول الغلاف الذي يقدّمه إليّ. لكنه أكّد إصراره بضرورة تَسَلُّمي المغلف والإسراع إلى تنفيذ الأمر بقوله: «الزعيم يطلب منك شراء ما يلزم للرفيقة شقيقتك من علاج. ثم يمكنك التوجه للجولة الحزبية المقررة. هل يصحّ هذا الأمر أم ماذا تفعل؟». قبلت الأمر. تقبلت حنو الأب. تعلّمت بالقدوة كيف نحن وحدة حياة ووحدة مصير، كيف نتعاون معاً ونتماسك في السراء والضراء. انصرفت وأنا معافي

من أوصاب قلقي أحمل إلى شقيقتي بشرى الشفاء العاجل بعلاج أراده لها
سعاده. كما أراد للأمة السورية السلامة والكرامة.

هكذا عرفت الزعيم قائد العقلية الأخلاقية الجديدة بقدوة الحنو
والسمو. كما هو مصدر التجسيد لمناقب الحق والخير والجمال. وهكذا تعطي
النصوص والصلاحيات أبعد معانها وأروع مدلولاتها القومية الاجتماعية.

لا يمكن إقامة بناية من حجارات هي في عالم الخيال والمطلق

تتوزع الآراء وتتضارب وجهات النظر في شتى المواضيع مع توقّر حسن النية وصدق المسعى للتوصل إلى الحقيقة. قد يبلغ تشابك الآراء حد التعارض والتناقض المشدود، لكنه يعود أخيراً إلى عاملين أساسيين قد تتفرغ عنهما عوامل ثانوية أخرى.

أول هذين العاملين هو الإغراق في تأكيد النظر إلى زاوية واحدة من الموضوع المطروق بدون الالتفات إلى سائر الزوايا التي تشكّل كلّها وحدة عناصر الموضوع. أو تكوّن أهمّ مقوماته. إن التماذي في الإصرار الضيق على كلّ زاوية مفردة على حدة، كأنها الموضوع بكليته الشاملة. يجعل التلاقي في بحث أضلاع الموضوع متعذراً. كما يعطل الانطلاق في تفهّم الموضوع من خلال مجمل نقاطه ومجموع جوانبه. فيتحول تضارب الآراء إلى إضاعة معالم الموضوع وخصائصه، وإلى تمزيقٍ لكلِّ محاولات التحليل له والخروج بأية نتيجة صحيحة من جزاء البحث. فيعجز الباحثون عن متابعة الحوار المجدي لأن الدوران في الجزئيات المبعثرة لوحدة الموضوع، فضلاً عن ضياع الموضوع عينه! يشتت بالتالي معنى كل بحث ويشتت أغراضه الفكرية الإنسانية.

هكذا تقضي النظرة الجزئية إلى الواقع والحياة على فحوى كلّ حوار وإمكان توصُّله إلى تقرير أي أمر وإقرار أي فكر في أي شأن من شؤون المجتمع.

والعامل الثاني المؤدي أيضاً إلى تعثر البحث وتبعثر الآراء والأفكار المفروض ارتباطها بصميم الموضوع، هذا العامل هو توزع الفكر وتنازع الآراء بين ما هو كائن، أي الموضوع المطلوب تحليله واتخاذ الموقف المدروس منه، وبين ما هو مفترض الوقوع. وما يزال في عالم الرؤية الذهنية ضمن احتمالات تنظرية تتيه في العموميات والمطلقات دون أي معطى معين. «والتعيين هو شرط الوضوح»، عامل يتميّز بالحيرة بين الانفلات في معالجة المطلقات غير الواضحة التي تشرّد في الإبهام الذي هو أقرب إلى اللاشيء لأنه كل شيء، وبين التقيّد الموضوعي في ما هو راهن في عالم الواقع والحقيقة المعطاة أمام العقل والوجدان.

فالعالم المختصّ مثلاً في تشريح الأجسام والوقوف على مواصفاتها وما هي عليه من خصائص وميزات، هذا العالم يقدّم دراساته جاهزة مصنّفة. لتكون عوناً للطبيب في معالجة مرضاه والعمل على إنقاذهم من أذوائهم والأمهم. فالطبيب لا يستغني عن علم المشرّح كي يتسنى له تقديم الشفاء لمريضه. غير أن عالم التشريح. وإن مدّ الطبيب بعلمه ومعلوماته فلا يسعه أن ينوب عن الطبيب في عيادته ومستشفاه.

بقدر ما تشمل رؤيا المرء مجموع الأجزاء التي تكوّن موضوعاً معيناً يلمّ بما بينها من صلوات وفواصل. وبقدر ما يقوى هذا المرء على تعميق نظره إلى الواقع الراهن ومتفرّعاته وروافده العملية يمتنع عن الاستطراد بالتنظير سعيّاً وراء سراب المفترض، أي بقدر ما يمعن النظر إلى الأمر الراهن منطلقاً من نظرة كلية شاملة إلى الحياة، والكون والوجود يرفض الانفلاش في ضباب

التنظير على حساب الواقع. بهذا المقدار من الواقعية المستمدّة جذورها وقوّتها من الكليّة الشاملة سائر الأجزاء والأعراض المعبّرة، أجل بهذا المقدار من وعي الحقيقة يستطيع الإنسان أن يدرك حقيقة الوجود إدراكه لوجوده الحقيقي. وأن يتوصل، بالجهد والجهاد في الوقت اللازم لنجاح كل عمل، إلى بلوغ الغرض المنشود. هو غرض التقدّم والانتصار على جميع الصعوبات والمعيقات صعوداً إلى أهداف واضحة معيّنة لا ريب فيها ولا لبس في صحتها.

حدثت، ذات مرة، ضرورة حزبية لإعادة تنظيم منقّذية قضاء عاليه. فدعوتُ، بوصفي عميداً للدخالية، عدداً من الرفقاء تم اختيارهم من خيرة القوميين الاجتماعيين هناك للتداول معاً وإعطاء المشورة في وضع المنقّذية. ثم التوصل إلى إعادة تنظيمها على أفضل وجه ضروريّ لتقدّمها. عرضت موضوع الاجتماع المطلوب بحثه، بُغية التوافق إلى إمكان تشكيل هيئة لمنقّذية قضاء عاليه، تلك المرحلة. فراح معظم الرفقاء الحضور يسترسل في بحث مواصفات كلّ من أعضاء المنقّذية لينتهي إلى الاعتذار بعدم قدرته على تحمل أية مسؤولية في الهيئة وإلى القول أيضاً أنه لا يرى أحداً أهلاً لتحمل مسؤوليات العمل على هذه السويّة بكل صدق وكل إيجابية قومية اجتماعية. وقد خلصنا، بما يشبه الإجماع، إلى عدم إمكان تشكيل هيئة لمنقّذية قضاء عاليه لا من الرفقاء المجتمعين ولا من رفقاء آخرين.

وكاد الإفلاس والتعجيز يلقان جوّ الاجتماع مع ما تجلّى فيه من صراحة الرأي وصفاء الروحية.

فأعلنت للحضور، إذ ذاك، أنه على هذا الأساس من التنظير في العموميات والمطلقات فلن نجد في الحزب من هو أهل لأن يكون عضواً قويمياً اجتماعياً سوى الزعيم نفسه، إذا جاز الاستثناء. لكننا بالرغم من هذا سنشكل هيئة لمنقّذية قضاء عاليه من رفقاء تابعين لهذه المنقّذية. وليس

من أعضاء المنقذية أخرى أو أعضاء من مناطق عبر الحدود. وبالطبع سوف لا نستورد مسؤولين لا من أحزاب أخرى ولا من أمة خارج الأمة السورية.

فما علينا بهذه المناسبة إلا أن نتذكر قول الزعيم الوارد في المحاضرة السادسة: «إذا افترضنا أي مطلق افتراضاً، وابتدأنا نحوم حول فهم هذا المطلق ومعرفته، فإننا قد عيّننا مهماً للخروج من جدل لم نصل فيه إلى الحقيقة. فكلّ لا وضوح لا يمكن أن يكون أساساً لإيمان صحيح، وكلّ لا وضوح لا يمكن أن يكون قاعدة لأية حقيقة»، ثم أضاف عميد الداخلية قد نكون بحاجة إلى توسيع دعوتنا هذه لتشمل رفقاء آخرين. نتداول وإياهم بالأمر. لكننا أخيراً. لا بدّ من تشكيل هيئة لمنقذية قضاء عاليه من نخبة أعضائها العاملين المؤهلين ليس بالإمكان مطلقاً إقامة بناية في الواقع والحقيقة من حجرات ومواد بناء هي في عالم الفرض الغائب وفي حيز الأمان والنيّات. مهما بلغت تلك النوايا من روعة المناقب وحسن الطويّة. لذلك سوف لا ينفصّ هذا الاجتماع قبل إيجاد رفقاء مؤهلين لتسلم جميع مسؤوليات المنقذية، دون إبطاء ولا تردد حائر بين حقيقة الواقع وبين إبهام المتوقع طيّ رؤية التنظير. وفي مجال المطلق المفترض. «المطلق الذي هو شيء هو المطلق الواضح». هو المطلب الأخير الذي نسعى إلى بلوغه في مدى الطريق الطويلة الشاقة، طريق الحياة، مدى التصاعد اللا متناهي في سلّم القمم اللا متناهية في شموخ تسامها وتسامي شموخها. لكن الشرط لبلوغ المطلق المنشود يبقى في بذل مطلق الجهاد والعطاء الأمثل. هذا الشرط هو قدرتنا على تعيين نقط الالتقاء الواضحة الصالحة إلى الانطلاق الواضح الصحيح. «فالوضوح - معرفة الأمور والأشياء معرفة صحيحة - هو قاعدة لا بدّ من اتّباعها في أية قضية للفكر الإنساني والحياة الإنسانية».

الزواج انعقاد من الوحدة لتحقيق وحدة الحياة

كنت بزيارة الزعيم المعتادة أتقدّم إليه بموجز عما نقدته عمدة الداخلية من منهجها المقرّر خلال فترة معينة. وعمّا هي مزمنة على عمله إبان مرحلة قادمة. أنهيت بياني هذا ثم أخذت أدون على ورقة توجيهات الزعيم وملاحظاته بشأنه. تلك الأثناء وقبل أن يؤدّن لي بالانصراف حان موعد الزعيم للالتقاء مع أربعة شبان إخوة يتقدمهم خالهم، شيخ جليل مهيب. بادرت إلى الاعتذار بمغادرتهم لأفسح لهم مجال البحث للموضوع الذي كنت أجعله. أشار إليّ الزعيم بالبقاء. فحضرت اللقاء بناءً لرغبته ولربّما يكون هناك أمور يودّ إطلاعي عليها، وبغبطة المشاركة في الإفادة مما سيُتداول.

لاحظت اهتمام الزعيم الواضح بالوافدين إليه وعنايته العميقة باستقبالهم والحفاوة بكلّ منهم، بينما ابتسامة الاطمئنان والتأني النفاذ لم تفارق ثغره كالمعتاد. ما أن استوى بهم المكان حتى تقدم الشيخ بوقار وألم إلى عرض ما سماه «مشكلة» أحد أولاد أخته الرفيق حافظ الغائب عنهم.

أخذ يسرد ملابسات هذه المشكلة ومراحلها بأسلوب جليّ الهدوء والرزانة ملفت للانتباه والإصغاء العميقين إذ قال: حافظ ابن أخي، كما تعلم يا حضرة الزعيم، هو قومي اجتماعي مؤمن بعقيده ومندفع في

سبيلها. لم يعودنا في شتى تصرفاته سوى مواقف التعقل والسلوك الخلق. لكنّه اليوم يتخبط في مأزق حرج قد يعرضه إلى مشكلة لا تُحمد عقباه، إذا ما استمر في تشبّثه وعناده الخاطئ. بلغت هذه المشكلة أوج تعقيدها وقد يتعدّر حلها وإنقاذه منها إلا إذا تفضّل الزعيم وأغارها شيئاً من اهتمامه وعنايته الأبوية. فإنها، إذ ذاك، تغدو هيّنة سهلة وتنتهي على ما يرام إن شاء الله تعالى.

حافظ يحبّ فتاة حباً شديداً ويعزم على الزواج منها بين ليلة وضحاها. بالرغم من استياء جميع الأهل والأصدقاء ورفضهم الكليّ لزواجه منها. لأن هذه الفتاة هي أكبر منه سناً وليست، بلا مؤاخذة، من عائلة مناسبة لعائلته لا اجتماعياً ولا ثقافياً. فهي بالاختصار لا تليق به من جميع الوجوه. وليس بالإمكان القبول لحافظ بمثل هذا الزواج. فالأمر شديد الخطورة كبير الإحراج لنا جميعاً. وها إنّنا، إخوانه الأربعة وأنا نتشرّف بزيارتكم آملين أن تمدّوا لنا يد العون وتسعفونا لحل هذه المشكلة التي استعصى علينا حلّها بعد أن استنفدنا جميعنا كل الوسائل والطرق العائلية التي بوسعنا اعتمادها مع حافظ دون أن نلقى منه أيّة استجابة أو تربّث على الإطلاق. لذلك نقصد حضرتكم راجين تدخلكم الكريم بهذه المسألة الشائكة. ولمعلوماتكم، يا حضرة الزعيم، نخبركم أننا قدّمنا إليه العديد من خيرة الصبايا التي تليق بحافظ لأنه، بنظرنا جدير بالزواج من أحسن فتاة يختارها من بين الكثير من الصبايا اللواتي يناسبه مكانةً، وجاهاً، تربيةً وشخصيةً. فضلاً عن كل هذا، هناك صعوبة أشدّ تواجهنا أمام الناس وهي إن هذه الفتاة التي ينوي حافظ الزواج منها ليست من طائفتنا. مع أن هذا الأمر ثانوي بالنسبة إلينا نحن. غير أن الناس لا ترحم ولا تقف عند حدّ في تدخلها بشؤون الناس، بالإضافة إلى نفورهم من نوعية الفتاة ذاتها، بسبب ما ينقصها من صفات لتكون جديرة بابن أختي حافظ

وما لديه من أفضليات عليها. كان الإخوة الأربعة مع خالهم الشيخ يتناوبون الكلام عن المشكلة المهّدّ بها الرفيق حافظ. لعلمهم يحظون من الزعيم بوعد واضح في تبني الموضوع والعمل على معالجته كما يرغبون. والزعيم يصغي بسكونه ونظراته حتى النهاية. يتتبع عرض المسألة وكلّ تفاصيلها بدقّة وإمعان. إلى أن وعدهم بدعوة الرفيق حافظ ليرى ما يحسن عمله بعد اللقاء به قريباً جداً.

من ثم التفت إليّ طالباً دعوة الرفيق حافظ من قبل عمدة الداخلية لمقابلة الزعيم في مكتبه بعد يومين من تاريخه وأردف قائلاً: عليك الحضور معه للموعد.

انصرف الجميع، إثر ذلك، وهم يؤكّدون شكرهم الجزيل لاهتمام الزعيم بالأمر.

ظل الزعيم في مكانه بعد وداعهم. يتأمّل بصمت عميق المرارة والأسى لما يشغل الناس الذين لا قضية لهم ولا نظرة واضحة إلى شؤون الحياة وشجونها. ثم قال وهو يودّعي: إن المسألة دون ريب مهمة، فالزواج موضوع كبير. هو مسؤولية اجتماعية حياتية كبرى.

حضرنا لمقابلة الزعيم في الموعد المضروب، الرفيق حافظ وأنا. وقد بدا على الرفيق ارتباك ينمّ عن توقّعه لما قد يبحثه الزعيم معه. أذن لنا الزعيم بالجلوس قبالة وتوجّه إلى الرفيق حافظ على الفور بقوله: إنك تودّ الزواج قريباً. الأمر جلل وشديد الجدّية. يقتضينا الزواج توفير عناصر فكرية نفسية هي غاية في الدقة والأهمية قبل الإقدام عليه، ذلك الإقدام الجميل الرائع لحياة الإنسان واستمراره. صحيح أن الزواج تعانق روحين وتناغم قلبين برباط المحبة الجاهز أبداً للعطاء الأتمّ والولاء الأسمى. لكنه خصوصاً تعاقد عقليين واعيين معنى المسؤولية المترتبة عليهما. هما عقلاّن قد قرّرا الحياة

معاً والتعاون الصميم معاً بمنتهى الصدق والنبل والوفاء لغرض الزواج الذي هو المثال في الرصانة والرفاقة والثقة بالنفس. يقوم الزواج على التوازن الفذّ بين غمرة الحب البالغ أقصى درجات الروعة والجمال وبين يقظة العقل والنفس البالغة سمو الإدراك والقدرة على كل تحقيق خير. الزواج قبل كلّ شيء وفوق كلّ أمر هو خاصّة التزام مسؤولّ تجاه كرامة الأمة والمجتمع، لتأسيس العقلية الأخلاقية الجديدة وغرسها في بنية النشء جسدياً وعقلانياً، ثم تعهّد تنميتها بقدوة الأخلاق والمناقب القومية الاجتماعية، إلى أن تغدو أساساً لكلّ نمو ومنطلقاً لكلّ إنجاز وإنشاء. إنّه هذا التعاقد على انتصار العقيدة لأجيال تتوالد وتتصاعد في ترسيخ الحق والخير والجمال مدى أزمنة التاريخ، أجل مثل هذا التعاقد الجميل والجليل، لا يحتمل لعباً ولهبواً إزاء الشؤون الخطيرة التي تساوي وجودنا. لذلك وردت فقرة القسّم القومي الاجتماعي: «وأن أتخذ مبادئ الحزب القومية الاجتماعية إيماناً لي ولعائلي وشعاراً لبيتي». على أساس هذه المفاهيم وهذه المقاصد العليا يقتضي اختيار الزوج أو الزوجة، اختيار شريك الحياة بملء معاني الشراكة المادية الروحية، وأعظم معاني الحياة في أرق مطالبها لبلوغ منتهى الحرية والواجب والنظام والقوة من أجل سيادة الأمة.

هكذا يتمّ الزواج ليكون أساس العقد الاجتماعي والتعاقد القومي لخير الأمة وعزّها وكرامتها، الأساس الراسخ عبر تلاحق الأجيال. يحقّق الزواج أغراضه الحقيقية حين تحصل لدى الزوجين النظرة الواحدة الكليّة إلى الحياة والكون والفن، إلى الحب والجمال، إلى التربية والأولاد، إلى معنى الأمل وعوامل تكوينه، إلى معنى الألم وعناصر نشوئه.

حين تتكامل هذه النظرة من خلال مفهوم الزواج وتمتد بلا حدود إلى المجتمع. الزواج هو المشتل لكلّ الجذور المولّدة لأفراح الحياة وأتراحها، هو بؤرة الإشعاع والتألق لكلّ القيم والفضائل إذا نجح.

وهو المعول المقطع لكلّ منابت الحق والخير والحقيقة، إذا فشل، أو أمسّ على خطأ في الإدراك أو خطأ في الوعي وزَيغان في الوجدان والأخلاق.

في عهدة الزوجة القومية الاجتماعية ينطلق الزوج رجلاً في رحاب الخلق والإبداع وفي حلبة التحقيق البطولي، في كنف الزوج القومي الاجتماعي يتوهج حنان المرأة يعمر الكون ويغمر الوجود بذلاً وعطاءً. ففي الزواج القومي الاجتماعي «تستطيع المرأة أن تدرك بقلها ما لا يستطيع الرجل أن يدركه بعقله». تعطي بفضل فضائلها الكبيرة دعائم العائلة القدوة والرجل المقدم ليلبغ ذروة التفوق. علينا أن نحسن بناء الزواج لنبني به قمم المجد والسؤدد لأمة البناء العريق الأصالة.

هذا بعض ما زلتُ أذكره بفحواه مما ورد على لسان الزعيم بمناسبة درسه الرائع عن معاني الزواج القومي الاجتماعي إلى الرفيق حافظ الذي كان يعدّ نفسه آنذاك للزواج باندفاع الولهان.

غمر الحضور صمت كان يضحّ بقوة الإعجاب والتأمل في ما هي حقيقة الزواج لدى النهضة. إذ ذاك ينتصب الرفيق حافظ أمام الزعيم مكدود الأنفاس ليعلن بأن الفتاة التي اختارها لتصبح زوجة له لن تكون له زوجة لأنها ليست قادرة على مشاركته الحياة الحقيقية الفاعلة لمصلحة الأمة.

أنه يؤكد منذ الآن لحضرة الزعيم انفكاكه عنها والامتناع نهائياً عن الزواج منها لهذه الأسباب.

ليس من تعاهد حياتي نبيل إلا ويجب أن يؤول إلى تحقيق الأمر الخطير الذي يساوي كلّ وجودنا مادّة ومعنى، قلباً وعقلاً..

لا رئيس ومرؤوس في التعامل القومي الاجتماعي الذي هو التعبير الأسمى عن وحدة روحية في الجسم الواحد الحي

كلّ بادرة تصدر عن الإنسان ذات مدلول نفسي وبُعدٍ مناقبي وإن بدت لأوّل وهلة عادية عابرة لا تلفت إليها الانتباه ولا تثير الاهتمام. هي تفصح بطبيعتها عن مضمون مادّي رُوحِي كما تشير بذاتها إلى مفهوم معين وموقف حاصل على أساس هذا المفهوم. سواء كان صدور هذه البادرة المعبّرة عن مكنونات نفسية بقصد وإعٍ أو بعفوية لا واعية وفورية. مهما حاول الإنسان إخفاء حقيقة مقاصده ومشاعره والامتناع عن إبدائها فهي تبرز عاجلاً أم آجلاً جليّة المعالم بليغة المعاني والوضوح بشكل أو بآخر. لأن من خصائص جوهر الحقيقة أن تثبت وجودها وتؤكد حضورها في واقع الحياة وإن طال أمد مدّها وانحسارها وخالها الناس منقرضة مهزومة. ولا بدّ أن يتفاوت فعل الحقيقة وشأنها في مسيرة الحياة ومجرى الواقع بتفاوت أصالة تعبيرها عن قيم الحياة وتجسيدها لفضائلها ومثلها ولماهية الوجود والكون.

درج بعض القوميين الاجتماعيين الميسورين مالياً على زيارة الزعيم لتهنئته بذكرى الأول من آذار وتقديم هدايا معينة إليه وفق التقاليد المتبعة عامة لمثل هذه المناسبة في بلادنا منذ القديم.

وذلك حدث في أول آذار سنة 1949 حين دخل أحد الأمناء القداماء إلى غرفة مكتب الزعيم في منزله - برأس بيروت - بينما كنت جالساً إلى مكتبي في الغرفة المقابلة أصرف بعض الأمور الحزبية التي كلّفتني بها الزعيم بوصفي مديراً لمكتب الزعيم وناموسه الأول. مكث الأمين الزائر لدى الزعيم بعض الوقت وانصرف موجهاً إليّ التحية القومية الاجتماعية من بعيد وهو يحمل في ملامحه معالم ابتسامة لا تخلو من السرور الممزوج بالارتباك الساذج. خلال دقائق معدودات إثر انصراف الزائر توجه الزعيم إلى مكتبي. فسارعت إلى الوقوف وأداء التحية متخلياً عن مقعدي وراء المكتب لإقدامه إليه. دخل الغرفة، صافحني وأشار إليّ لاتخذ مكاني كالسابق. ثم أخذ كرسيّاً من جانب المكتب وقَرَّبها مني. صرت أنتظر ما قد يطلب عمله مني أو الإجابة عليه. كان يحمل بإحدى يديه علبة صغيرة جميلة النقوش والألوان وكانت تعلق وجهه ابتسامة تنبئ عمّا كان يجيش في خاطره من عميق التأمل وغريب التساؤل الصامت لكن بصعوبة. بعد دقائق معدودات مفعمة بالغموض المهيب الذي يتحقّر للإفصاح عن ذاته بادرني الزعيم الحديث بقوله:

• هل رأيت من كان في مكتبي منذ لحظات.

- نعم حضرة الزعيم هو الأمين ... وقد دخل إليك دون إعلامي بالأمر لأخذ له موعداً لمقابلتكم...

• قدم الأمين ... لزيارتي مهنتاً بمناسبة ذكرى الأول من آذار وقدّم إليّ هذه العلبة من السيكار الفاخر الثمين... خذ منها حصتك أنا غير مولع بالتدخين.

- شكراً حضرة الزعيم إني أُمِّي بمعرفة قيمة السيكار، خاصة إذا كان من هذا الطراز. غير أن هذه العلبة الجميلة تدل على ما تحويه من ثمين، وتناولت واحداً من السيكار.

مضت ثوانٍ بعد ذلك من الصمت الناطق أعقبه التوجيه البليغ.

• «كثير من القوميين الاجتماعيين لا يدركون حتى الآن معنى الزعيم وماهية الرابطة الروحية التي تشدهم إليه وتشده إليهم. لذلك يتصرف هؤلاء مع الزعيم تصرفهم مع رئيس عشيرة أو رئيس شركة، رئيس تقليدي يتقرب إليه مرؤوسه أو أتباعه ويتعاملون معه بغية تأمين مكاسب معينة ومنافع فردية عن طريق رضاه عنهم. رضياً لا ينم عن عميق الوحدة الروحية الرابطة بيننا والتي تجسد وحدة الحياة الحقيقية بقدوة البناء والعطاء في كيان الجسم الواحد الحي.. لقد شعرتُ «يا أمين إلياس» أنّ الهدية قُدمت إليّ رشوة يستميلي بها الأمين... لشخصه أو ينشد في خفايا خلفيته مقابل الهدية خدمة أو امتيازاً فوق الأشخاص قاطبة وفوق جميع الاعتبارات الشخصية والمنافع الخصوصية».

وتوقّف الزعيم برهة عن متابعة الكلام بينما الانقباض المكثور يغمر ملامحه ويكسو أساريره بشيء من الدهول والشroud. لم أرَ ما يمكن أن أقوله للزعيم إزاء هذا الحادث فالتزمتُ الصمت، والألم الميرير يملأ جوارح نفسي بسبب تفاقم الفردية التي ما تزال ترافق تعاملنا وسلوكنا اليومي والعفوي. ثم نهض الزعيم عن كرسيه ليغادر الغرفة وهو ينظر إليّ ملياً كمن يستشف موقفه ومشاعري إزاء ما حدث. فوقفست أستعد لوداعه. وقبل أن يبادر إلى الذهاب عاود فتح علبة السيكار ثانية وقدمها إليّ بقوله يمكن أن تأخذ أكثر وقد انفرجت أساريره قليلاً عما كان عليه. تناولت سيكاراً وأنا أبتسم قبيل التفوه بأي كلمة ثم قلت «هل يهديني الزعيم السيكار بعد السيكار كما

أهديت إليه العلبة من قبل الأمين الزائر؟» ضحك الزعيم بشيء من الارتياح. ربّت على كتفي ثم رفع يده بالتحية وغادرتني إلى مكتبه وأنا مسمّر في مكاني كمن نسي نفسه في غير مكان وجوده الفعلي وتاه في خضمّ الضجيج المشوب بالعويل الأليم.

ما أروع ما تسمو به نفسك الكبيرة، أيها الزعيم، من براءة وصفاء!! ما أعظم القدوة الرائعة التي تعلمنا إياها بالأعمال والأفعال لتبني في نفوسنا وعقولنا دائماً وأبداً الإيمان بالحقيقة التي تجسّد وحدة الروح في وحدة الوجود ووحدة الحياة، وحدة شاملة كلّية في حقيقة الحق والخير والجمال. لتتمجّد الأصالة السورية بسعادة في إبداع سوريانا كل فن كل علم وكل فلسفة.

لا يزال القوميون الاجتماعيون يلبّون
لتضميد جراح المصابين في المعارك أكثر
مما يلبّون لتخطيط صراع وإعداد معارك
تمدّنا بقوة الهجوم والتقدّم وتقينا مغبّة
الدفاع والمهادنة

سعاده

في التاسع من حزيران سنة 1949 كان حادث الجمّيزة الشهير. يوم
تفجّر التأمّر الفاضح على الحزب وحياة الزعيم بسبب التعاون بين أشدّ
المتعصّبين المسيحيين وأشدّ المتعصّبين المحمّديين لأنّ قضيتهم واحدة، مهما
تخاصموا، هي العمل على صون التفرقة وترسيخ الحواجز المعطّلة لكل
تكاتف وتأخي بين الطوائف، ولأنّ مصيرهم ومصير رجعتهم واحد تجاه
القوى القومية الاجتماعية المعبرة عن أصالة الحق والخير والعاملة من أجل
استئصال جذور التعصّب الأثيم وعوامل التفرقة أينما وجدت وحيثما
عشّشت وتغلّغت. النهضة وحدها تعبّد الطريق للحقيقة والحياة الجميلة
وتوطّد سبيل الحضارة والحرية بقضائها على الإقطاع والطائفية وسواهما
من أسباب التقسيم والتفسخ قضاءً مبرماً ونهائياً.

حادثة الجَمِيْزة الفاجعة للأخلاق والقانون قد استنفرت عزائم القوميين الاجتماعيين وشحذت قدراتهم الجبارة على البذل والعطاء الأسخي لمواجهة هجمة السلطة المسعورة. التي راحت تشتهها بلا هوادة على صفوف الحزب. أرسل المركز، حينذاك، الوفود إلى المناطق الشامية واللبنانية لإيضاح ملابسات المشكلة الناشبة بين الحزب والسلطة اللبنانية الناشطة في عمليات القمع والاعتداء السافر على مراكز الحزب ومنازل أعضائه من دون مبرر ولا أي سبب. قامت هذه الوفود بشرح معطيات المشكلة الظاهر منها والخافي على النظر القريب وحثت الرفقاء على استجماع أقصى إمكانياتهم وطاقاتهم لتلبية نفيِر الواجب القومي الاجتماعي بمنتهى التأهب والنظامية المسؤولة.

ثم عادت الوفود إلى دمشق من مختلف المناطق الحزبية في الوطن تحمل إلى الزعيم تبرعات الأعضاء والأصدقاء من مال ومجوهرات وسندات عقارات. مما أفصح عن مدى استعداد القوميين الاجتماعيين لصون كرامة الأمة والنهضة. وعبر عن مستوى الاستجابة القومية الاجتماعية لتحريض الرجعة وتحديثها لنهضة الأمة التي تناضل أبداً لبتّ الوعي في صفوف الشعب وتأسيس مناقب البطولة المؤمنة المؤتدة بصحة العقيدة. وقد جاءت هذه التلبية الرائعة لتؤكد فعل النهضة الجبار في نفسية شعب كاد الرجعيون يحكمون عليه بالخمول والانحطاط. وتثبت جداره الأمة السورية بالصمود والصراع في معركة التحرر من ربة الرجعية ومخازنها. وكانت الردّ البطولي على ملاحقة دولة الرجعة والرجعيين، الردّ الذي لم يسبق له مثيل في سياق ممارسة النهضة لتزاع الحياة والموت بين الأمة السورية واليهود في الداخل والخارج على السواء. وطالما عودتنا الرجعة وزبانيتها افتعال المحرضات بدافع خوفها على كيائها وبغية إثبات وجودها وتوطيد سلطانها القائم أصلاً على التعسف والقمع لإرادة الشعب وتكامل وعيه.

لقد لفت انتباه الزعيم هذا التصاعد الفذّ في تلبية المعركة الضارية التي فرضتها دولة الإرهاب والقمع على النهضة بصورة مباغتة غادرة، واستوقفته استجابة القوميين الاجتماعيين الصارمة لمتطلّبات الجهاد الدائر، تلك الاستجابة فاقت جميع ممارساتهم البطولية المعتادة إزاء الأحداث اليومية الجارية والمسؤوليات المعهودة. فكانت الدليل على روعة ما تزخر به النفسية القومية الاجتماعية من مدّخر الطاقات الجبّارة وما تنطوي عليه الأصالة السورية من عميق الخصوبة التي تؤهلها لكنّ عطاء وإبداع.

لكنّ هذه الظواهر على تفوّق روعتها وسموّها قد دلّت على فعل انفعالي بالعوامل الخارجية التي أيقظت صفوف النهضة في أخرج الحالات وأشدّها تأزّماً ودقّة وجعلتها تلبّي على مستوى تفاهم المحرّضات التي ولّدتها إرادة الخصم نفسه ووجّهتها من أجل أغراضه هو. فالنهضة ليست مجموعات ردّات فعل، ولو تجاوزت هذه قدرة الأفعال الضاغطة من جانب الغير. ليست النهضة صيحات غضب وتوتّر وحقد صاحب في وجه مدهامات الأحداث والسلطات ولو أدّت إلى إحراز النصر حيناً.

«النهضة السورية القومية الاجتماعية ثقة القوم بأنفسهم ووعي الأمة لحقيقتها»، هي الانطلاق إلى تجسيد صحة المعرفة وعميق اليقين والإدراك للواقع بما فيه من حسنات جيدة ونقائص رديئة. النهضة تكون دوماً في حال يقظة وتأهب مستمر للنهوض والإنقاذ والتحرير بما تملك من إيمان ومعرفة وشجاعة. ولا يجوز لها أن تنفعل بالأحداث الدائرة حولها سواء أتها من مصادر معلومة أو جوانب مجهولة. مهما بدا أن للأحداث والمفاجآت من أثر هام في إحداث التغيير والتزام التبديل والتطوير لبعض خطوط الخطط المرسومة من دون الإخلال باستمرارية الاستراتيجية الواحدة في الاتجاه الواضح والمرمى الجليّ المعالم. ويقدر ما يكون مدى الرؤية شاملاً وكلياً إلى

ماهية الحقيقة والمعرفة الصحيحة تندر المفاجآت المبالغتة وتقلّ تدابير الطوارئ الجانحة عن طبيعة المعطيات الواضحة القواعد والمقاصد.

إن عِظَم التلبية الفذة التي جسدها القوميون الاجتماعيون في مواجهتهم لحادثة الجمّيزة وفور بلوغهم إياها قد كشف أمام رؤية الزعيم النافذة حقيقة أخرى عميقة الدلالة على مستوى البنية الصراعية في نفسية صفوف النهضة فبادر إلى تناولها بالبحث والتحليل الوافي:

«لو كان القوميون الاجتماعيون دائماً على هذا المستوى العالي من الاستعداد للتلبية والتأهب للبذل والعطاء لما تجرّأت الرجعة يوماً أن تقف في وجه النهضة وتحاول أن تدافع أمامها عن وجودها ومبرّر وجودها. لو أن أعضاء الحزب يلبّون دوماً حاجات البناء وضرورات النمو بهذا النفس البطولي كما يلبّون تضميم الجراح النازفة ومؤاساة المصابين إزاء ضربات يسدها العدو للطنع في كيان النهضة، لما كانت لنا حتى اليوم مع أعدائنا في الداخل والخارج سوى معركة واحدة فاصلة لنصر الأمة السورية بما يليق بأصالتها ومواهبها. لكننا ما زلنا أقدر على تضميم الجراح منّا على تلبية العقلية الأخلاقية الجديدة التي تضعنا أبدأً في حال صراع دائم وموقع نضال مستمر، لأننا نشأنا جماعة تبحث عن القتال ولا تدع القتال يبحث عنها. لأننا نحن القوة الفاعلة المتحرّكة، القوّة المهاجمة لا المدافعة نحن بطبيعة نشوئنا قوّة مهاجمة لا مُدافعة».

القائد لا يجعل همّه المحافظة على سلامته

ليست حياة الزعيم ضماناً لبقاء النهضة
إنّما النهضة هي الضمانة للزعيم وللأمة
بأسرها

سعاده

أعلن الزعيم الثورة القومية الاجتماعية الأولى نهار الأربعاء في الرابع من تموز 1949 فراح القوميون الاجتماعيون يتسابقون إلى تلبية الواجب وتنفيذ ما عُهدَ به إليهم من أوامر وتعليمات اقتضتها عمليات الثورة القومية الاجتماعية. بينما كان هذا الحدث الكبير يحاول أن يتجسّد أمراً واقعاً كانت تبدو في الأفق بوادر غيوم تثير الشك بنوايا حسني الزعيم تجاه الحزب بالرغم من استمراره العملي بدعم الثورة ومؤازرة الحزب في سائر مواقفه وحاجاته مجدداً تأكيد وعوده بقوة أكثر جلاءً وأكثر إلحاحاً ومبالغة. إن هذا الشك بصدق موقف حسني الزعيم كان يساور الكثيرين ممّن بدرجات متفاوتة دون أن يكون لدينا من الوقائع ما يدحض هذا الشكّ أو يثبتته.

وقد كنتُ ممّن استبدّ بهم القلق وكثُر في تصوراتهم الشكّ إلى حدّ القيام بعمل ظننتُهُ لأوّل وهلة صالحاً لإنقاذ الوضع المشوب بالشكوك

والهواجس إلى جانب انطلاق القوميين الاجتماعيين في ممارسة أروع الواجبات وأشدّها صعوبة وخطورة. فأقدمت على تجاوز صلاحياتي كمدير لمكتب الزعيم وناموسه الأول وأرسلت إلى الأمانة الأولى التي كانت قد غادرت بيروت إلى اللاذقية أطلب منها موافاتي سريعاً بأوراق الزعيم الخاصة مثل جواز السفر وتوابعه من المعاملات الضرورية في حال حاجة الزعيم إلى السفر. وقد وصلتني جميعها خلال أربع وعشرين ساعة إلى دمشق حيث كان الزعيم وكان مركز الحزب إبان الفترة الأولى من بدء الثورة. اتخذت هذا التدبير دون علم أحد ودون إطلاع الزعيم نفسه عليه لأخذ موافقته. حتى إذا أصبحت بحوزتي جميع الأوراق اللازمة لمغادرة الزعيم الشام أفاتحه بالأمر.

ما أن تسلّمت الأوراق المتعلّقة بمعاملات الزعيم للسفر، حين يشاء السفر، حتى سارعت أطلب إلى الزعيم خلوة لمسارته بأمر هام، ولمّا انفردت بالزعيم في غرفة مكتبه بادرت بقولي وأنا شديد الانهماك بما ينتابني من قلق ومن فرحة كبرى:

- إني أرى، يا حضرة الزعيم، أنّ الشكّ بحسن نوايا حسني الزعيم يتزايد في نفسي حتى غدوت أخشى أوخم العواقب من جرّاء بعض المؤشّرات المرعبة التي تبدر من قبل حسني الزعيم. وها أني - وقد رفعت الأوراق بيدي أمام الزعيم - قد أحضرت جميع الأوراق التي تسهّل لكم مغادرة البلاد قبل أن تفاجئنا الأحداث بمكروه. وأرجو من حضرة الزعيم قبول اقتراحي بضرورة اتّخاذ التدابير لمغادرة الشام قبل فوات الأوان. لأنّي أعتقد أن حياة الزعيم وسلامته هما الضمان لحياة النهضة وسلامتها واستمرارها.

ما كدت أصل بحديثي إلى هذا الحدّ حتى لاحظت في وجه الزعيم ما أوقفني عن متابعة الكلام. راح الزعيم يحدّثني بنظرات حادّة تعبر عن عميق ما كان يعانیه من ألم ومرارة وقد بدت على ملامحه علامات التجهّم والتأثر

المنفعل كان يصعب النظر إليها كما يتعدّر عليّ انتزاعها من مخيلتي وقد مرّ عليها ما يقارب الثلاثين سنة كأنّ هذا المشهد لم يمضِ عليه سوى لحظات قصيرة. ثم أخذ الزعيم يتكلّم بتأنٍ ظاهر وتمهّل واضح كمن يملئ كلمات مأثورة أو عظة نادرة البلاغة يودّ حفظها واستيعاب جميع دقائقها لتغرس في الفكر والنفس.

• المسألة، يا حضرة الأمين، ليست مسألة شكوك وتوقعات لأسوأ الاحتمالات تأتينا ممّن يؤكّدون صداقتهم للنهضة وبعّدون للوقوف إلى جانبها ومؤازرتها في كلّ شأن؛ إنّما المسألة الحقيقية هي أعمق بعداً في وجودنا ممّا خطر لك. لقد فاجأني تفكيرك المستغرب بقولك أن حياة الزعيم ضمان لحياة النهضة واستمرارها بينما الحقيقة هي أنّ النهضة وحدها الضمانة لحياة الزعيم وحياة الأمة بأسرها. هي الأمل الوحيد والعمل الحقيقي لتحقيق سيادة الأمة وكرامتها. هل بلغك مرة أن قائداً وهو في قيادة قواته إلى ميادين القتال وساحات الدم يجعل همّه الأول المحافظة على سلامته واتخاذ الحيطة لتأمين هربه من المعركة ومن تحمّله لمسؤولياته؟ هل يصحّ أن يكون هاجس الزعيم التخلّي عن أقدس واجباته من أجل سلامته الشخصية كأنّها هي المطلب الأخير فوق كرامة الأمة وكيان النهضة في حين يضرب القوميون المناضلون أمام العالم والتاريخ الرقم القياسي بالصمود والبطولة. فمنذ ساعات سقط الصدر عسّاف كرم شهيد الحرية والواجب في موقف جبّار متحدياً قوى الجيش اللبناني التي تألّبت عليه وأحكمت من حوله الطوق فلم يستسلم ولم يتراجع مغلوباً على أمره وهو يصمّم على خوض المعركة حتى النهاية المشرفة.

وإنّي مع تفهّمي للدوافع العاطفية التي حدثت بك إلى مثل هذا التفكير الانفعالي وحملتك إلى سلوك هذا النمط من التصرف فإنّي أرفض اقتراحك لي بإعداد العدة للهزيمة وأحسبه موقفاً خلواً من متانة الرؤية إلى الحقيقة

ومن بعد النظر وعميق التوازن بين معطيات العقل وجموح العاطفة وجنونهاً أيضاً التي من شأنها أن تحدّ من أفق التفكير للإنسان وتثبط عزمته أمام الملمّات.

ولم يشأ الزعيم أن يتناول مجموعة ما كنت قد أعددت له من أوراق خاصة تمكّنه من السفر والابتعاد عن قلب المعركة الناشئة. فألقيتها بهدوء من يتوارى عن العيان خشية افتضاح أمره على طاولة أمام الزعيم وأنا شديد الارتباك عميق الشعور بخيبة الفشل غير المتوقع. وكم كنت أعلّل النفس بإمكان إقناع الزعيم بوجهة نظري تحقيقاً لسلامته الثمينة الغالية. هكذا بين مرارة ما أصبنا به من جسيم الخسارة وعظيم النكبة بفقدان الزعيم على يد الغدر والخيانة وبين الاعتزاز بقدوة الزعيم أمام الموت في سبيل ما أوقف نفسه له، بين المرارة والاعتزاز نقف في الثامن من تموز لدى ذكرى الشهادة مجدّدين العهد لتصبح النهضة بالفعل أمل الأمة الوحيد وضمانةً لحقّ سورية وخيرها وازدهارها. ونحقّق النصر الذي وعدنا به سعاده المعلّم القدوة فكان الثامن من تموز.

الاعتقال الأخير

لم يُعْطَ لامرئ أن يهين سواه، قد
يهين المرء نفسه

سعاده

ليس من موقف للزعيم إلا وتجلّت فيه عبرة تنطق بكبر القيادة وأنفثها الخلوقة الخلّاقة وأشرقت منه النفسية الرسالية المؤمنة بالفضيلة والمثل العليا التي تزخر بها الأصالة السورية عبر أحقاب من التاريخ وملء أحداثه الخطيرة ومن خلال جليل أفعاله الجبارة. سواء كانت هذه المواقف الفدّة في أشدّ الظروف تألّفاً وإضاءة أو في أحلكها ظلماً وظلاماً فإن سعاده يظل القدوة الرائدة التي تعلّم وتهدي بالأعمال والأفعال إلى أسمى القمم وأروعها. فهو من استطاع أن يبعث حتى في النفوس التي تتلاعب بها مفاصد الأحقاد والعصبية العمياء المدمرة الثقة بالنفس والوعي لحقيقة البناء والعطاء. لأن المرء أمام شخصية سعاده يشعر أنه قطعة جبّارة قدت من ماهية العظمة وفاضت من كُنْه القدرة المظفّرة التي تجعله أهلاً للصمود والانتصار المبين.

عن أمثال سعاده قد تكلم جبران خليل جبران أحد أدباء الطليعة الذي سعى إلى الانعتاق من الأغلال وعمِل للنهوض الواعي من المخازي حين

قال: «العظيم العظيم من يحول هينمة الريح إلى أنشودة بالغة العذوبة والحلاوة». أجل هو ذا سعادته العظيم العظيم يحول دائماً بفعل تعاليم النهضة السورية القومية الاجتماعية وقدرته على تجسيدها جميع المفسد التي جلبت الويل على الأمة السورية إلى قوة صمود وقدرة صراع وبطولة قدوة في تغيير وجه التاريخ تحقيقاً لعقيدة الحرية والواجب والنظام والقوة هو يجعل من صديد التباغض وبتن التخاذل المذلّ مناقب قومية اجتماعية تزيل جميع الحواجز بين أبناء الأمة الواحدة وتوحد العقول والنفوس في عقلية أخلاقية جديدة في بوتقة مجتمع واحد وقضية كلية شاملة.

ما أن سلم حسني الزعيم ضيفه الزعيم إلى السلطة اللبنانية صبيحة السابع من تموز 1949 حتى بادرت هذه السلطة إلى التحقيق معه في ما نسب إليه ومحاكمته بإصدارها حكم الإعدام عليه ثم أعدمته بسرعة مذهلة ومحيرة لمعنى العدالة وقيمتها في حياة الشعب وكرامة الأمة.

لدى تصديق رئيس الجمهورية اللبنانية آنذاك على حكم الإعدام بحق الزعيم تقدّم أحد حراسه ليبلغه القرار الأخير ويطلب منه الاستعداد للانتقال سريعاً إلى مكان التنفيذ. عند ذلك أبدى الزعيم رغبته في وضع رسالة موجهة إلى عائلته راجياً من حارسه إيصالها إليها مفتوحة إذا كان الأمر مباحاً كمطلب له أخيراً قبل تنفيذ الحكم عليه. فما كاد الحارس يسمع من الزعيم كلمة رسالة حتى تفجّر غيظاً وغضباً وأجابته بقوله:

«أنت تريد أن تكتب رسالة لتوجه إلى الناس الشتائم والإهانات كالعادة، هل تظن أنني سأسهل لك الأمر وأساعدك به».

ابتسم الزعيم لدى تلفّظ حارسه بهذه الكلمات. والمرارة الكئيبة ترسم على قسّمات وجهه من شدة ما يملأ نفس الحارس من غباء ويوغر صدره من حقد ضده. هكذا لُقّن الأغبياء المضللّون من شعبنا عن الحزب وزعيمه

مما يحملهم إلى إبداء مثل هذه الأفكار والإتيان بمثل هذه التصرفات الشائنة. لكن الزعيم لا يمكن أن يضيق ذرعاً أمام أية مشكلة مهما استعصت ولا أن ينفد صبره إزاء أية صعوبة مهما تعقدت. تلقى ملاحظة الحارس بروحية المعلم وأخلاق القائد القدوة. وهو يتأمل توتر أعصابه وشدة حنقه وغيظه لمجرد فكرة تكليفه، بحمل رسالة من الزعيم إلى عائلته إذا كان ذلك ممكناً ومسموحاً ثم قال له يهدوء عميق مفعم بالألم:

«لا تتسرع يا سيّد، ليس من شأنى أن أوجّه لأحد أية شتيمة ولم يكن في تعاليمي أو سلوكي ما يسيء إلى أحد أو يعرضه لأذى أو إهانة. لم يعطَ لامرئٍ أن يهين سواه، قد يهين المرء نفسه».

مضت دقائق والحارس مطرق مغرق في الصمت. ينتقل نظره بين الأرض ونظرات الزعيم المحدقة الحانية. تنتاب ملامحه إمارات الارتباك الشديد والخجل المكدود. ما لبث بعدها أن تقدم بتؤدة من الزعيم والغصّات تقطع نبرات صوته وهو يقول له:

«اعذرني، يا أستاذ، أنت رجل كبير تواجه الموت بعد ساعات مبتسماً مآزناً. أما أنا فأخشى خسارة وظيفتي، مورد عائلتي الوحيد، أسأتُ بما قلتَه لك يا زعيم، اعذرني لأنني لا أستطيع أن آخذ منك شيئاً لأحد». وراح يلثم بقية سيجارة كانت تذوي بين أصابعه مسرعة إلى الانطفاء هباءً ورماداً تلفظ آخرمق من نارها.

على كِلِّ يا أستاذ تبقى النفسية السورية أقوى من النفسية المصرية

خلال الفترة الواقعة بين السنة 1949 وسنة 1955 كان النشاط الحزبي عامة على أشده حماساً واحتداماً بين مختلف الأحزاب السورية في الشام تتسابق جميعها للوصول إلى الشعب. وكان مركز الحزب السوري القومي الاجتماعي قد انتقل آنذاك من بيروت إلى دمشق إثر استشهاد الزعيم غيلة بمخالب «العدالة» الانعزالية. أخذ الحزب يلاقي انتشاراً واسعاً وإقبالاً شديداً لدى مختلف صفوف الشعب وفئاته. وتنوعت كثيراً حينذاك أساليب ووسائل الوصول إلى نفسية الشعب ووجدانه ووعيه. وترسخت عمقاً وشمولاً الدعوة القومية في جميع الأوساط الشعبية وشتى المؤسسات دون استثناء. وقد أصبح للحزب إبان تلك الحقبة عدد من النواب سواء من بين أعضاء الحزب أو من أصدقائه والمؤيدين الذين كانوا يتعاونون معاً في جهة واحدة معتمدين اتجاهات الحزب وتوجهاته القومية الاجتماعية أساساً لمواقفهم وتداولهم للشؤون العامة.

في سلسلة الجولات الحافلة التي كان الحزب يقوم بها تباعاً إلى مختلف المناطق الشامية زرتُ بوصفي عميداً للداخلية مديرية «محددة» التابعة لمنقذية حماه حيث كان للحزب فرع قوي وناشط. وكان برفقتي منقذ عام حماه وناظر الإذاعة. دَعَوْنَا جميع الأهلين قاطبة للاستماع إلى محاضرة يلقيها عميد الداخلية بموضوع العروبة القومية الاجتماعية في الساحة العامة للبلدة حيث نُصِبَ مذياع كبير بوسعه أن يحمل الصوت جلياً واضحاً إلى كلّ أرجاء محددة ومنزلها. فلبّى الدعوة جمع غفير من مختلف الفئات والأحزاب والأوساط فضلاً عن القوميين الاجتماعيين وذوهم والمناصرين.

بدأت المحاضرة بعرض دقيق لمعنى العروبة عامة وتفنيدها ماهيتها وأبعادها وفق النظرة القومية الاجتماعية التي تتوخى الاستناد إلى المعطيات العلمية والانطلاق منها إلى إثبات كل حقيقة والدعوة إلى اعتناقها. وقد تناولت المحاضرة التوكيد على أهمية عروبة الحزب وتمسّكه بها وسعيه العقدي لإنشاء الجبهة العربية التي تشكّل القوة الحقيقية القادرة على جعل العالم العربي بأسره السدّ المنيع ضدّ جميع المطامع الأجنبية التي تستهدف النيل من سيادته ومصالحه وكرامته القومية وقد استغرقت المحاضرة ما يقارب الساعة ثم أُفسح في المجال للأسئلة لممارسة الحوار البنّاء الذي يبيح لمن يشاء من أسئلة واستيضاحات وأن يبدي ما يروق له من وجهات نظر قد تعارض رأي الحزب في الموضوع المطروح والمقارنة الموضوعية المسؤولة بين سائر الآراء المغايرة تحقيقاً لمبدأ حرّية الرأي وحقّ الحوار الراقى الهادف أبداً إلى البناء والارتقاء إلى الأفضل والأصح. سرعان ما انهالت على المُحاضر الأسئلة والتعليقات على ما ورد لديه. وتضاربت المعارضات المتفاوتة لمفهوم العروبة القومية الاجتماعية وقد كان جلياً أن المتعلّمين بين الحضور وفرة بارزة وأن حماسهم لمقارعة الحجّة بالحجّة بدا شديداً وحرّيصاً على تقرير الحقيقة خدمة للمصلحة العامة بقوة الحقيقة. وتوالى الأجوبة المسدّدة

للأسئلة والملاحظات عامة بجو جميل من الهدوء ومن الإصغاء والسعي لبلوغ التفاهم المنشود بالرغم من تباين الآراء وتوزّع المفاهيم حول العروبة وكيفية العمل لتحقيقها. إلى أن تقدّم من بين جمهور الناس أحدهم متحمّساً ومسرّعاً نحو المنبر وهو يحمل بيمينه بضعة أوراق غير قليلة. فاعتلى حالاً المنصة وراح يتلو من وراء المذياع على مسامع الحشد محاضرة مسبّبة عن تاريخ العرب وأمجاد العروبة وما يفهمه هو من معناها ومدلولها. وأخذ يشيد بمصر «الشقيقة الكبرى» ويفاخر بفضلها على العروبة وفعل مواقفها العربية الفدّة بتدعيم دنيا العرب وتوليّها قيادة العرب في أخرج الأوقات وأدقّ المراحل إلى تحقيق القومية العربية حتى خُيّل للناس أن مصر هي وحدها العروبة بأسرها ووحدها العاملة لها ورائدتها السبّاقة منذ قبل الزمن التاريخي الجلي. دون أن يكلف حضرة المحاضر نفسه في خضمّ تحمسه البالغ البلاغة أن يتوقف ولو قليلاً لدى أي بلد عربي آخر لينوّه بدوره في العمل العربي وفعل مواقفه العربية المجيدة. كم كان تصرفه الكيفي بأحداث التاريخ لا علمياً ولا مسؤولاً.. وكم كان إصراره الانفعالي على جعل العروبة وقفاً على مصر من دون سائر الشعوب والدول العربية إصراراً جامحاً لا منطقيّاً ومجحفاً بحق جميع من عمل للعروبة وعالج شؤونها.

تلك الأثناء وفي لحظة خاطفة خطرت لي فكرة مفاجئة وجدت أنه من المناسب أن أقطع على المحاضر لهاث أنفاسه لألقمها سريعاً على مسامع الجمهور. وقد سرّرت بين صفوفه موجة تبرّم واستغراب. اقتربت حالاً من المذياع وأزحته عنه قليلاً قاطعاً مجرى حماسه المتدفّق لأقول «على كلّ يا أستاذ فإنّ النفسية السورية تبقى أقوى من النفسية المصرية»، ما كاد يسمع هذا «التجديف» حتى تفاقم اندفاعه الجارف وبادرني مشدداً وبصورة حاسمة: «كلا يا أستاذ النفسية المصرية هي الأقوى». فما كان منّي إذ ذاك إلا أن أثنت وثنيت على قوله بمنتهى الهدوء والرضى «لا بأس أن يكون

ذلك، لكن في هذه الحال لا يكون للأمة العربية الواحدة وجود على الإطلاق ما دامت لها نفسيتان متغايرتان لا نفسية واحدة». عندها اعتراه ذهول عميق الحيرة والارتباك، ثم ما لبث أن غادر المذيع وسط تصفيق الحضور دون أن يُتِمَّ إلقاء محاضرتَه.

وكانت هذه إحدى المناسبات الكثيرة التي صحَّ فيها الصحيح دون كبير عناءٍ بتأكيد صحَّة المفهوم العلمي الرصين لمعنى العروبة القومية الاجتماعية تجاه أي اندفاع انفعالي هو أقرب إلى الانجراف وراء الأمانى والنيّات منه إلى الأخذ بحقيقة الواقع العملي. كذلك أيضاً هو الأمر بالنسبة إلى العقلية الانعزالية التي تتصوّر إمكان وجودها واستمرارها مقطعة الأوصال منقطعة عن الاتصال الأصيل والتفاعل الحيّ في الجسم السليم، جسم الأمة السورية التامة والوطن السوري الواحد. مهما كانت النوايا والمقاصد حسنة وجيدة فالأوطان لا تقوم إلا على المعطيات العلمية الواقعية الصالحة وحدها للبناء الصالح والبقاء السليم والاستمرار الحيّ والصمود الفدّ المنتصر.

اقتنع فاعتنق فاستشهد

تعجز مرارة الخيبة في النفوس الأصبيلة عن
تعطيل قدرة الوعي للحقيقة والإقبال عليها
سعادته

حضر ذات يوم الأمين الشهيد أحمد حمود لزيارتي في غرفتي بدمشق من أوائل سنة 1950 حين أصبح مركز الحزب السوري القومي الاجتماعي في دمشق إثر إعدام السلطات اللبنانية للزعيم لأنه القائل «سورية للسوريين والسوريون أمة تامة». وكنت آنذاك عميداً للداخلية.

تبادلت بعض طرائف النوادر والرفيق الأمين الذي كان لدي من أصفى الأصدقاء ومن أكثرهم قرى لأفكاري وتأملاتي. لقد كان يساررني بكوامن نفسه وخفايا خواطره الصميمة. ثم طلب مني موعداً قريباً للقاء إذاعي ثقافي مع أحد المواطنين أصدقائه المقربين وأضاف أن المواطن هو ممن يؤمنون بالعروبة ويعملون لها بقناعة وصفاء وهو يود الاجتماع إلى مسؤول قومي اجتماعي للاطلاع منه على عروبة الحزب وتدارس وجهات التقارب والتباين بين عروبة القومية العربية وعروبة القومية الاجتماعية. عُيّن موعد اللقاء لليوم التالي. وقد تمّ في حينه مع الأمين حمود والمواطن رفيق سيف

الدين. دارت الأبحاث بيننا وتوسّعت حول مفهومنا القومي الاجتماعي للعروبة الذي نعتبره المفهوم العملي العلمي للعروبة الحقيقية من جميع الوجوه الاجتماعية، الثقافية، السياسية والاقتصادية. وتناول الحوار كيف أن العالم العربي هو واقع بيئات جغرافية متنوعة، وبالتالي، بيئات اجتماعية قومية متباينة، لكلٍ منها ميزاتٍ وخصائصها كما تجمع بينها مصالح مشتركة ومفاهيم متقاربة تجعل منها عالماً واحداً تنضوي في إطاره أمم متعددة لا أمة واحدة فقط. على هذه الأسس العلمية الصحيحة تؤمن نهضتنا القومية الاجتماعية بوجود عروبة واقعية عملية وتعمل لها مع السعي لإنشاء جبهة عروبة واحدة تقف سداً منيعاً ضدّ كل اعتداء أجنبي يحاول أن يمسّ سيادة أي أمة من الأمم العربية التي تُكوّن كلّها متضامنة العالم العربي بأسره.

تشعّب النقاش وشمل سرد الدقائق والتفاصيل في تبيان معنى الأمة والقومية ومعنى العالم الذي يضم عدداً من الأمم المتفاعلة المتجاورة فتبادل الكثير من المصالح والمفاهيم المتجانسة. وقد اتّضحت بدقة معالم الاختلافات في وجهات النظر وأسبابها. والصديق سيف الدين من القائلين بوجود أمة عربية واحدة وما سورية سوى جزء منها أو أحد أقاليمها كذلك حال بقية الأقطار والأمصار العربية الأخرى.

وقد ساد البحث جو ممتع بروعة التجاوب الموضوعية وروحية السعي الدؤوبة من أجل تلمّس الحقيقة والتلاقي لديها لاعتناقها بنبل ووعي ومسؤولية والذود عنها بأمانة وإيمان صارم.

انتهت تلك الجلسة الطويلة والمريحة أيضاً ولم تنته فيها إلى شيء يذكر من التوافق الفكري العقدي سوى إلحاحنا على لقاء قريب وإصرارنا جميعاً

على ضرورة متابعة البحث مهما تشعب وتوسّع حرصاً منا للوقوف على الحقيقة وجلائها من جميع جوانبها وزواياها.

وتوالت اللقاءات مع المواطن رفيق سيف الدين بعناية حثيثة من قبل الأمين حمود وحضوره الدائم المواظب. وكانت الأبحاث خلالها تدور عن العروبة في مختلف معطياتها ومفاهيمها سواء كانت الوهمية العاطفية وما تنطوي عليه من دافق الاندفاعات وفيض الأمانى والنوايا الأخاذة أو العروبة العملية التي ترى التاريخ سجلّ الأعمال والأفعال لا سفر الأمانى والنيات مهما سمت وخلصت. «فالنيات لا تكون إلا بالأعمال».

مضت أشهر وهذه الاجتماعات لم تنقطع إلا لمأماً واضطراباً وكنا لدى كلّ حوار عن العروبة وشتى النظريات فيها نقطع رويداً رويداً مجالات عميقة مركزة في تقريب وجهات النظر وجلاء وحدة الرؤية ووحدة الهدف والغاية المنشودة. بالرغم من التباين في البدء بين المنطلقات إليها وتفاوت الأساليب لبلوغها حتى غدت بعد حين بجهد متواصل التفاصيل عينها والدقائق كلّها متوافقة شكلاً ونهجاً في التعبير والمضمون الجوهرى.

ثم انقطع فجأة الصديق رفيق سيف الدين عن الاتصال بي مدة لا تقل عن الأسبوعين إلى أن حدثني هاتفياً بلهفة وشوق متفقداً أحوالى الخاصة والشؤون الحزبية ومؤكداً توفقه للقاء عاجل وطويل المدى برفقة الأمين حمود كالمعتاد.

فكان ذلك اللقاء بعد انقطاع خلته مديداً وحاولت تبين بواعثه مع نفسي. وكانت الأحاديث هذه المرة تدور حول تسديد بعض الأسئلة المحددة عن المفهوم القومي الاجتماعى للأمة للقومية، للاجتماعية، للعالم العربى وللجهة العربية وكانت بمثابة استيضاحات تصفية تناولت تفصيلات مواضع سابقة قد أشبعت درساً وتمحيصاً. وكان الصديق سيف الدين

حينذاك منفرج الأسارير أشدّ حبوراً وتألقاً من أي وقت مضى كأنّه يتوقع بشرى بحدوث أمر عظيم أو يعدّ نفسه للقيام بعمل جليل جدير بالغبطة والابتهاج.

بعد هزيمة من صمت مباغت حاملاً في طياته غمار التساؤلات وغزارة التأمّلات في البعيد البعيد بادر الصديق رفيق سيف الدين برصانة وانسراح إلى إعلان قناعاته التامة بصحة المفهوم القومي الاجتماعي للعروبة الواقعية وصدق سائر المبادئ السورية القومية الاجتماعية وهو يودّ الآن من أعماق يقينه هذا وبملاء تحسّسه بالمسؤولية أن ينتسب إلى صفوف الحزب السوري القومي الاجتماعي مع أنه يشعر بالألم يحزّ بنفسه لعدم وجود أمة عربية واحدة وهو يواجه الحقيقة السورية القومية الاجتماعية بمرارة موجعة لأنّ هذه الحقيقة قد أسقطت اطمئنانه السابق إزاء ما كان يحسبه صواباً ويملاً قناعاته خلال سنين عديدة قضاها أليف إيمان ونشاط لقضية العروبة الواحدة للأمة الواحدة. لكنّه يسلم غير مكابر ولا مرغم بالحقيقة الكليّة الأخيرة ويسير بهدّيتها معتزلاً بينما يتقدم إلى اعتناقها عقيدة سورية قومية اجتماعية خالصة وبكل إخلاص وكل عزيمة صادقة من أجل تحقيق الأمر الخطير الذي يساوي كلّ وجودنا. مضت سنوات على اعتناق الرفيق رفيق سيف الدين للعقيدة السورية القومية الاجتماعية ومن ثم أذى ضريبة الدم بأمانة الشهادة وزخم البطولة المؤيّدة بصحة العقيدة.

إن إبداء الرأي واجب في محلّه، منكر في غير
محلّه. وما أكثر الذين يبدون آراء في غير
محلّها

سعاده

تتكاثر الآراء والنظريات في شتى المواضيع والأبحاث المتداولة في هذا العصر الذي ضرب الرقم القياسي في تعدّد الاختراعات والاكتشافات سواء في العلوم العملية أو العلوم الإنسانية. من هذه العلوم ما يعاد النظر به من جديد بعد أن مضى على اعتباره نهائياً خلال أجيال خلت. ومنها ما هو جديد لم يسبق أن تداوله الإنسان وتطرّق إليه البحث أو تناوله العقل بالتحليل والتمحيص. وقد امتدّت آفاق المواضيع واتسعت أبعادها وأنواعها إلى حدود مذهلة حقاً. حدود المفاجآت الكبرى في عالم كل علم، كل فن وكل فلسفة دون توقّف ولا تمهّل. وقد اشتمل التطور والتجدّد على الأصول والمعطيات والأساليب والوسائل قاطبة. حتى بلغ التسابق في إبداء الآراء أشدّه شمولاً لمختلف المواضيع والظواهر التي غدت تواجه الإنسان في كل زمان وكل مناسبة. لقد جرف حبّ الحوار من أجل الحوار اعتباراً معظم الناس، كما

استولى عليهم التعلّق بالتنظير الجدلي دون أن يترك لهم مجال التأمل الصحيح والتعمق الرزين. كأن هؤلاء الناس قد تحولوا بين ليلة وضحاها إلى جمهرة من نوابغ أفذاذ في كلّ شأن من شؤون الفكر والإلهام العبقري. لا شك أن إبداء الرأي واجب في محلّه، لكنه مُنكر في غير محلّه. وما أكثر الذين يبدون آراء في غير محلّها.

● يروي لنا الزعيم في خطاب أول آذار سنة 1938 كيف أملى الخوف من انكشاف أمر الحزب على عدد من الأعضاء آراء في غير محلّها: «كم وكم من الذين جاؤوا يراجعونني في أمر إتلاف بطاقات العضوية المثبتة لمسؤوليات الأعضاء. فرفضت الإصغاء لصوت الخوف والوجل وأجبت الذين كانوا يطلبون إتلاف التذاكر والاستغناء عنها «إننا حين ندخل الحزب السوري القومي ندخل في حياة جديدة لا نريد أن نتخلى عنها».

والذين كانوا يقولون «لا حاجة لهذه البطاقات، لأن الإيمان في القلب، والأصل الباطن وكلمة الرجل تكفي لتقييده» أجبتهم «أن الظاهر يجب أن يدل على الباطن والذي يتقيد بكلمته لا يرفض أن تكون هذه الكلمة خطية وحاملة توقعه». إني أبغضت السياسة في القومية وكرهت الاحتيال للتهرب من المسؤولية بشرف».

● ذات مرة اقترح على الزعيم أحد الخائفين من الصعوبات، المهربين من مواجهة مسؤولياتهم في الصراع والصمود: «ما رأي حضرة الزعيم، تسهيلاً لانتشار الحزب وضماناً لاجتيازه المراحل الصعبة، أن يُصار إلى تشكيل فروع للحزب على أساس الطوائف والعشائر المنتشرة هنا وهناك حسب أوضاع السكان وتوزّعهم في المناطق ثم تُضمّ هذه الفروع بعضها إلى بعض قومياً اجتماعياً. أليس هذا الأسلوب أجدى للعمل وأضمن للنتائج المتوخّاة على أهون سبيل؟».

ما كاد الرفيق المقترح ينهي كلامه هذا، حتى بادره الزعيم قائلاً: من الممكن قبول هذا الرأي والأخذ بتنفيذه واعتماده، إذا صح لطبيب أن يعالج مريضاً يشكو ألماً في إحدى يديه بطريقة قطع يده أولاً، لمداواتها على حدة تسهيلاً لمزاولة المريض لأعماله المعتادة. حتى إن تعافت تلك اليد، هكذا، تعاد إليه بعد حين. فيلقى الشفاء والعافية المنشودة، على أهون سبيل وبأقل عناء للمريض.

ما قولك بهذا الأسلوب بالمداواة الذي يبتر ما يقتضي تأمين تفاعله الحي في دورة حياة صحيحة سليمة لا سبيل إلى الإنقاذ والقوة إلا بها. شتان بين إزالة المرض من الجسم والإجهاز على هذا الجسم لإزالته من الوجود أو تشويه وجوده الجميل على الأقل.

● كنتُ في إحدى جولاتي الحزبية إلى القامشلي كي أُلقي محاضرة عن العروبة وكيفية فهمنا لها وموقعنا العقدي منها. وقد جَلَوْتُ الفرق بين العروبة الوهمية وعروبتنا العلمية التي تثبت وجود الأمة السورية التامة، كما تثبت ضرورة إنشاء الجبهة العربية المكوّنة من سائر أمم العالم العربي، والتي تشكّل جبهة عربية منيعة ضدّ كل اعتداء أجنبي مهما بلغ من القوة والضاورة الاستعمارية. وكنتُ أُجيب على مختلف الأسئلة التي يوجهها المواطنون بهذا الصدد بإدلاء الأدلة والبراهين القاطعة على صحة مفهومنا للعروبة الحقيقية.

وأخيراً، وكنت قد أوشكت على الانتهاء من المحاضرة، يتقدّم أحد الذين أفاضوا في توجيه الأسئلة والحوار معي في الموضوع المطروح، ليعلن بصوت جهوري على مسمع من الجميع: «إنّي، يا أستاذ، قد اقتنعت بوجود أمة سورية ذات خصائص تميّزها عن سواها كأمة تامة، وأيقنت بوجود عالم عربي يضم عديداً من الأمم التي تربط بينها شتى الروابط والمصالح

الأساسية الأكيدة. لكنني مع ذلك ما زلت بحاجة إلى الإجابة على سؤالي الأخير إليك، إذا سمحت: لماذا لا توجد أمة عربية واحدة؟».

خيّم على الحضور وجوم حائر وأخذوا يتبادلون الابتسامات. ثم راحوا يتطلّعون إلى الجواب بنظرات تعبّر عن عجزهم لغرابة المنطق اللامنطقي.

تأمّلت السائل، والابتسامة العريضة كادت تفضح استغرابي لسؤاله وتغني عن أي إفصاح آخر. لكنني استدركت وقلت: «كل منا، يا صاحبي، أصبح مقتنعاً بحقيقة وجود الأمة وحقيقة وضوح شخصيتها. وكلانا يجهل الأسباب لعدم وجود أمة عربية واحدة مع تأكده من عدم وجودها علمياً وقومياً اجتماعياً. أما الفرق بيننا فهو إنني واثق من صحة معرفتي ومعتمد عليها. بينما أنت تعرف الحقيقة ولا تريد أن تواجهها مواجهة فعلية موضوعية. إن أمنيته بوجود أمة عربية، لا يضيرني وجودها، إن وجدت، هذه الأمنية تطغى لديك على الواقع وعلى سلامة المنطق. ثق، يا صاحبي، بوجود الأمة السورية وتعال نعمل معاً لعزّها وسعادتها. بذلك نحقق العروبة، وننصر قضية العرب الواقعية في كل أمم العالم العربي، دون أدنى ريب أو أي إشكال يضعنا في حيرة بين ما ندركه بالعقل السليم وما نتوق إليه بالعواطف والأمنيات النبيلة، لكنها غير واقعية.

قد انتصرنا انتصارات غير منظورة
وانتصارات كثيرة منظورة. وسيكون
لانتصارنا الأخير مشهد ينظر إليه العالم
أجمع

سعاده

حدّثني أحد الرفقاء المثابرين على النضال القومي الدؤوب طيلة عقود من عمره قال: بينما كنت ساهراً في البيت مع أفراد عائلتي وأنا أعاني ألاماً صحّية مبرّحة من جرّاء مرض عضال، قرع جرس الهاتف فهرعت أستجلي الخبر فإذا برفيق قديم وعزيز عليّ جداً يسألني عما إذا كان بإمكانه زيارتي تلك السهرة. رحّبْتُ به بحرارة فائقة خاصة ولم أكن قد التقيت به منذ زمن طويل. ورحت أرحّبُ به بشوق كبير. وبعد لحظات حسبتها ساعات قرع جرس الباب فأقبل الرفيق الصديق ومعه رفيقان آخران ممن يشوقني للقاء بهم. وكانوا يتأبطون زجاجة من الويسكي مع لوازمها من مقبلات. جلسنا جميعنا وأفراد عائلتي مرحين فرحين وأخذنا نحتسي بعض المشروب الذي يعالج الآلام والهموم أحياناً بالانصراف عن النظر إليها ومواجهتها على طريقة النعامة. سرعان ما تعالت حرارة المرح كالمعتاد في لقاءات القوميين

الاجتماعيين العائلية واشتد التسابق في إلقاء النكت وسرد القصص مما يدل على عميق الانفتاح لدى القومي الاجتماعي وشديد الإقبال على الحياة لملاقة الغد الأجل. وقد تخلل سرد القصص ذكر الوقائع الشيقة عن أخبار الحزب ومواقف القوميين خلال أحداث من تاريخ النضال القومي الاجتماعي إبّان وجود الزعيم بيننا ومنذ ذلك الحين. تلك الأثناء يقطع الرفيق الصديق جو المرح الغامر نفوس الجميع متوجهاً إليّ بهذه العبارات: يا حضرة الأمين إني أحد تلاميذك العاقين الذين أهملوا واجباتهم القومية الاجتماعية كثيراً تجاهك وتجاه أمثالك من قدماء المناضلين القدوة بسلوكهم وصمودهم. فمن خلال قدوتك لنا تعرّفنا نحن إلى عظمة النهضة وعرفنا الكثير عن حضرة الزعيم ومن خلال رفقاء الزعيم أمثالك كان لنا أجمل الأخبار وأروعها عن سيرة الزعيم وعن مزايا شخصيته العبقريّة الخلّابة. ثم أضاف الرفيق الصديق إني أعتبر أن من قدموا حياتهم كلّها للنهضة وثابروا على العطاء والجهاد بلا كلل هؤلاء قد عملوا للحزب تلبية لواجباتهم هم ونيابة عن كثيرين من المتخلفين المهملين الذين اقتصر اهتمامهم في الحياة على شؤونهم الخصوصية وتحصيل الثروة المالية لأشخاصهم. وأنا من هذه الفئة التي تخلت عن واجباتها العامة للعناية بمنافعها الخاصة فقط ولولا ذلك لما تسوّى لي حياة ما أملك من ثروة. وإني أعتبر أيضاً أن ذلك ولأمثالك حصة بل حقاً مشروعاً في ثروتي وقد جئنا نعلن لك هذا الحق راجين أن تلي لنا طلباً هاماً نلحّ على تحقيقه. ترامى إلينا ما تعانيه من آلام صحيّة وأن الطبيب قد أشار من ضمن معالجته لك أن تمتنع عن متابعة وظيفتك وتتوقف عن كل مجهود مهما كان نوعه حتى يستطيع شفاءك. إن إرشاد الطبيب إليك بعدم القيام بأي عمل يضعك في مأزق أشد حرجاً من المرض نفسه بالنظر إلى وضعك المالي المعروف لدى الجميع. لقد علمنا بالأمر منذ يومين فسارعنا إليك نقدّم حلّنا لهذه المشكلة وهو أن تستقيل فوراً من

الوظيفة عملاً بوصية الطبيب ونحن نؤمن لك الراتب الذي تتقاضاه مهما بلغ قدره. إن إمكانياتنا المالية فضلاً عن عميق استعدادنا الروحي لتحمل هذه المسؤولية بسهولة واعتزاز قومي اجتماعي تجعلنا قادرين على تنفيذ ما نتعهد به بكل أمانة ودقة. ولدى توقف الأمين عن حديثه مصراً على أخذ الجواب في تلك السهرة عينها بقبول الحل المعروض وقد أفاض في تنفيذ استعداده الكامل لتقديم كل حاجات الأمين بمنتهى السرور والارتياح التام. وتوقف الرفيق الصديق أخيراً عند رجاء بالغ الروعة والصفاء، رجاءه بأن يكون للأمين ثقته الكلية بالرفيق الصديق التي يجب أن توازي ثقة الرفيق الصديق بالأمين وأن تتكامل الثقة المتبادلة في ممارسة الواجب القومي الاجتماعي تجاه القضية التي تعاقدا على تحقيقها على أنها تساوي كل وجودنا فكان قبول الأمين واستمر التنفيذ بإيمان عز نظيره في التاريخ.

«ما أشد اعترازي بكم وما أروع النصر الذي أسير بكم إليه» كم انتصرنا انتصارات كثيرة غير منظورة لا تحصى ولا تتوقف إلى جانب الانتصارات الكثيرة المنظورة والمستمرة.

الأمين الياس جرجي قنيزح
شموخ السنديان

كزاس صدر في 1997/12/12
فيه مجموعة من المقالات التي كتبت عن الأمين الياس جرجي قنيزح
بعد وفاته في 1997/10/29

شهادة في مصدر الشهادات*

أنطوان غريب

البقاء للأمة، والبقاء للزارعين في كرمها عمر نضال في ما زرعوا وجنينا من ثمارهم المحببة.

الأمين الياس جرجي قنيزح الذي تناسينا فيه كل الألقاب والأسماء، كما تخلى هو عن كل ارتباط فردي لارتباط أسمى بالأمة والمجتمع، فهو كان لنا «الأمين الياس» ونقطة على السطر.

لن نردد ما كرز به وما حققه طوال مسيرة نضاله التي تجاوزت النصف قرن، فكل ذلك يندرج في صفحات مضيئة من تاريخ النهضة وحزبها.

إنه التحسيد لما رسمه سعادته في وعيه المتوقد لمثال القومي الاجتماعي، التزاماً نضالياً ومناقب أخلاقية، وصلابة موقف وإصرار مثالي على وقف كل نبضة من عمره لقضية الأمة ونصرة نهضتها في بناء أجيال أعدها لتحمل المشعل من بعد جيل التأسيس.

«أمين الياس» لأنك أسقطت مثالب الأنانية والفردية والفئوية، ترجلت عن سهوة النضال في استراحة استحققت وزنائها، لمن أنشأت وريبت وهذبت، فأنت في الوجدان المثال المقيم، وفي الذاكرة صورة إشراق محضوي، وسنلتقيك عند كل صباح ديك وقبل كل هجمة ليل وبالتحية زاوية قائمة لحياة سوريا، أملاً بأن نقاربك في المثال الذي كنته لنا.

* من الافتتاحية في مجلة «البناء»، العدد 897 تاريخ 1997/11/8.

قائمة مديدة*

علي قانصو

ما أمرّ مشهد رحيلهم، وما أثقله على الذاكرة:
تراهم يعبرون إلى مشواهم الأخير، من أمام ناظريك، من بين يديك، يعبرون
واحداً إثر واحد، قائمة مديدة إثر قائمة، وسنديانة شامخة إثر سنديانة.
بصمت كبير، يعبر أولئك الصحابة، صحابة الزعيم، ضفة الحياة فتنطوي
بعبورهم قبضات جبابرة، ومحطات مشرقات من التاريخ.
هؤلاء هم رفقاء سعادته، بناء التأسيس، رواد النهضة القومية الاجتماعية، هؤلاء
أتعبوا الزمن وما تعبوا، غالبوا التنين وما غلبوا، عرفتهم السجون والمناقي، كما الفقر
والعوز، امتحتنتهم الشدائد بقسوة، فما لانت عزيمتهم ولا اهتزّ إيمانهم.
هؤلاء هم ذاكرتنا، تاريخنا، قادتنا، ووجهنا الذي لا يخبو.
ويا أمين اليباس..

أيها الصحابي الجليل، يا ابن الشام، يا ابن لبنان، يا ابن الأردن، أيها السوري
القومي الاجتماعي، ماذا أقول فيك اليوم، وأي كلام يستطيع الإحاطة بتاريخك،
ستون عاماً ونيف، سلختها في النضال الدؤوب والمستمر، واحتملت فيها شتى
ضروب القهر والفقر والتشرد، وما ضعفت يوماً، ولا تأفقت، ولا اعتكفت، ولا
خرجت عن نظام المؤسسات، ويكفي أن يسند إليك الزعيم مسؤولية عميد

* من كلمة ألقاها في وداع الراحل في 1997/10/31، نشرت في مجلة «البناء»، العدد 897 تاريخ
1997/11/8.

الداخلية، ثم مدير مكتب الزعامة وناموسها الأول، ورئيس لجنة التحقيقات الإدارية، لتكون صحابياً مميّزاً، وقائداً قدوة، وبعد استشهاد الزعيم بقيت في مواقع المسؤوليات القيادية: عميداً، وعضواً في المجلس الأعلى، ورئيساً للمحكمة الحزبية العليا، ورئيساً للحزب، وعلى امتداد تاريخك بقيت إذاعة الحزب، يتحلّق حولك المواطنون في البيوت كما في الساحات العامة تعلمهم مبادئ الحزب ونظامه ومناقبه وتاريخه، ولو كان للمسافات أن تنطق اليوم لقلت أنك فارسها ومرّوضها بامتياز، سيراً على الأقدام كنت تطوف في قرى الشام ومدنّها، كما في قرى لبنان ومدنه تزرع في كل يباس نباتاً، وفوق كل صخرة تراباً، والخصب يا أبا تموز، الخصب الآتي من تخصيب الحياة بمبادئ النهضة القومية الاجتماعية، هذا الخصب الذي أنتجته يداك، وروح التضحية والفداء التي عقبته بما سيرتك، هذان جعلاك جديراً بكنتيتين عرفت بهما عنيت: أبا تموز وأبا فداء.

ولن أنسى يا أبا تموز، هذا الفرح الغني الذي يفتش صدرك ويخلف ألوانه على حديثك وعلى نظرتك إلى الأمور، وعلى علاقاتك برفقائك ومواطنيك، إنه فرح الإيمان بالقضية وفرح الالتزام بها، ما رأيتك يوماً في تشاؤم، ما رأيتك يوماً إلا والبسمة فوق شفثيك. أما الطرفة فكانت جزءاً من أسلوبك في الحديث، حتى في المواقف الجدية والدقيقة، لكنك كنت تعرف كيف تحمّل الطرفة ما تريده من أفكار ومواقف جامعاً في حديثك بين المتعة والفائدة.

يا أبا تموز، يا أبا فداء:

ومن يحمل للأمة الأمل بالخصب والتجدّد والانبعاث؟ من يشكل فيها خميرة الفداء؟

يا أبا تموز:

سيبقى حزيك حاملاً مشعل النهضة لشعبنا، مدرسة الوعي القومي الاجتماعي في وطننا، سيبقى عاملاً على بناء الإنسان الجديد، وعلى بناء المجتمع المدني والدولة

المدنية، سيبقى خميرة الانبعاث والفداء، وستبقى أنت القدوة لنا في التضحية والنضال والمناقب والنظام.

سنبقى نفيء إلى ظلالك الوارفة، وإلى ظلال من سبقوك إلى العالم الآخر من الرواد الأوائل وفي مقدمتهم مؤسس حزننا وزعيمه سعادته، السلام على روحك من كنيسة المحبة والسلام، التحية لك مبي ومن قيادة الحزب وأعضائه، البقاء لكم، البقاء لأمتنا والنصر لقضيتنا.

مبدع في خلق نفسه*

متروبوليت بيروت للروم الأرثوذكس

الياس عودة

من يطالع يا أخوتي سيرة «إلياس» هذه الأرضية، يكتشف كم هو إنسان مبدع في خلق نفسه. إنسان منذ الطفولة شاء أن يكون حراً، أن يكون سيد كلمة تخلق وتبدع. بما يحول الفكر، من فكر كسول، من فكر يمتهن العبودية، إلى فكر يتواجد ويوجد. إنسان من غضاضة شبابه عرف أن يعلم الشباب بأن العلم وسيلة ليكون الشخص. والشخص ليس فردياً لا بل هو إنسان اجتماعي، بمعنى أن فرحه يرتخي على الآخرين سعادةً، وألمه يجرح الإنسان الآخر، يجرح الحبيب، وكل إنسان يجب. تعلم في المدرسة، وأكمل علمه على نفسه، عصامياً. بعدئذ لم يتوان ولم يتكبر، وارتضى أن يكون رقيقاً للطلبة، لطلبة الحقيقة، لطلبة الانفتاح، لأولئك الذين يريدون أن يكونوا كالبرعم المنفتح للحياة. لكنه، باعتقاده، كان محصوراً في نطاق يستطيع أن يتجاوزه إلى دائرة أوسع، حيث وجد نفسه التواقّة لا تستطيع أن تبقى محصورة ولو في جمال الشباب، بل أراد أن يعاشر من يكون على كبر القضية والوطن. ولهذا منذ شبابه الباكر ترك التعليم وذهب لينخرط مع شباب اعتقدوا بأن مسيرتهم تنقذ الشعب الرافد من النوم وتوقظه ليكون حياً، ليكون نظامياً في الأخلاق والمناقبية، وسلامة القلب. متمرداً على كل غش وكل خيانة وعلى كل ما يسيء إلى الإنسان الذي منه تتكوّن الأمة والوطن.

* من كلمة ألقاها في وداع الراحل في 1997/10/31.

هكذا كان هذا الأمين على ما اعتقد، وأنا أحترم من يعتقد، وأحترم من يكون أميناً لاعتقاده، لأنني أحب الصادقين الذين أسماهم الكتاب: الصديقين، فالصادق وحده يكشف ما هو مخفي، والحق، في الكلمة اليونانية، يعني ما هو غير خفي. وهذا الإنسان عرف أن الحقيقة تنجلي في كل حين. أما في الخفاء والظلمة فيحاك ما هو ظلام وظلم، لأن الحقيقة لا تخاف. الظالمون لا يفعلون في الضوء ما يشاؤون. والمؤمنون يفعلون الأمور في العلن معتبرين بأن الحقيقة التي يؤمنون بها هي حقيقة للملأ لا لفئة من الفئات. ولهذا يا أحبة، هذا الأمين الذي آمنوا بصدقته، آمنوا بمناقبته، آمنوا بتكامل نفسه، كان يُرقى إليه من حين إلى آخر تترأ بمسؤوليات كبيرة. والأمور الكبيرة لا تعطى إلا للصادقين. فالمنافقون لا يبنون، المنافقون يبنون أنفسهم، وأما الآدمي يُهلك نفسه لتحميا أنت. ولهذا يا أحبة، عرفوا بأن هذا الخفي يظهر في العمل الصالح، فأوكل له أن يعمل.

تقرأ هذه السيرة، فتحترم إنساناً يناضل من أجل اعتقاد التزمه. وأنا أحب الصادقين وأكره المنافقين الذين يبيعون النفوس من أجل تخمة بطونهم وحبوهم. يا أحبة، اعترف بأني لا أعرف سيرته مع الله ولكن أؤمن بأن الله يقول: ملكوت الله في داخلكم، أعرف بأن عقيدة الحزب امتلكت نفسه، والله يعلم إن كان يملكه في نفسه، ولكني على يقين بأن ملتزم الحق والصدق لا يعرف هذين إن لم يكن لله في قلبه مقر، فقط المتأهون يعرفون الحقيقة، والإنسان، إن لم يكن أميناً في القليل لا يستطيع أن يكون أميناً في الكثير. هذا الذي يتكلم عن وطنية ولا يحترم بيته، هذا كاذب. إذا أنت لست أميناً في البيت لا تستطيع أن تكون أميناً للبلد، ومن كان سارقاً لدرهم يسرق المليون، لأن السرقة ليست متعلقة بالقيمة، وإنما متعلقة بالقلب. ولياس الذي - وشكراً لله - ينطلق من بيتنا إليه، أنا أفرح بأنه لم يخن ما اعتقد به وفيه.

فيا أحبة، هذا الإنسان اعتنق عقيدة، أحب بشراً، التزم بخط قاده إنسان شاء أن يغيّر، وبقي أميناً إلى الريمق الأخير. رُئِسَ وكان متواضعاً، من يرأس افتحوا المجال له ليمر، أما هو فكان خفراً محبوباً إذا وجد خلافاً يزرع محبة، إذا رأى وجهاً مقتماً يرمي البسمة ليعيد للوجه حياة، يتألم الحزب بتفكيك أو بصراع، يبكي مناشداً القلوب إلى الوحدة. لأن من يفكك يريد الشر في الناس، كلكم تعرفون «فَرَّق تسد»، أنا أقول: فَرَّق تصبِح عبداً، لأنك تلتزم هذا الخط أو ذاك وتنسى بأن الذي جمعك هو محبة القضية الواحدة، فالمنطق البشري يصبح منطقاً إذا كان منطقاً من وحدة فكر. المشوِّشون لا يخلصون، المختلفون لا يوحدون، ولكن هذا الإنسان بصمت عظيم أراد أن يكون شاهداً إلى الأخير بأن نجاح الأمة في الوحدة لا في التفكك، كائناً من كان يؤد أن يفكك. رسالته لرفاقه أن يقول كل واحد للآخر أنت رفيق. وأنا أقول له أيها الحبيب، سميت على اسمي الياس، ما شئت إلا أن تنطلق من حيي لتكون مجنحاً بالحقيقة التي سيحليها لك الرب كاملة. قد يقول لك كنت مخطئاً هنا وهناك، ولكني أحب قلبك الحي لأن الإنسان الذي يحيا في الحق إنسان يحب الحياة، يحب الاستقامة، يحب الصراحة، يحب الصدق، فيا حبيبي أنت بشر قد تنوه، يعرك أمر ما، أو الدنيا. اليوم تستكين في راحة. أحببت الحقيقة، هي أنا، فتشت عنها في وجوه أحوتك، سترهم كلهم في بهاء النور إذا استمروا في حقيقة القلب وصدقه. أنا لا أقرأ الكتب - يقول الرب - أنا أقرأ القلوب، الكتب تختلف، الآراء تختلف، ولكن يكفي أي قلت لك يا ابني أعطني قلبك، وكنت مستعداً أن تمنحني إياه. لأن العبيد هم عبيد وبيقون عبيداً، نطلب الرحمة لهم. ولكن الأشخاص الذين يتبعون نقاوة القلب كهذا الإنسان، رحمة يحتاجون، ولكنهم بفرح يكونون في اللقاء.

الياس، كاسمي الياس، اليوم يخلق ليتعلم العلم الحقيقي، حيث يقول له يا ابني أنا يسوع، أدخل إلى بيتي وكن كما شئت أن تكون متجداً بذاتك، ومتجداً بحقيقتي التي لا تزول، آمين.

كانت لك فرادتك*

أليسار أنطون سعاده

تراك سممت سجن الشيخوخة التي لم تسمح بأن تتسلل إلى أوصالك إلا متأخرة. فانطلقت إلى حرّيتك الأخيرة؟

أم تراك قد استبدّ بك الشوق إلى البدايات المشرقة وكل البيوت وأهلها وكل الأمكنة التي حملك إليها هفهاً إيماناً العارم بنهضة لا تعرف التعب.. فأثرت الرحيل؟

أم أنه الزمن المعكوس المطبق على الأمة فيما لم ترّ في أفقه بوادر ثورة على المفاسد ومخضة تحطّم الأغلال؟

أم تأخّر حصاً أضناك انتظاره بعدما وهبته شبابك وما بخلت بوجودك كلّ، زاهداً في الدنيا ومتاعها إذ لا يغيب عن ناظريك زعيمك ورفيقك الأول؟

أو تحوّل الأزمنة ومن كنت تحسبهم من الذهب الخالص.. أو انقلاب المعايير.. أو طغيان مادي نهم لا يعرف شبعاً؟

أو كل هذا وغيره مما لا تتسع له أسطر معدودات؟

إلا أنك رحلت.. تاركاً علامات فارقة من زمن نضال مديد تقلّبت فيه في مسؤوليات جسام، وغالبت فيه الذلّ والقهر والاضطهاد والحرمان..

علامات لا بدّ باقية معلماً في نهر القضية الدافق..

* كلمة لها، نشرت في مجلة «البناء»، العدد 897 تاريخ 1997/11/8.

علامات تبدّت رسولية في تنكّب المسؤولية توطيداً لمعاني الإنسانية الراقية. فما حسبت حساباً لنفسك وما ادخرت جهداً أو قرشاً.. ولم تحن لك عزيمة بل ازدادت توتّباً كلما تعاضمت الشدائد وما أكثرها.

وتجلّت إيماناً راسخاً لا يتزعزع بالعقيدة والنظام وقد أمضيت ردهاً طويلاً في تدعيم ركائزها وتحصين بنياها حتى وُشم الشأن الإداري بنهحك وبانت الفروع تحيا على وقع تفقّدك لشؤونها وأحوالها.

كما تجلّت إيماناً بالقومية الاجتماعية نهجاً لحياة مجتمع يطمح للارتقاء بكل بنيه.

وتألقت مناقب ومثلاً وقيماً ما كففت يوماً عن الحقّ على الاقتداء بها وكنت أنت حريصاً على أن تكون لمجموعنا خير قدوة.

وتوهّجت تفاعلاً اجتماعياً نسج وشائج النزاهة ومودّة واحترام، تاركاً بصماتك في ذاكرة أترابك والشباب وحتى الأحفاد.

وتوجّحت كل ذلك بروح مرحة وبشاشة تبدّد التشنج والوجوم وتمنح القلوب فرصة التبلسم بعفوية صادقة.. فكانت لك فرادتك.

والأبهى أنك باقي في ذاكرتنا يا أبا فداء عنوان مرحلة مذهلة بخصوصيتها وتألّقها بالرغم من كل النكسات.

* استعدّوا..

جميل شماس

أيها القوميون الاجتماعيون: استعدّوا..

الibas جرجي قنيزح لا مجال لذكر صفاته ونضاله وأخلاقه ومحبته وتواضعه وحبكة النكته عنده في أحلك الأوقات. قد يكون يشبه بطرس الرسول الذي اعتبره الزعيم سعادته الصخرة التي بنى عليه حزبه. وفي الوقت نفسه يشبه بولس الرسول حيث ما انفكّ ينتقل إلى كل العواصم والمدن والقرى يبشر بمبادئ سعادته. هذا الرجل الذي تجرّد من ذاته، وعاش شهيداً وعمل بكلّ طاقاته وعلمه وذكائه ليحافظ على وحدة الحزب وترسيخ النظام قيمة في نفوس أعضائه، وعلمهم الاحترام والولاء.

وفي وفاته استطاع أن يجمع حوله الحزب بكل فروعه وقيادته وهل أستطيع أن أتوجّه بمناسبة هذا اللقاء إكراماً لهذا الرجل الذي أحبّه وقدره الجميع،.. ووفاء لسعادته، ومن أجل مصلحة الحزب والأمة بأن يتنازل جميع القادة المسؤولين عن أخطائهم ومشاكلهم وخلافاتهم، وأن يجتمعوا بروح المحبة والمسؤولية، ويتخلّوا عن الشكليات ويتمسّكوا بالجوهر، ويعملوا بجد واجتهاد لإيجاد طريق لإعادة وحدة الحزب بكل قياداته وأعضائه. وأنا واثق بأن هذا أفضل وفاء نقدمه للأمين الibas،..

* كلمة له، نشرت في مجلة «البناء»، العدد 897 تاريخ 1997/11/8.

بأن يكون أملاً لنا بحياته وموته سبباً لتوحيد الحزب، ولمّ شمله ليعود قوة ضاربة
متماسكة لمواجهة الصهيونية في هذه الساعات العصيبة، لأنكم أمل الأمة.
إن أهم ما تعلمتموه من سعادته هو الصدق والشجاعة، لذلك أدعوكم بكل محبة
واحترام لوقفه لشجاعة لتبثوا أنكم تستحقون لقب تلامذة سعادته فتوحدوا صفوفكم
لنرى جيشاً من الأشاوس يتمنطقون بمناطق سوداء تلمع فوق رؤوسهم حراب
مسنونة تحت راية الزوبعة الحمراء ويصرخ بأعلى صوته الرئيس الذي ستلتفون حوله -
أيها القوميون الاجتماعيون - استعد تحية خذ للأمين الياس جرجي قنيزح.
فيألقه الزعيم في السماء فرحاً ويقول له أهلاً بناموسي الأول وإني فخور بك
وبتلاميذي جميعهم.
وهكذا سيكون حفل التأبين الذي ستقيمونه لهذا الإنسان الرائع فخراً لكم جميعاً
خلف راية واحدة وقيادة واحدة.
تعلمت في حياتي أن أحلم وأحقق أحلامي ولكنني اليوم أحلم وأنتم ستحققون
أحلامي.

غادرنا محتفظاً بالفرح*

عصام محاييري

الأمين الياس جرجي كان من الفرسان الأوائل في تنكّب عملية التأسيس والبناء والمساهمة في تكوين الجيل القومي الاجتماعي الجديد، جيل النظام الجديد. ومن خلال وعيه وإدراكه لما يتطلبه التأسيس ونشر العقيدة وبناء النفوس من عطاء وبذل وتضحيات، نذر نفسه منذ اللحظات الأولى لتحقيق ذلك «الأمر الخطير» المساوي لوجوده ووجود رفقائه المتعاقدين عليه.

لست آتياً بأي جديد أعرفه عن الأمين الياس ولا يعرفه غيري، فكل عضو من أعضاء الحزب وكل من مرّ بالحزب السوري القومي الاجتماعي يعرف أن الأمين الياس لم يكن مسؤولاً يتقن تنفيذ الأوامر ويتقن إنجاز ما يوكل إليه بكل دقة وأمانة فحسب، بل كان إلى جانب أدائه الإداري المميز، مربيّاً بامتياز لجميع الأجيال القومية الاجتماعية كما كان في سلك التعليم قبل دخوله الحزب مربيّاً وطنياً بارزاً.

جولاته الحزبية، وما أكثرها وما أعمّها، ما كانت تقتصر على التحقيق والدرس والتدقيق في الأمور النظامية والشؤون الحزبية الصرفة فأهم ما في جولاته وما في لقاءاته وما في معالجاته للمشاكل والمتطلبات الحزبية كان روح الاهتمام بتسيخ قواعد تربية حزبية تناقلتها أجيالنا جيلاً بعد جيل.

الصبر والقدرة على التحمّل في الاستماع إلى جميع الأطراف وإقناع الجميع باحترام قواعد السلوك القومي الاجتماعي والالتزام بما في التعاطي بين الرفقاء ومع

* من كلمة له، نشرت في مجلة «البناء»، العدد 897 تاريخ 1997/11/8.

المسؤولين. كان يمتلك الصفات النادرة التي ميزت أداء هذا الرجل الكبير حتى أصبح على مرّ الأيام ملجأً لمعظم الرفقاء في قضاياهم الخاصة، يسألونه النصح فيما يتصرّفون به تجاه مشاكلهم العائلية أو في أوساطهم المهنية.

المحطات الحزبية المضيفة في انتصارات الحزب المادية والنفسية على المثالب والمصاعب تحمل في طياتها الكثير من بصمات وآثار الأمين الياس، عبر الأجيال الحزبية المتعددة التي تتلمذت على يده، من خلال الأسفار والجولات واللقاءات والمحاضرات ودروس التوعية واستخراج العبر التي سادت مسيرته الحزبية عبر ستة عقود من الزمن. ممّا جعل له فراداً وتميزاً عن غيره في المسؤولين في الحزب في نوعية العلاقة بينه وبين أعضاء الحزب.

روح التربية والتوجيه لم تكن تفارقه، لا وهو غارق في صميم العمل الحزبي ومتطلباته، ولا في أوقات استراحاته وأسفاره وأكله وشربه فهو حاضر البديهة، دائماً يوظّف النكتة والفكاهة في عمله التربوي الآخذ كل اهتماماته، فلا عجب أن تجد له آفاقاً من التلاميذ في الحزب من مختلف الأجيال والأعمار.

لم أتحدث ولم أعدد ما أنجز الأمين الياس جرجي، ذلك أن في كل صفحة من صفحات تاريخ الحزب له دور ومكان بارز، وكما كانت سيرته ومسيرته محوراً لنا في حضوره أم في غيابه سيبقى حياً بيننا في مآثره وإنجازاته وعطاءاته كما كان في حياته..

عرفت في حياتي الحزبية كثيرين من الرفقاء والأمناء تقاربت سيرتهم الحزبية مع سيرته في رهن كل دقيقة من حياته للعمل الحزبي، وفي سيطرة الهمّ الحزبي عنده على كل همّ، ولكيّ لم أعرف أن أحداً تقدم عليه. كما لم أعرف أحداً عاد مريضاً في مستشفى كما عُدنا الأمين الياس في الجامعة الأميركية منذ خمسة أعوام، وغادره محتفظاً بالفرح والمرح الذي أشاعه ذلك «المريض» في نفوس مُعيديه.

الحاضر في صفوفنا*

هيام نصر الله محسن

«قد تسقط أجسادنا أما نفوسنا فقد فرضت حقيقتها على هذا الوجود»
بمذه المعرفة وهذا الإيمان نودّعك أيها الأمين
الذي ائتمنت على الكثير وحفظت الأمانة!
لملمت فرحك، ورحلت مشحناً بالجراح...
بصمت وهدوء طويت آلام نفسك ورحلت..
رشفت المرات حتى آخر الكأس..
فما ذبلت الابتسامة يوماً،
ولا غصّ الفرخ..
هذا قدر المصارعين الأوفياء،
يرحلون وقوس النصر يلفّ المحيّا..
مطمئناً، رضىً، هائناً.
أعطيت من نفسك بلا حساب.

* كلمة لها، نشرت في مجلة «البناء»، العدد 897 تاريخ 1997/11/8.

ولا توقيت ولا منة ..
دقق خبير كنت أينما حللت!!
وضعت يدك على المحراث منذ البدايات
وبذرت ما اكتنزته نفسك وروحك من تعاليم المعلم
ولم تسقط يدك! بل جسدك هوى ..
ما التقينا مرة إلا... ونزفنا،
فكثيرة كانت أوجاعنا...
وخطيئتنا أننا لم ننفجر!!
ماذا لو انفجرت؟ لو انفجرت ..
لن أغفر لنفسى .. لن أغفر ..
عاقبة أنا، بقدر المحبة!
قلت لي وجزمت مراراً أنك
سترفّ بجناحيك النازفين فوق منازل الأحبة ..
في كل بقاع سورية، وتترك من نرفك بصمات ..
وما فعلت .. أعرف،
تسارع النبض في قلبك، ووهن الجسد.
أعاقا حركتك .. وهزما أمنيته!
فأويت إلى محرابك!!
كنسر مشطّى ومخلّق صعوداً ..
سيقال الكثير عنك وفيك،
لكن أحداً لن يفيك!!
يا من غرست على كل درب ومفرق

آيات ومآثر سعادته.. وفي كل قلب وعقل بعثت نشوة الإيمان، وألقى المعرفة...
وأطلقت أجيالاً في الطرقات الشاقة الطويلة.. بأدلتك حباً بحب!

عبرت وشائج القلوب،

وسكنت وجدان النهضة...

فهنيئاً لك تراب سورية

وهنيئاً لك كل هذا الحب

* المُطَيِّف بـ «سَعَادَه»

نزار سلّوم

فاجأني «المُطَيِّف بسَعَادَه» برحيله - يبدو لي رحيله الوداع استنفاداً لطاقته وطريقته المرهفة والاحتجاجية الصاخبة في آنٍ - لأني متيقن أن بعض الرجال لا يمكن، بل لا يجب أن يرحلوا ليس لأنهم ليسوا من البشر فلا يخضعون لنا موس الموت، بل لأنهم، وبالضبط، الأكثر اقتراباً من الجوهر البشري، ومعنى أكثر ثقافة، من الجوهر الإنساني.

كنت، وما أزال، أحوال «المُطَيِّف بسَعَادَه» مندجماً بالجوهر الإنساني الخالص إلى حدود التماهي الذي يُسقط منه أبعاده البشرية وأوصافه المُحددة له كرجل، يُظهر فيه الوهج - المهيب الداخلي الخاص الذي لا يُحاط ببعده ولا يُقاس بمقياس. إنه نوع من القدرة المتميزة التي تذهب بصاحبها إلى بوابة المجرّد، فيبدو كصاحب سلطة ليس لأنه لديه سلطة بل لأنه موجود بذاته. ويبدو كضرورة ليس لأننا نحتاجه الآن وحسب، بل لأننا نحتاجه دائماً وفي كل وقت.

تأسّس حاجتنا إلى « المُطَيِّف بسَعَادَه» على خاصية تميزه وتعلّق بنا في آنٍ، وهي أننا (جميعنا) بحاجة إليه.

وإذا كانت هذه الخاصة تحيله إلى مرتبة «الضرورة الجمعية» فهذا لا يعني تماهيه بشخصية «المُنقذ» أو «الفادي» - كان حريصاً على نفي هذه الصفات الادّعائية

* كلمة له، نشرت في مجلة «البناء»، العدد 897 تاريخ 1997/11/8.

عن نفسه - بل يعني قدرته الفائقة على إكساب ارتباطه (بنا) ذلك البعد الذي يجعل من هذا الارتباط ضرورة لا غنى عنها. كان وما يزال ضرورة لنا جميعاً.

صاغ « المُطَيِّف بسعاده» ذاته انتماءً إلى النهضة السورية القومية الاجتماعية صياغةً على مستوى عالٍ من الأداء المتميّز مفهوماً وأخلاقياً، فشكّل بذلك «مِحلاً» مسكوناً بالاطمئنان والثقة الخالصة، فلم يبتكر «قراءات» ولا «مناهج» جديدة أو غير جديدة تدعوه للتباهي - وقد أدت إلى الضياع.. والذل - ولكنه كان استثنائياً في قدرته الدائمة على ابتكار النهضة في النفوس الجديدة.

في هذا المستوى يكمن إبداعه الخاص والمتميز.

وإذ تحاول «المناهج» المبتكرة الابتعاد بالنهضة عن مسارها، فتدب الفوضى في الطريق فُيعمي غبار البلبلة الأبصار، وتختلط المقاييس وتنقلب المعايير، فإن «المُطَيِّف بسعاده» ما يلبث أن يرفع صوت النهضة مجلجلاً فتتجه الأبصار الشاردة صوب سارية سعاده وتلتئم الصفوف في مسار الحق.

.... و.. ولكثرة ما هو مسكون بسعاده، ظننتُ مرة أنه يخفيه في قلبه، لكنني وحيث حاولتُ اقتفاء أثره في مساره الطويل - مسارٌ أطول من دهر وأقصر من ضرورة - لم أجد سوى قلبه.... وسعاده.

إنه الأمين الأمين*

حسن عز الدين

الياس جرجي قنينج رجل من أصحاب سعادة الزعيم الخالد، إنه واحد من أولئك الأوائل الذين صاغتهم النهضة القومية الاجتماعية، ورثتهم على فضائلها ومقاصدها.

من الانتماء إلى الممات.. حياته واضحة مقروءة.

إيمان، عزم ومضاء.

صدق، طهر ونقاء.

تواضع، حب ووفاء.

تقديس وانحياز لقيم الحق والخير والجمال، واحترام للحياة، ولأحياء.

لو كان لي أن أختصره في جملة واحدة لقلت فيه:

«إنه الأمين الأمين»

ولو فصّلت قليلاً لقلت فيه ثلاث كلمات:

كان مترعاً بالإيمان بسعادة ونهضة الأمة، عاملاً لها، متحداً اتحاداً كاملاً بالرسالة وأهدافها ومثلها العليا. وتجربة الإيمان عنده قد مارست تفوقها في كل مكان وفي كل زمان، ومن خلال كل المسؤوليات التي عُهد بها إليه.

* كلمة له، نشرت في مجلة «البناء»، العدد 897 تاريخ 1997/11/8.

فالقومية بما هي «يقظة الأمة وتبّتها لوحدة حياتها، ولشخصيتها وميزاتها ولوحدة مصيرها».. كانت ديناً له. هي على فمه قيّارة، وفي قلبه نبضٌ، وفي عقله استنارة، وهي كل رؤاه، كل خطاه، كل حركاته، بل كل أحلامه وأمانيه وخاطرات نفسه.

وكان بسيطاً متواضعاً وزاهداً في مغامرات الدنيا. وجميعها لم تكن هواية له، بل كانت سلوكاً وفطرة وأمانة.

كانت سعادته بالجماعة القومية وأبناء الأمة الذين تثقّت عقولهم، وحسنت تربيتهم واستنارت بصائرهم واستقامت أخلاقهم، ومشوا إلى أهداف قضيتهم القومية بثقة وثبات. فلا نزعات فردية وفتوية، ولا انحرافات.

وهو إلى هذا كله، كان صريحاً جريئاً، يصدح صوته بالحق الذي يراه.

كان يغضب ممن تأخذهم مغريات الحياة فيحاولون الانتصار بها.

كان يفعل ذلك وباستمرار، لأنه عاش حياته صادقاً، ولأنه كان ومن مرافقته للزعيم في المدرسة الحقيقية للنهضة وللقيادة.

فعلى عمره المديد - كم اجتهد بفرح في تأييده للصواب! وكم اجتهد في دحضه

للخطأ! وكم باعدت صراحته وحواراته بينه وبين آخرين في الحزب!

رحليه موجه. لكنه فيما آمن وفيما فعل سيقى.

إنه ضمير معبّر بعد غياب الزعيم المعلم. ولعلّ الكثيرين من رفقاءه ممن عايشوه

وزاملوه يقبسون بسلوكه ومواقفه رؤاهم عن الحق والخير والجمال.

له الخلود مع الشهداء.

سيرة خالدة*

نواف حردان

الأمين الياس عميد الداخلية الناجح في حزننا، ناموس الزعيم، ذلك الرجل الجبار القوي الشخصية، صاحب الكلمة البليغة النافذة القاطعة كحدّ السيف، والحجّة التي لا تردّ، السريع الخاطر الحاضر النكتة، الرفيق الغيور والأمين الصادق والصديق الصدوق.

إنه لم يمّت.. لأن أبناء الحياة الحقيقيين لا يطويهم الموت.. والأمين الياس كان من أبناء الحياة المصارعين المحلّين.. وسيّر هؤلاء المصارعين.. تبقى في ضمائر أبناء النهضة.. خالدة لا تموت.. تبقى جديدة أبداً.. ومعناها يتجدد كل يوم.. ينحني أمامها تاريخ نحضتنا.. إجلالاً واحتراماً وتقديراً.. فلا تقاس معها الأيام، ولا ينال منها مرور الأيام.. وكّر السنين.

الأمين الياس جرجي لم يمّت.. لأنه كان ابن النضال الكبير.. وأبو الواجبات المقدسة العظيمة.

ألا طوبى لرواد النهضة المصارعين، قادة الفكر والواجب والحق والنظام. طوبى لهم لأنهم أعطوا ولم يأخذوا.. ولكن في ضمائر رفقاءهم وتاريخ نحضتهم يخلدون.

* من كلمة له، نشرت في مجلة «البناء»، العدد 897 تاريخ 1997/11/8.

* السنديانة..

عبد الله قبرصي

سبقته عاماً واحداً في الانتماء إلى الحزب وسبقني بأن نذر نفسه للقضية ونذر عائلته، فما قبل أية مهنة ولا أية وظيفة، منذ انتمائه، إلا العمل في قيادة الحزب.. أو صفوفه.

لقد اقتنع في أواخر أيامه، أن لا حياة للحزب إلا بتحقيق وحدته، فقال لي إني مستعد أن أطوف البلاد وعبر الحدود مبشراً بالوحدة.
ماذا يمكن أن تكتب عن رجل نذر نفسه للقضية التي آمن بها وعمل لها طوال حياته حتى رمقه الأخير؟

لعلي بين الأمناء والرفقاء أكثرهم التصاقاً به في السنوات الأخيرة من عمره، فكنت أتردد عليه باستمرار لأن الشيخوخة - رغم أنه ما شاخ إلا مؤخراً جداً - تفرض على صاحبها العزلة، فالناس لا يحبون الذين أكل الدهر منهم وشرب، بقدر ما يحبون أهل الحركة والحيوية الناشطين في كل الميادين والحقول.
إن الأمين الياس جرجي قنيزح الذي قدّره رفقاؤه فرغوه إلى مرتبة رئاسة الحزب مرّ بكل القنوات وكل المسؤوليات من إدارية وسياسية وقضائية. انتهى وهو رئيس

* كلمة له، نشرت في مجلة «البناء»، العدد 897 تاريخ 1997/11/8.

للمحكمة الحزبية العليا. وحيثما وجد كان يعطي كل ما يملك من خبرة ووعي ومقدرة.

ما كتب مذكراته، ولكنه كتب لنا مآثر من سعادته.. هذا الكتيب أكمل معلوماتنا عن الرجل العظيم، فقيدنا الراحل الكبير لازمه كناموسه وكعميد للداخلية، حتى أيامه الأخيرة في الشام، وما رواه عنه رواية شاهد عيان.. شاهد مرافق، شاهد صادق وأمين.

كنت أعرفه عميداً للداخلية، في سنوات انتمائه الأولى، ثم في سنوات نشاطه في الوطن وعبر الحدود، فإذا بي في بستان - قرب بانياس، أسمع، أخطب مرحباً بالأمانة الأولى، زوجة سعادته الخالد، فإذا به خطيب قدير، لا يتلغنم، لا يتردد، لا يكرر.

إلا أن ميزته الأساسية، الميزة التي يكاد يتفرد بها بين القدامى من جيله - لأن جيل الشباب يعني بالنوايع والقادرين - هي العمل الإذاعي والإداري محدث ومحاضر ومحاوّر تحسبه وهو في كرسيه في داره على منبر في حفل عام، أسلوبه الإقناع أحياناً بالصراخ والتفريع وأكثر الأحيان بالحجة الدامغة، ودائماً بالنكتة الظريفة التي تسهل أمام السامع ارتياد الحجج المشدودة إلى الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم النفس..!

في ذروة الحوار والنقاش كان الأمين اليباس يطلق نكته من مبتكراته، فإذا الجو بارد بعد توتر، وإذا السامع متعطش إلى المزيد.

قلنا أنه نذر نفسه للقضية القومية الاجتماعية، ولكنه نذر عائلته أيضاً فزوجته الرفيقة سوسن، وولدها تموز وفداء، مؤمنون حتى العظم بالقضية القومية، يعاملون الزوج والوالد كأصدقاء للحزب لا كأبيهم فقط.

كل كائن حيٍّ صائر إلى الرحيل، وفي آخر أيامه صائر إلى نوع من العجز الطبيعي، خبرت بنفسي كيف كانت الزوجة الأمينة، والابن والبنت يعاملون القائد، بأي حنان، بأي احترام، بأيّة تضحية! بوركت العائلة القومية في هذا السلوك الكريم.

ليست آثار المعلم وحدها هي التي تركها لنا الأمين إلياس مكتوبة ومطبوعة، لقد ترك لنا سجل حياته الطويلة، إنها أيضاً مليئة بالماثر والفضائل والتضحيات.

الأمين إلياس جرجي سنديانة من سنديانا ضربتها العاصفة، إنها تحت التراب وأغصانها فوق الأرض، تنبت لنا سنديانات تُنطح السحاب، القومي الاجتماعي الذي يهب حياته للحزب لا يموت، كل كبارنا من الصحابيين وغير الصحابيين الذين عملوا بأخلاق وصدق - في سبيل النهضة، خالدون في قلوبنا إلى أن تقوم القيامة.

مذيع مديرية شتورة*

محمود غزاله

واحد من أبرز الصحابة الذين أثاروا بي، فهو يعلم بالقدوة، لم يتصنع الإيمان، ولا هو نادى بأفكار مارس خلافها، ولا استغل موقعه لمكسب شخصي.

المشهد الأول الذي حمل الانطباع الملفت، كان حين نقلت وكالات الأنباء من داخل حصون النظام السراجي في الخمسينات ثورة طفلة في سنواتها الأولى على تصرفات رجال «السلطان الأحمر» وقذفتهم بسيل من الاحتجاجات التي بات جماعة حقوق الإنسان يتحدثون فيها اليوم ويلاحقون على أساسها الأنظمة القمعية.

ولما بحثت عن هوية هذه الطفلة، جاء الجواب في رسالة وصلتني وأنا في جريدة «الزوابع» تقول أنها فداء ابنة الأمين الياس جرجي قنيزح، فقد عزز تصرف الطفلة، تقدير والدها في نفسي.

المشهد الثاني، كان في السنة 1975، يوم أسست «التعاونية الاستهلاكية في برج حمود وسن الفيل والحوار» جاءني الأمين الياس جرجي ليبلغني استعداداه لأن يضع كتفه إلى جانب أكتاف المجموعة التي أخذت على عاتقها مسؤولية إنجاح المشروع - الحلم - وقد أكد أكثر من مرة أنه لا يبغي في ذلك غير جني النجاح، للحجر الذي بدأ في سن الفيل، وانتشر في الشوف وشمسطار، ويتغيرين، ليشمل في دراسة الجدوى مشاريع إسكانية وأخرى إنتاجية حرفية، أحرقها جميعاً حميم الطائفية البغيض.

* كلمة له، نشرت في مجلة «البناء»، العدد 897 تاريخ 1997/11/8.

المشهد الثالث، حين هتف رئيس الحزب الأمين الياس جرجي، من بيت مضيفه أنيس جمال في سوق الغرب إليّ في مشغرة يبلغني أنه اختارني عميداً للإذاعة، ولاحظ حيرتي على الهاتف حين بادرتي بالقول: «إنها المرة الأولى، ولكلّ شيء في الحياة أول»، لقد بقي هذا الانطباع ماثلاً في ذهني إلى أن كان المشهد الرابع، حيث طلب رئيس الحزب التهيئة لإعادة إصدار «البناء» أسبوعية، وليس في خزينة الحزب ما يكفل بتسديد كلفة طباعتها، مصراً على القول أنه ليس هنالك مشروع فاشل ومشروع ناجح، هنالك إنسان فاشل وآخر ناجح.

ولا بدّ أن أسجل هنا أن جزءاً مهماً من عناصر نجاح مشروع إصدار «البناء» يعود إلى الأمين ميشال نبعة، الذي اخترته وكيلاً لعميد الإذاعة، فوقف جهده ووقته وعلاقاته على إنجاح المشروع وكانت، «البناء» لأول مرة في تاريخها مشروعاً فكرياً - اقتصادياً مجدياً.

المشهد الخامس، كان يوم ذهبت إلى مكتب حضرة الرئيس في العام 1976 أطلعته على صيغة افتتاحية العدد الأسبوعي من «البناء» وهي بعنوان «الكتائب اللبنانية.. والكتائب الفلسطينية» وحين انتهيت من تلاوة المقال اكتفى بالقول: «سنبقى ندفع ثمن مواقفنا الصريحة والواضحة التي تملينا علينا رؤيتنا للأمر».

هذه المشاهد الخمسة ليست كل ما انطبع في نفسي عن الصحابي القدوة، فقد كان في المزاح، وفي الجدوية يؤدّي دروساً سنبقى نعبّ منها، خصوصاً في أزمّة الجفاف.

أما المثال الذي لم يتكرر في تاريخ حزينا حتى الآن، هو أن رئيس الحزب الأمين الياس جرجي قنيزح أكمل مهمّته حين سلّم الرئاسة إلى أمين آخر، فإذا به بعد أيام مذيع في مديرية شتورة التابعة لمنقذية زحلة. ربّ قائل يقول إنها خطوة عادية، لكنّ هذه الخطوة بقيت وحيدة، فهل هي عادية بالفعل؟

* نتوق لسماعه

حليم رزوق

سنديانة عتيقة هو، ومُعَلِّم من معالم هذه النهضة العظيمة!
كيف لا وهو رفيق المعلم، وواحد من رعييل الأوفياء! كم كنا نحن، رفقاًؤه،
الأصغر سنّاً والأقل خبرة، نتوق إلى سماع آرائه والتزوّد بنصائحه، مع المتحدّر في
النضال، الحامل على كتفيه اللتين أوهنتهما السنين، همّ الحزب وهمّ الأمة!
وكم كان يطيب لنا أن نجلس إليه ونسمعه، فكراً متوقّداً وحماساً متوثّباً لم تنل
منهما عاديّات الأيام ولا المصاعب والويلات التي عاناها هذا الأمين، الشيخ جسداً
والشاب فكراً وحماساً!

* من كلمة له، نشرت في مجلة «البناء»، العدد 897 تاريخ 1997/11/8.

أوقف الحوار.. ورحل*

غسان الشامي

ربما ارتدى بدّته، وعقد ربطة عنقه بانتظار الحوار الذي كان مقرّراً له أن يبدأ ظهيرة ذلك اليوم التشريني.. ربما..

فعلى غير عادته في الأيام الأخيرة، تناول نهاره بشكل مختلف، في مساء الليل الذي سبق هتفتُ له، وكالعادة، حديث ينوشه المزاح:
- أمين لئاس.. سنُجري معك حواراً.. غداً.. وتحدث عن التأسيس وعن أشياء كثيرة.

- غداً صباحاً.. أيها المواطن؟

- لا.. المواطن يقول بعد الظهر يا نيافة الأمين.

- اتفقنا.

لكنه تأخّر عن مواعده.. أو تأخّرنا في ضرب الموعد، أو غير رأيه بعد ارتداء ملابسه، ثم اتكأ على طاولة الفطور.. ونام. ربما أرقه ذلك الليل البيروتي، ولم يمازحه أحد، أو لم يستطع أن «يركب» مزحة تغدو «نادرة» على السنة الرفقاء..
ربما تعب فأوقف الحوار.. ورحل.

* كلمة له، نشرت في مجلة «البناء»، العدد 897 تاريخ 1997/11/8.

الياس جرجي قنيزح.. بعينيه الذكيتين، وابتسامته الساخرة، وطريقة ممارحته
الملتبسة، وعقيدته الصريحة التي قطع في سبيل نشرها سهول وجبال هذه البلاد..
رحل.

رحل تاركاً ابتسامته وألق عينيه، وفكاهته الملتبسة وتماهي الرجل بالعقيدة..
وهكذا وبعد ستين عاماً يترك «أمين الياس» كوة في ذاكرة التأسيس، في التعب
والعرق والسفر مشياً، وفي الكلام المحب عن عقيدة صاغت شخصيته، فاستطاع
الدخول إلى عقول وقلوب من التقاه وصاروا فيما بعد جيشاً من رفقاء.

هكذا.. رحل رفيق الصعتر، وخبز التنور، وقادوميات القرى، ورجل المواقف
الضاربة في الصدق.. وفي هذا الرحيل بعض من غياب رائحة متميزة.. لأن جمّاً من
الرفقاء يعرف أن حواراً طويلاً مع الإيمان بصنع التاريخ الباسم قد.. توقّف.

رحيل السنديان*

«البناء»

غادر الياس جرجي قنيزح كرسية، وغادر «البناء» التي رافقها منذ صدورها وكتب فيها بعضاً من حياة، ومواقف وتاريخ.
الرجل الذي أُنِعَ في تلال وجبال وسهول هذي البلاد.
الأمين على الوعد وعلى المسيرة وعلى الكلمة.
من بحر طرطوس إلى بحر بيروت إلى ضهور الشوير إلى جبال الساحل والداخل إلى عمان وإلى أقاصي الجزيرة السورية.. مسافات عرفته وخبرها ويا ما أحبته وأحبها ويا ما له من أحبة ورفقاء وأصدقاء في كل مطارح هذي البلاد الشاسعة.
غادر الياس جرجي قنيزح كرسية.. غادرت معه ابتسامة جميلة لكنه لم يغادر الذاكرة.. ولا الضوء.

* كلمة التحرير في مجلة «البناء»، العدد 897 تاريخ 1997/11/8.

أجيال نضال*

عماد أبو جود

الأمين الياس جرجي قنيزح هو جزء من تاريخ الحزب السوري القومي الاجتماعي. فقد انضم إلى صفوف الحزب منذ بدايات نشوء الحزب وزامن سعادته واضع العقيدة القومية الاجتماعية ومؤسس الحزب وزعيمه، وكان الأمين الياس في سدة المسؤولية طوال فترة عضويته في الحزب وها قد فارقتنا تاركاً في قلوب رفاقه حسرة وفي نفس كل منهم ذكرى.. وإنني من الرفقاء الذين كان لهم شرف التعرف إلى الأمين الياس عن كتب وممن جمعتهم به أعمال مشتركة إما في دائرة واحدة من دوائر الحزب وإما ممن تقاطعت مهماتهم مع مهمات الأمين الياس.. وفي إطار ما ذكرت أعلاه.. صارت بين الأمين الياس وبين قصة دَوَّنتها في حينها، وأبقيتها طي دفتر ذكرياتي...

أما الآن وقد فارقتنا الأمين الياس أرى أنه من واجبي ووفاءً لذكراه ولما يجسده في قلوبنا وفي نفوسنا أن أفرج عن هذه الوريقات أمام الملاء لأقص ما يلي:

كلفني عمدة الإذاعة والإعلام في الحزب السوري القومي الاجتماعي بصفة مذياع مركزي لتغطية حلقات إذاعية في منطقة صور في إطار برنامج المنقذية هناك. وكانت الحلقات التي أقوم بواجب تغطيتها محصورة بالمواطنين المقبلين على الانتماء إلى صفوف الحزب.

* كلمة له، نشرت في جريدة «الديار» في 1997/11/1.

كنت أنفذ ما عهد به إليّ أسبوعياً طوال الفترة الممتدة من ظهر يوم الجمعة حتى مساء يوم الأحد بحيث كنت أنتقل بين معظم قرى المنطقة بحسب برنامج معدّ مسبقاً من قبل نظارة الإذاعة والإعلام في المنقّدية.

استمررت على منوال القيام بهذه المهمة على مدى السنتين تقريباً من الثمانينات.

من جهة أخرى كنت خلال تلك الفترة عينها أتردد بالزيارة إلى بيت الأمين الياس جرجي فنيّز الكائن في منطقة الحمراء بحيث تجمعي بالأمين الياس صداقة متينة على الرغم من فارق السن بيننا، فهو من مواليد 1913 وأنا من مواليد 1948 كُنّا خلال الزيارات نتبادل أطراف الحديث ومنها حول تجارب الأمين الياس الحزبية ومنها حول العمل الإذاعي الذي أقوم به من في منقّدية صور.

وكان قد عُهد إلى الأمين الياس آنذاك مسؤولية «مفتش إداري» على فروع الحزب من قبل عمدة الداخلية.. وتوافق أن برنامج عمله في مهمته قد تقاطع مرة مع برنامج مهمتي في منقّدية صور إذ كان عليه زيارة جنوب لبنان للتفتيش في إدارة منقّديات تلك المنطقة واتفقنا على الانطلاق معاً إلى النبطية حيث نفترق كلٌّ في مهمته على أن نلتقي مساء الأحد في بلدة صريفا في قضاء صور كي نعود معاً صباح الاثنين باكراً إلى بيروت.. تم الانطلاق حسبما هو متفق عليه.. لن أتكلم الآن عما دار من أحاديث خلال الرحلة ولكن أقول بأن الوقت يتسلسل وينساب للانقضاء بسرعة من دون أن نشعر به عندما نكون بحضرة الأمين الياس.. فهو مخزون هائل من الإيمان والتاريخ والخبرة وسرعة الخاطر والطرافة التي تخفي عبءة بل عبراً وهذا الرأي ليس رأيي وحدي بل أنه رأي كل من عرف الأمين الياس.

عدنا والتقينا مساء الأحد في بلدة صريفا في منزل الرفيق أبو علي نزال، وبعد سهرة امتدت إلى أواخر ساعات الليل وقد أمّها عدد لا بأس به من رفقاء منقّدية صور لأن السهرة مع الأمين الياس لا تُفوّت انتقلنا بعدها للنوم حيث فرش لنا الرفيق

أبو علي في غرفة الجلوس لتوفر الدفء بسبب وجود «الصوبيا». بدلت ثيابي بسرعة وتحضرت للنوم في حين أن الأمين الياس كان يجد بعض الصعوبة في تبديل ثيابه مما دفعني إلى المبادرة لمساعدته وقد قلت له بشكل عفوي: «أمين الياس أن الأوان لك لكي ترتاح...». وضع الأمين الياس يده على كتفي عند سماعه قولي هذا وكأنه يريد أن يدفني عنه تعبيراً عن احتجاجة على ما قلت له، وقال لي: «أرتاح؟!.. إذا فكرت أن أرتاح.. أنا بموت.. يوجد أسباب كثيرة تحول دون الراحة لأمثالي.. فالنهضة لم تنتصر بعد.. والقوميون الاجتماعيون على الرغم من صحة عقيدتهم وقوة إيمانهم فأنهم في حاجة دائماً إلى المتابعة والقُدوة..» وأضاف بعد صمت قليل: «.. ولا أخفي عليك يا رفيق عماد بأن لي قدرة تنهضني إلى مواصلة النضال وهي عوامل فاعلة ومؤثرة على إرادتي فإننا نزامن الآن في الحزب السوري القومي الاجتماعي مرحلة نوعية من مراحل الاستشهاديين وأنا أرى بأن نضال الجيل الذي أُنمي إليه على الرغم من تضحياته الجسام التي تعتبر من مواهب التاريخ النضالي للحزب وعلى الرغم من أنها أسست للمرحلة الراهنة إلا أنها تعتبر برأيي مرحلة الطفولة واليفاعة من عمر النضال الحزبي.. وأما الاستشهاديون فإنهم يجسدون مرحلة الشباب والرجولة من عمر هذا النضال... وإنه من غير الطبيعي عدم مجارة حركة الحزب النضالية في جميع مراحلها وعدم العمل على تطوير أدائه طالما نملك الإمكانية وطالما في ذلك تحقيق لغاية الحزب في مسيرته الصراعية للوصول إلى المجتمع...».

وتابع الأمين الياس بعد صمت أيضاً «.. إن نضال القوميين الأوائل بالنسبة إلى تاريخ الحزب وحجم التحديات وأدوات وأساليب النضال مقارنة بما هو الحال الآن هو بمثابة طفل بدأ بالنطق.. حيث يقول... بابا.. بابا.. ماما... ماما... وأن هذا الطفل يصبح غير طبيعي إذا بقي لا ينطق بسوى بابا.. بابا.. في الوقت الذي أصبح فيه رجلاً.. ولكي يستفاد من خدماتنا لا بدّ لنا من امتلاك روحية المرحلة الراهنة.. لن أرتاح يا رفيق عماد فإذا كان ليس بإمكاننا القيام بنضال على مستوى

الاستشهاديين إلا أنني سوف أواصل عطاء ما بإمكانني عطاءه طالما أنني أتفلس
وأقف على قدمي.. وطالما عقلي ينضج ولساني ينطق.. وطالما أن النهضة السورية
القومية الاجتماعية تنادي رجالها.. وسوف تبقى بحاجة إليهم حتى ولو انتصرت..»
البقاء للأمة يا أمين الياس فلقد كان ما أردت وناضلت حتى الرمق الأخير.
الخلود لسعاده.

ولسوف تبقى في وجداننا ذكرى جميلة
ولنضالنا قدوة لاستمرار العطاء والإيمان بالنصر.

* صفاء الرسل

سهام بشير جمال

إلى الأمين الياس قنيزح

حين يرحل التاريخ تجرفنا موجة حزن لا وصف لها. نقف وجلين صامتين ونود لو نغمر فيك كل الماضي في حضنة أو قبلة كي لا يضيع. نود لو تتوسده راحة وأملاً للاستمرار في زمن الردة.

يا أميننا الغائب، لم ترحل باكراً بالعمر، لكنك رحلت باكراً من حيننا الكبير لأمثالك وعطاءاتهم وتفانيهم وزهدهم بالأنا وتعلقهم بالآخر. هذا التعلق جسّدتموه في مطارح واسعة من الأمة زرموها مشياً على الأقدام في الليالي الباردة والصباحات الآملة. حملتم الفرخ بنور العقل، طردتم ظلمة الغرائزية. أشعلتم ضوء الأمل بغدٍ واعد مساواة وعدالة وقيماً وحضارة مشعشعة على العالم دون عولمة مصفاة من الانغلاق والتعسف والظلم والكرهية.

يا أميننا الغالي ما أجمل ما تحليت به من صفاء البساطة والمرح والتواضع والتسامح وروح الحوار المنفتح. أذكر سنة بكاملها حين كنت رئيساً للحزب وفي أحلك الظروف. وكنت في بيتك معنا في شمالان لا زلت لليوم أسمع صوت الأولاد ينادونك «عمو الرئيس» أحلاها أيام ونحن بمعيّتك وأمرّها والوطن في محنة قاسية والعام 1976. ليالٍ طوال سهرت وسهرنا معك، مراجعات ومطالب وقصص

* كلمة لها، نشرت في جريدة «الديار» في 1997/11/2.

وخطف وموت ودمار ولا ضوء في الأفق. وصراع الأخوة الرفاق على أشده. يا
لصبرك الطويل ومحبتك العارمة وثقتك بأن في النفس السورية كل حق وخير وجمال.
فهل يمكن أن تضيع وما كنت لتصدق ذلك.
يا أميننا الغالي، أنت صفاء الرسل الأوفياء. متفانٍ كأصدق ما تكون المحبة.
متسامح كما تسامح الشجعان القادرين. معطاء من ذاتك حتى الاستشهاد برحيلك
فقدنا الصفوة. ألا فليكن هذا الغياب الخميرة والملح يا أحبّ الأمناء. يا أبا فداء.

* «نكهة» إلياس جرجي

بشير موصلي

إلياس جرجي لا يرثى بالعواطف وحدها ولا بما أعطاه فقط ففي كل وجه من أوجه الحياة محل للثناء.

العطاء والتضحيات ومواكبة مسيرة الحزب والإخلاص والبذل والمناقب وغيرها وغيرها من الصفات جزيلة وحافلة في تاريخ الحزب لم ينفرد بها يوماً عدد قليل من أعضائه. فقد تميز الحزب عبر تاريخه الطويل بوفرة المناضلين والمضحّين بالدم والمال والصحة والعائلة والأبناء، بالوقت وبكل ما يملكون في سبيل انتصار قضيتهم وتحقيق المصالح العليا لأمتهم والدفاع عن استقلال وطنهم ووحدة أراضيه.

وكان دائماً لكل مناضل مميّز «نكهة» خاصة به تميّز عطاءه وتفرد نضاليته، وتحمل شخصيته وإلياس جرجي، كما عدد من أمناء وأعضاء الثلاثينات والأربعينات، التصق بالمسؤوليات الحزبية من صغيرها حتى أعلاها لحظة انتهى من أداء القسم حتى لحظة انتهاء نبض الحياة في عروقه.

مبكراً وهو شاب وصل إلى المراكز القيادية.. فأمامي الآن تحت زجاج طاولة مكتبي هويتي الحزبية رقم 242 تاريخ (المركز في أول يناير 1948) عميد الداخلية إلياس جرجي - توقيع - لم يتغير حتى اليوم.

* من كلمة له، نشرت في جريدة «الديار» في 1997/11/4.

كان القيادي الوحيد الذي استبقاه الزعيم إلى جانبه بعد أن حل مجلس العمدة، وعيَّنه ناموساً للزعيم بعد عمدة الداخلية ولا تزال بصماته محفورة، خرَّجت أجيالاً من وكلاء العمدة والمنفذين العامين.

شعاره «العمل 48 ساعة في الأربع وعشرين ساعة» وعلى من يعمل معه أن يكون مستعداً لهذا التوقيت «اليسرجي» فهو لم يعرف الراحة ولا يجب «الكرسي» ووحده تميز في تاريخ الحزب بلقب «العميد المتجول» فالجلوس وراء المكتب لا يجوز عنده أن يتجاوز بضعة أيام لتحضير تقارير جولاته العائد منها. وللإعداد لجولاته الذاهب إليها. «فالحزب لا يدار من المكاتب».

أواخر الأربعينات ومطلع الخمسينات رافقته في جولات حزبية عديدة أثناء دراستي الإنكليزية في الصيف في الجامعة الأميركية. ولا أذكر مرة أننا وصلنا منطقة حزبية قبل منتصف الليل. فهو يعصر النهار وحتى آخره قبل أن يتوجه إلى الزيارة التالية. مرة وصلنا إزرع في الثانية بعد منتصف الليل وفتح لنا هاجم فلوح الباب. أول مرة ألقاه، ولم يمضِ على زواجه سوى سنتين أو ثلاث. وبعد استراحة قصيرة (نوم) للصباح بدأ العمل مع الفطور. ومهما كنت أصغر منه في السن فهو أبداً سباق في الاستيقاظ وفي بدء العمل وفي السير الطويل وفي الساعات المتواصلة من الدرس أو النقاش أو الزيارات العملية.

في العبادية قرب عاليه فتح لنا أنيس أبو رافع الباب بعد منتصف الليل والثلوج تملأ الطريق حيث مشينا على الأقدام من مفرق العبادية على طريق الشام وكان معنا شاهين شاهين وكيل عميد الداخلية المقيم في منتصف شارع جان دارك.

وفي الزبداني استجد أمر خلال الاجتماع اقتضى إحضار المسؤول الحزبي من بلودان، فاختارني الأمين الياس لأتوجه فوراً إلى هناك سيراً على الأقدام عبر الحقول المغطاة بالثلوج تعكس ضوء القمر وكأنك في النهار وليس معي سوى عصا غليظة

زودني بما مدير المديرية في الزبداني. ورغم صلابتها لم تستطع تخفيف ضربات قلبي ولأطرد الخوف من ضيع جائع.

مركز الحزب عام 1947 كان في أول شارع المعرض على اليمين صعوداً نحو مجلس النواب وهناك كنت أتواعد معه على اللقاء، كلما حضرت من دمشق. وكان يعرف أعضاء منقذية دمشق واحداً واحداً وبالاسم.

في فترة الخمسينات تحمل من الإساءات ومن الاضطهاد النفسي ما لا يمكن وصفه. «فهجر» عمدة الداخلية وسرت معه في شوارع دمشق جميعها والدموع في عينيه وهو يفرغ ما في نفسه من آلام زرعتهما التصرفات التي أوصلت الحزب إلى كارثة عام 1955.

في كل ما مرّ به من عطاء وعمل وفرح وحزن ومصاعب وانشغال وهموم حافظ على ميزة لم تفارقه حتى وفاته وقد عرفها كل من ألقاه ولو لساعات قليلة، وهي ميزة المرح والنكتة الحاضرة. ولولا تلك الميزة المميزة لكان الياس جرجي غادرننا وهو شاب فلطالما كان يضحك مع كل من حوله والحزن يمزق أحشاءه.

حكاية الياس جرجي مع الحزب هي تماماً حكاية حزب مع عضو لم يكن كباقي الأعضاء. حكاية تفسرها الجموع التي حضرت تلقائياً وبدون تدبير مسبق أو منظم وقبل أن تصلها الدعوة رسمياً لتشارك في وداعه. في كل بيت قومي اجتماعي له، ذكرى، من القامشلي إلى صور ومن الميادين إلى طرابلس، وكل ما بينهما من مدن وبلدات وقرى في الساحل وفي السهول وفي الجبال، إلى كل فرع من عبر الحدود.

سكن القلوب بوداعته وأشاع الابتسامات في أحلك الظروف ونسي نفسه تماماً خلال ستين عاماً وأكثر ولم ينس حزبه ولا دقيقة خلال ستين عاماً وأكثر. حتى الإهداء على صورة له بحجم كارت بوستال قدمها لي عام 1949 «كان محاضرة حزبية» (لا زلت أحتفظ بها).

وبعد قد لا تكفي عشرات الصحف لتسجيل مآثره وجهاده ونضاله وطيبته وعفويته وكل ما مر به من مآسٍ وأفراحٍ ومن انتصاراتٍ وانكساراتٍ ومن نجاحٍ وخيباتٍ من نسورٍ وثوراتٍ ومن أصدقاءٍ ورفقاءٍ ومن فريسيين، ويوضاسيين. ولكنه يبقى أبداً هو من ألتفتَ «الجميع» حول نعشه في الوداع الأخير. وهو من لم يتكرر.

* الأمين «القديس»

إلياس مخلوف

كثيرون هم الذين سيكتبون عنك ليرثونك..
وكثيرون هم الذين سيتعززون بما خلّفت وأبقيت..
وكثيرون هم الذين سيقولون بأنك باقٍ بيننا وفي المجتمع الذي كان يساوي كل
حياتك ووجودك. فتلك هي سُنَّة الحياة، بل سُنَّة الموت في الحياة. وهو حلقة من
حلقاتها حيث تستمر الحياة رغم الموت، خطوة تموت لتلد بعدها خطوات، فلا
تتجمد الحياة ولا تسير إلى عدم.
روح تبقى بفعل الذي تبقيه وتتخلد فيه، وجسد بالٍ لا قيمة له يزول. وقد كنت
دائماً تلك الروح التي جسّدتها أفكارك وأعمالك وعطاياك في حياة الأمة، التي تزول
أشياؤها وتتوالى أجيالها وهي لا تتغير ولا تزول.
لم تكن من كنوز الدنيا شيئاً ولم توفر مالاً ولم تستطع حتى إكمال دروسك
الأكاديمية كما كنت تريد وتشتهي، فقد كنت تبتدئ هنا لتنتهي بك جهودك
الطموحة إلى ما لا يوصلك إلى مبتغاك.
كان طموحك كبيراً ولكن أيام الظلم والاضطهاد كانت الأكبر والأقوى، فلم
تتحقق فيها طموحاتك ولم تتيسّر لك طريق الوصول.

* كلمة له، نشرت في جريدة «الديار» في 1997/11/7.

كزّست حياتك للأمة، للحياة التي تبقى وتستمر ومثلك كثيرون، ولكن الأكثر من جميعاً، كان المستغلون لحياة الأمة واللاعبون على متناقضاتها والمتاجرون بما هي عليه من الضعف والهوان. وقد ظن هؤلاء بأنهم الأذكى والأبرع في الحصول على ما يريدون من أجل أنانيتهم ونفعهم الخاص.

لقد ضربت بمنافعك الخاصة عرض الحائط وكزّست حياتك للأمة لتشقى أنت وتحيا الأمة من بعدك في سيرها الطبيعي للحياة أجيالاً بعد أجيال.

كنت صادقاً مع نفسك ومع الآخرين، بل مع حقيقة الأمة التي جسدت في نفسك من أصالتها الشيء الكثير.

لقد رحلت بعد كل الذي كابدته من المصاعب والويلات، ولكنك رغم كل الذي كان، عنادك بالحق هو الأقوى كلما ازدادت جراحاتك فيه، كما كنت البسمة الدائمة والنفس الرضية المرحة المبلسمة للجراح لأنك كنت فوق الجراح والصبر الأقوى القادر على الهزء بالمصاعب والنكبات.

كان أملك بالأمة كبيراً ولا مناص لها من الانتصار. ولكن جراحات الأمة أذاقتك من العذاب ألواناً وأنت تداوي جراحاتها هذه بجراحاتك شأن الطبيب الذي يداوم على شفاء مريضه ومريضه يأبى الشفاء. ولكنك عاندت مع المعاندين وصبرت مع الصابرين حتى الرمق الأخير، وقد أزفت ساعة الحق فكان موتك حقاً، وكنت في موتك الحق المنتصر في ذاتك من أجل انتصار حق الأمة الذي يبقى ويستمر.. وهكذا تبقى القدوة الصالحة لنا جميعاً في المعاناة والصبر عسى أن تتعلم القلوب المؤمنة منك ما تستطيعه من المحبة ونكران الذات.

* الإنسان الجديد

محمد المقلد (الشيخ)

الكلام على الأمين الياس جرجي قنيزح، كمن يريد أن يكشف سر الطبيعة، ففي الطبيعة فصول، الشتاء، خير من السماء، يسقي البشر والحيوان والنبات والشجر، «وجعلنا من الماء كل شيء حي»، والريبع سر عظمة الخالق، حيث تتنوع أزهار الأشجار وأزهار الأرض بأجمل إبداعات السماء، والصيف تكثر فيه الخضض والفواكه من كل ما لذّ وطاب، والخريف، حيث تتعري الأشجار والأزهار كما تتساقط الأفعنة عن الوجوه الكالحة والملونة، والمطلاة بالأنانية وحب الذات.

والأمين الياس جرجي متعدد الصفات كهذه الفصول الأربعة، عطاءً وجمالاً نفسياً وأخلاقياً، وإبداعاً بالصراحة والكتابة والإذاعة والمحاضرات، وثورة على المفاسد والمتاعب يكشف العراة والمزيفين بوضوح، ولا يخشى في قول الحق لومة لائم، كما تتعري من أوراقها أشجار الخريف.

قطع دراسته العليا، عندما طلب منه الزعيم أن يتحمل إحدى المسؤوليات المركزية.

وضحى بمستقبله في سبيل مصلحة الأمة، كان عميداً للدخالية لفترة طويلة، لم يفصل خلالها رقيقاً واحداً عن جسم الحزب.

* من كلمة له، نشرت في جريدة «الديار» في 1997/11/15.

عرفت الأمين الياس جرجي قبل أن أتعرف عليه شخصياً، عرفته من خلال ممارساته وسلوكيته وتضحياته، ومواقفه العادلة والحازمة.

وتعرفت عليه عن كثب يوم كان رئيساً للمجلس الأعلى، ومن ثم رئيساً للحزب، وتوطدت العلاقة بيننا، وأنست فيه الآدمية والأخلاقية والبساطة والتواضع والزهد، والترفع عن الأنانية وحب الذات. فكل ما عنده، وما يملكه هو ملك الحزب، وعقله ووقته، وجهده ولسانه وفكره في سبيل الحزب.

هو مدرسة مفتوحة في شكل دائم لتدريس العقيدة القومية الاجتماعية، وحديثه دائماً وأبداً عن العقيدة، وتوجيهاته وإرشاداته لمصلحة الحزب، فلا حديث عنده غير الحديث عن النهضة، وعن السبل والوسائل التي تدفع بالعمل الحزبي في سبيل الأفضل.

وكان يتألم من كل ما يسيء ويعرقل المسيرة، ولكنه النظامي والانضباطي، فلا يقبل مطلقاً الخروج عن النظام، وتوجيهاته لنا دائماً. صلّحوا وعالجوا ضمن النظام، ولا تخرجوا عليه.

عرفته رئيساً للمحكمة العليا في الحزب، وعملت تحت إمرته مدة وجوده رئيساً، كنا موس للمحكمة العليا.

كان القاضي النزيه والمجرد، آراؤه مدروسة وحكيمة، لا خلفية عنده، العدالة القومية الاجتماعية هي الأساس.

عندما لم تعجبه المسيرة، وكانت له بعض الملاحظات التي لا يجوز السكوت عنها، قدّم استقالته إلى المجلس الأعلى وذهب إلى بيته بكل صمت.

لم ينقطع بعدها على رغم سنّه ومرضه عن إعطاء الحلقات الإذاعية. وعن تلبية أي دعوة حزبية في سبيل محاضرة أو حلقة إذاعية، واستمر بالعطاء وهو على فراش المرض.

الأمين الياس جرجي بالنسبة إليّ كان الأستاذ والقدوة والموجه، والأمين الأمين،
والرفيق والصديق الوفي.
أفخر أنني أخذت الكثير من خصاله وسلوكه، وتتلذذت على تعاليمه قديماً
وحديثاً لأنه كان موسوعة تاريخية وقومية.
الأمين الياس جرجي هو إنسان سعادته الجدي، بمفاهيمه الجديدة، بقيمه ومثله
وأخلاقه وعطاءاته، كما أراد المعلم.
الأمين الياس جرجي كالطبيعة المعطاءة التي لا يفها الإنسان حقها وعطاءاتها
وجماها، فمهما قلنا فيه قليل من الكثير جداً، وأفضل القول عنه أنه كان الإنسان
الجديد.

قدوة نضالية مميزة*

ابراهيم الزين

تعرفت إلى الأمين الياس جرجي فنيزح منذ أربعين سنة، إذ كان يومها عميداً للداخلية في الحزب السوري القومي الاجتماعي، وكنت مسؤولاً إدارياً في منقذية الطلبة، وبحكم هذه العلاقة الإدارية - التنظيمية، كان التعارف بيننا، فالحبة والاحترام مع الصداقة القومية الاجتماعية المبنية على الود والثقة المتبادلة، والإخلاص في العمل، مع علاقة روحية حميمة، بعد ذلك التعارف وعلى امتداد هذه السنوات الطوال.

وللحقيقة المجردة أقول، لقد عرفت العديد من مسؤولي الحزب وقياديه، ولكنني لم أعرف أبداً من يضاھيه في روح النكته وخفة الدم والجدية في العمل الحزبي والقلق الدائم على تقدم المسيرة الحزبية أياً كانت الصعوبات والعوائق المعترضه.

جلساته الإذاعية، وخاصة في الحلقات المفتوحة الموضوع كانت متعة في الشرح الذي ترافقه الروح المرحة والافتناع بالحجة في مناخ عائلي حميم. ترافقنا مرتين في جولات حزبية على بعض فروع الحزب في لبنان، فكانت هذه الجولات دقيقة في مواعيدها وبرامجها، عميمة الفائدة في نتائجها على صعيد التفتيش المالي والإداري والإذاعي، وتعليم المسؤولين المحليين كيفية القيام بمهام مسؤولياتهم بالتميز والدقة

* من كلمة له، نشرت في جريدة «الديار» في 1997/11/24.

اللتين اشتهر بهما الحزب السوري القومي الاجتماعي في عمله الإداري الفرعي والمركزي، وكان ذلك في بداية الثمانينات من عمره، فكنت أحسه شاباً في مقتبل العمر اندفاعاً وحيوية وهمة متوثبة.

وكنت كلما اقتربت منه أحببته أكثر من السابق، وشعرت معه بأنه أخ وأب ورفيق غيور على راحة رفقاءه وتنفيذ أوامر القيادة التي انتدبته لتلك المهمة بكل دقة. من الصعب جداً الإحاطة بكل جوانب شخصية الأمين الياس الغنية بمزاياها القيادية العديدة الرائعة ولكنني أقول بأنه أمين مؤمن بعمق دقيق وصارم قاسٍ في القواعد النظامية والمسائل العقائدية، وفي فهم معنى المسؤولية الإدارية التي يجب أن تظل الفاعلة المعلّمة للرفقاء والمواطنين على حدّ سواء بمحبة وأخوة حقيقية نابعة من وحدة الروح المنبثقة من وحدة الحياة!

نكاته المتعالية على التعذيب أيام «معتقل الأمير بشير» إثر فشل الثورة الانقلابية مطلع عام 1962 كنا نتناقّلها بين القواويش، فكان لها فعل السحر في تشديد عزيمته الرفقاء والضحك من أعماق القلب يوم كان الضحك ممنوعاً علينا في تلك المحنة القاسية المباركة.

كان دائماً سريع البديهة، حاضر النكتة في أفسى الظروف وأصعبها يخلق جواً من الإلفة والمحبة والاحترام والتعلق به وبجلساته الممتعة عند جميع الرفقاء لمجرد أن يجالسهم خارج أوقات الاجتماعات الحزبية النظامية التي يكون فيها شديد الدقة في التوجيه والمحاسبة والجدية. وبالرغم من أوضاعه الشخصية الصعبة لم يشكّ مرة من ضافته المادية وإذا ما فعل فبخجل كبير وبسرية تامة بينه وبين المسؤول المعني الذي له وحده تجوز الشكوى، والبوح بالمعاناة حتى لا يسيء إلى مهام مسؤوليته الإدارية أو المهمة التي يكون مكلفاً بإنجازها.

كانت حياته مصادرة كلياً للعمل الحزبي منذ عيّنه الزعيم عميداً للداخلية بُعيد عودته من مغتربه القسري فانموساً في مكتبه قبيل استشهاده وبقي مصادراً للعمل

الحزبي قلقاً على دفع مسيرته حتى آخر أيام حياته. لم أعرف أنه تقاعس يوماً عن واجب أو اعتذر عن مهمة بل كان يقدم نفسه للمهمات حتى حين يكون في إجازة خاصة، حيث كان يطرح على المسؤولين إمكانية الاستفادة من وقته للعمل الحزبي في المكان الذي يقصده للراحة!... وإن أنسى فلن أنسى يوم باح لي بسر خطير فعلى أثر اغتيال العقيد عدنان المالكي في الشام عام 1955، كان الأمين إلياس يقوم بجولة حزبية في المعتربات، وعندما انتهت جولته وأراد العودة إلى الوطن، لم يكن باستطاعته العودة إلى دمشق، لأن الحزب كانت قياداته إما في السجن أو متواجدة في لبنان وعندما حضر إلى لبنان لم يكن يملك منزلاً فيه وليس بمقدوره تأمين ذلك من ماله الخاص، والحزب كان يمر بضائقة مالية كبيرة، والعديد من الرفقاء مشردون من الشام، والحزب والرفقاء يهتمون بإيوائهم، ولأن الأمين إلياس لا يريد أن يكون عبئاً إضافياً على الحزب، فكّر جدياً بتسليم نفسه إلى الحكومة الشامية لكي يتخلّص من ضائقته، ولكن أريحية الرفقاء واهتمام قيادة الحزب بعد علمها بهذا الأمر أنقذه من هذه المحنة، ولدى سماعي هذا السر من فمه تذكرت قول المعلم: «أن آلاماً عظيمة، آلاماً لم يسبق لها مثيل في التاريخ تنتظر كل ذي نفس كبيرة فينا، إذ ليس على الواحد منا أن ينكر ذاته فحسب، بل عليه أن يسير وحيداً، بلا أمل ولا عزاء!»!

كان انتصار الحزب هاجسه الأوحده، وقد كتب مرة يسفّه اجتهاد أحد القياديين في الحزب حول النظام، فقال رداً عليه: «العقيدة بلا نظام، كالنظام بلا عقيدة والاثنان يشكّلان وحدة عضوية لا فصل بينهما».

رحم الله الأمين إلياس فقد كان مثالاً للقومي الاجتماعي المؤمن المنضبط دائماً والقائم بالتزامات عضويته في كل الظروف السهلة والصعبة، وكان أميناً قدوة في إيمانه وعطائه وتحمله أعباء أكبر المسؤوليات وأصغرها، فهو لم يكن يهجس إلا بما يفيد النهضة التي تظل أمل الأمة بخلاصها من كل ما تعانیه من علل وأمراض ومشاكل

وأخطار، ولأنه آمن منذ اعتناقه عقيدة سعادته بالحكمة القائلة: «ماذا يفيدنا لو ربحنا العالم كله وخسرنا أنفسنا».

وما أكدته لنا سعادته في عقيدته عندما اعتبر أنّ الفرد هو إمكانية محدودة، والمجتمع هو الحقيقة الكبرى التي من أجل مصلحتها يجب أن يعمل الأفراد ويضحوا بكل ما يملكون من أجل انتصارها في الوجود. فالحقيقة وجود ومعرفة، والحق انتصار في معركة إنسانية يقرر نتائجها الإنسان المؤمن بحياة أمته ومصلحتها «ولأن الحياة كلها وقفة عز فقط». وهكذا كان الأمين الياس جرجي قدوة لنا في حياته ونضاله وإيمانه بالنهضة القومية خالداً في مسيرتها الصراعية الظاهرة، جيلاً بعد جيل، رحمه الله والبقاء للأمة.

عبر وجه الحياة متمماً واجباته النهضوية*

يمنى جمّول

ورحل الأمين الياس جرجي قنيزح.. جندي من جنود النهضة الخالص، عبر وجه الحياة باسماء، متمماً واجباته النهضوية.. ممتلئاً بنعمة المعرفة، ملقحاً بموم المصير.. مرتحلاً بفكر سعادته.

لرحيل الأمين قنيزح رائحة تشبه الألم، رحيله انتظر أملاً يرتدي وجعاً ووجعاً ترتديه جراح، وجراح تنزف ناراً خلف الحدود.. رحيل يرتدي نوراً، يترصد مفارق عذابات الأبعاد على ضياع الوطن.. رحيل يذكرنا بالحياة، يوقظ فينا همماً بردت ودفتاً استراح، ونهجاً يودّع عصارة حياة، وتجارب ترتقي بأحلامٍ لكبار رحلوا، عشقوا المشقّات، شربتهم ضلوع الأرض، حملوا مشاعل النهضة في وجه الريح.. التقطوا الجمر المحرق لليباس والمضيء للأجيال.

تلامذة مدرسة الوعي والبطولة المؤمنة المؤيدة بصحة العقيدة.. أخذوا على عاتقهم عملية البناء والتغيير. هؤلاء يظلون مجهولين للكثيرين. لأنهم المداميك التي رست عليها قلعة نهضة المجتمع، وغيرت ما سطره الغريب لمستقبلنا، وهم الذين تعاقدوا على تحقيق أمر خطير يساوي وجودهم.

* من كلمة لها، نشرت في جريدة «الديار» في 1997/11/24.

هؤلاء الجنود، هؤلاء التلاميذ، بهم تستمر النهضة، وعلى أيديهم يتم التغيير..
إنهم رفاق سعادته وتلاميذته الذين ما تقاعدوا عن العمل لعظمة ما تعاقبوا عليه.
أمناء أوفياء مترسلون مخلصون لفكر سعادته وخطه ونهجه ومدرسته ومبادئه
وفلسفته. استمدوا القوة على الاستمرار من قوة شخصيته وعزمته.. واستمدوا
الإخلاص من إخلاصه لمبادئه وقسمه حتى الموت، واستمدوا الثقة بالنفس من ثقة
الزعيم بالأمة والأجيال، يعملون بصمت وهم واصلون إلى النصر الذي لا مفر منه،
لأن الظروف الذي تحدى بالأمة أرسى الثقة بالمبادئ، وأثبتت أنه لا خلاص لنا إلا
بالمبادئ المشعة المحبة مهما تجاهلها الجاهلون وتعامى عنها المسؤولون.

الأمين الياس جرجي قينج.. رفيق سعادته وجندي من جنوده، وأحد تلاميذته
الذين عايشوه وعملوا معه وذاقوا مرارة الجهاد وحلاوة النصر في العمل القومي المبني
على الفكر وبث بذور الوعي والتضحية بين المواطنين.. كما أنه أحد أولئك الذين
لم يهونوا أو يتقاعسوا أو يخونوه، لا قبل صياح الديك ولا بعده.. ولم يتفلسفوا في
مفاهيم النهضة بقصد الإسفاف بها.. ولم يتلکأوا عن أداء واجبهم في أكبر مسؤولية
أو أصغرها. والأمين الياس جرجي حدثنا قبل رحيله عن الكبيرة والصغيرة بصوت
حنون دافئ، حين يتعلق الأمر بالاطمئنان عن العائلة متفقداً للجميع، وهو ذو
الصوت الحازم وصاحب النبرة القوية المليئة بالحداثة والعزيمة والثقة حين يتحدث عن
قضايا الأمة والمجتمع.. وهو السيف البتار حين يتعلق الأمر بالشؤون المسلكية، ومع
ذلك لم نستشعر يوماً من كلامه ضعفاً واستسلاماً، حتى ولو كان يتحدث بمجدوء
وشفافية عن الأدب والشعر والفن، ربما كان للمعلم سعادته الأثر الكبير في تكريس
سلوك الثبات والعزيمة والثقة في كل نبرة من صوته.. هو من الذين يتأقلمون بسرعة
في المحيط الذي يتواجد فيه.. وقد اعتاد هذا الأسلوب خلال تنقله الجغرافي في عمله
الحزبي، فلم يكن يعير اهتماماً لما يقدم له من طعام أو مسكن أو مقعد. يهمله
الإنسان، وهاجسه ما يقدمه هو لمن هم حوله، فلا تتغير جذبته ونظرتة إلى الأمور

والمسؤولية مهما كانت مهمته. والمسؤولية عنده دور وواجب وحق، لا تسميةً ولا مركزاً أو اسماً.. فقد يكون في لحظة رئيساً للحزب، وفي اليوم التالي يصبح مذيعاً في مديرية، والمهتمان ينفذهما بجدية وإخلاص وتفانٍ، بنفس المنهجية المترسلة. كان من الكبار البسطاء.. ومن التلامذة العظماء الذين يصبحون بمجموعهم بالنسبة لنا جزءاً من سعادته الفكر والنهج.

ويبقى الأمل يحدونا أننا إذا عرفناهم عن كثب، فلأنهم عرفوا الزعيم، وكان لا بد أن نلقي بعض الضوء على سعادته من جديد علّنا نراه من خلال العيون التي رآته، ونسمعه من خلال من سمعوه، فنحذق بهم ونلاحقهم وكأننا نستشف شيئاً جديداً عن زعيم نخضة عز نظيرها لما لاقته من أهوال وصعوبات. هكذا كنا نستمتع إلى حضرة الأمين الياس جرجي... نستمتع إليه يحدّثنا عن الزعيم وعمله معه، وما مرّ به من مسؤوليات وهموم، وكأن لا نريد أن تغيب عنا إشارة أو كلمة.. فأفعال هذا الأمين ترهقه بالسؤال والحشرية منذ اللحظة التي تعاقد فيها مع النهضة، مع الأمة، مع الأجيال، مع سعادته عبر انتمائه إليها.

لم ندع الأمين الياس يوماً يرتاح أو يصمت لمدة يومين في بلدة «حبوش» الجنوبية.. كنا لجوجين متحرّقين للاستماع إليه، وكان هو كالتبع لا يكلّ ولا يرتاح، لم نكن نتوقّف عنه بالسؤال حتى أثناء الطعام.. لحظة يتحدّث بيتسم حين يتذكّر حدثاً ما مع الزعيم.. ولحظات ينفجر بالكلام بشكل جدّي كالتّهر الصاحب حين يتعلّق الأمر بموم الأمة ومشاكل الأجيال وأمراض الوطن كالتطائفية والعشائرية والإقطاع، وطوال الجلسات المتعدّدة والمتكرّرة معه لم يفه بكلمة لا معنى لها.. ولم تجر على لسانه جملة لا قيمة لها.. كلامه دوماً يحمل معنى، فهو إما فكري اجتماعي، أو شاعري أدبي، وهو أيضاً كلام ذو مغزى بأسلوب ساحر تهكمي يحمل أكثر من معنى دالاً على صورة مأسوية من مساوىء مجتمعتنا أو على حالة معينة تصيبنا من

قريب أو بعيد... وهاكم بعضاً مما استطعنا اقتطافه من ورده وشوكة اللادع حيث يقول:

«هناك من يحسب نفسه من الزعماء.. أنا أسمىه ذو عماء»

«هناك أناس عندهم شعار.. وأناس عندهم شي عار»

«هناك فئة من الناس تعمّر كثيراً.. ولا تعمّر شيئاً»

«يجب أن نتقف أعصابنا كما نتقف عقولنا»

«الكلمة لها تاريخ وشخصية»...

كأنك في أول الطريق*

إدما ناصيف حماده

لم تزل معنا يا حضرة الأمين وستبقى..

دعوتنا لترانا، زوجي وأنا، لم أشعر ولم أدرك أن إلحاحك في تلك الدعوة كان جلسة وداع، لا للقاء كما كان في السابق.. تقول لنا على الهاتف تعالوا إنني مشتاق لرؤية العائلة القومية الاجتماعية التي ساهمت في بنائها وأسعدتني باستمرارها كما يجب أن يكون الاستمرار.

لم أنتبه لقصدك في ذلك الحين، ربما لرفضي فكرة الفراق وتجاهلي شبح الموت، لم أنتبه أن ما كنت تقوله في تلك الجلسة التي سبقت رحيلك بيوم واحد فقط، لم أنتبه أنه وصية لنا. وليس حواراً ونقاشاً وتقييماً لما فعلنا وما يجب أن نفعل، كان حديثك مفاجئاً لنا بتلك النظرة الجدوية، والحزم الذي كنت فيه وكأنك ابن العشرين: «إن العالم القادم علينا، عالم قاسٍ وعنيف. ويتطلب منا بأساً وشدةً وقوةً لنحفظ مجتمعنا من الدمار...» كنت تقول ذلك وكأنك في أول الطريق!! بأمثالك تنتصر عقيدة سعادته.

لقد غبت عن نظرنا كما غاب الكثيرون من أحبائنا ورفقائنا وكانوا خلية انتمائنا لهذه العقيدة العظيمة، يغيبون الواحد بعد الآخر، وبصمت الموت تتوقف حركة الحياة في الأجساد، ويغيب الشكل في مجاهل هذا الصمت الغامض. ولكنهم حاضرون في

* كلمة بمناسبة ذكرى أربعين غيابه، في 1997/12/8.

وجداننا ما دامت الحياة فاعلة في كياننا، وحضورك المميز يا حضرة الأمين سيبقى في وجدان كل قومي اجتماعي تعرّف عليك وعلى ممارستك التي لم تكن يوماً سوى فعل إيمان وإرادة.

إن ما يعرفه الإنسان هو ما يعيشه، وأنت الذي عرفت العقيدة القومية الاجتماعية وعشتها فكراً وقولاً وعملاً حتى آخر لحظة في حياتك. لم تكن تدهش الناس بمخاطبتك وأفكارك الجديدة بقدر ما بهدونك الخذر ومرحك الواعد، تدخل قلوب الذين يتعرفون عليك ثم عقولهم. مؤكداً دائماً على أهمية ثبات الخطوات مهما كانت صغيرة، أمام الصعوبات التي تعترض مسيرتنا مهما كانت كبيرة. مردداً أن هذه الخطوات الثابتة عينها تقودنا إلى النتائج الكبيرة، وعلى أساس الأخلاق الصحيحة لتكوين الإنسان الجديد الذي أرادته سعادته.

بهذه الأخلاق لم تضطرب علاقة الأمين إلياس مع أحد من رفقاته، وبهذه الأخلاق لم يتنصّل من أية مسؤولية عن كل ما يقول أو يفعل، مع بصيرة نافذة تسبق القرارات الحاسمة في حياته.

للأمين الذي كان شاهداً على قسمي وانتمائي والذي لم يغفل عن متابعتي مع أسرتي متابعة الأب لأبنائه. كما كان لجميع القوميين مرشداً وأباً ورفيقاً أميناً، برحابة الأفق واتساع البحر يناقشهم مبسطاً لهم الأمور المعقدة في حياتهم الشخصية، لافتاً إياهم إلى عاملين أساسيين في حياة الأفراد: سيادة العقل وفعل الإرادة. للأمين الياس القدوة أقول كم كان صبرك عظيماً، وكم كان عطاؤك كبيراً لمجد سورية.

منذ أول الدرب أول القافلة*

نزار سلّوم

إلى الياس جرجي قنيزح

أيها الواقف في مطلع الصنفوف..

أيها الزاحف صوب شمس مخبوءة خلف دهور من الجهل.

أيها الباسم، الفائق الأمل..

أيها الواقف في أول العمر على عتبة الافتراق عن الجهل والعمى والموت، عندما

تجرات فرجحت نفسك في قافلة النهضة،.. منذ أول الدرب عندما كان ربّانها في لجة

البحر..

وقتها... ابتدأ جنونك وحلمك، فأنهمرت نضالاً في مسالك النهضة، وحكت

ذاتك «قطبة» صلبة في نسيجها.. «قطبة» تتواشج مع أخواتها، وتستجرّ آلاًفاً

مؤلفة من القطبات المتواليات.

قطبة بلون ابتسامتك، وعمق وداعتك الصاخبة المألوفة روحنا عزيمة.. وإرادة.

أيها الهازئ بنصائح «الحكماء» و«الفلاسفة» حيث تحجل «الديباجات

المسبوكة بالمنطق» وتهرول خارجة أمام «لدعات الحياة» ورشاقة «المفارقات» وجنون

الرفض.

أيها الساكن في قلوب الجميع، صماماً لبوصلة الحب، وقوة لدفته.

* كلمة له، نشرت في مجلة «البناء»، العدد 896 تاريخ 1997/11/1.

أيها النازل في بيوت الجميع، في أول الجغرافيا/ أول الوطن، في آخر الجغرافيا..
سور الوطن.
أيها الزائر الدائم/ جوال النهضة ورحالها/ المُقيم في محطاتها مسعفاً نشاف
الروح، والأمل.
أيها الناطر في أول القافلة، في قلب القافلة... في آخر!!.. لا ليس للقافلة نهاية.
أيها المُطَيّف بسعاده، المُشبع بـ«مآثره» حلماً بحجم التاريخ... والوطن.
يا «أمين الياس».
تحيا سورية.

... يرافقتنا، ولم يفارقنا*

تمّوز الياس قنيزح

أيها الأحباء والمحبتون..

الأمين الياس لم يفارقنا، وهو الذي طالما أحبّ أن يرافقتنا، أحبّ أن يواكبنا بمحبته وحرصه، إني أراه وأسمعه وأكلمه، هو الحاضر في نبض كل مناضل صادق وفي ذكرى كل شهيد بطل، هو المتوقّد في عيون أحفاده، المطبوع في نظرة «عمر» وعلى جبين «إيلات»، المدوّي في صوت «سينار» وترغلة «سامر»، هو المعشّش في وجدان محبيه الكُثُر في عائلته الصغيرة وحزبه الكبير وأمنه العملاقة.

هو الذي تعلّم وعلم، ترقّى ورتّى، كَبُرَ ولم يتكَبَّر، تعب ولم يتدمّر، أعطى ولم يتبسّح. هو القاسي لا الظالم، والمرح لا الماجن، والإداري لا الجامد. طوال عمري غرقت منه بشغف وفرح كبيرين، هو الأب المرَبّي والأستاذ الموجه، والمسؤول القدوة، والصديق المحبّ، والتلميذ المتواضع والإنسان الرائع.

شعرت دائماً بأن أنظون سعادته فردّ مميّز مكرّم يحيا في صلب عائلتي، كنت على تماسّ دائم معه، وعرفته جيداً دون أن ألتقيه، كل ذلك بفضل والدي، فهو وزعيمه لم يفترقا لحظة واحدة. فقد كان الأمين إلياس متيّماً بماثر المعلّم يستحضرها في كل مناسبة وموقف، مصوّباً وموجهاً ومحفّزاً ومنبّهاً.

* كلمة الأهل في ذكرى الأربعين في طرطوس. في 12/12/1997.

حياة الأمين الياس، ذاك الشهيد الحي، كانت زاخرة بوقفات العز ومحطات البطولة وينابيع العطاء:

فمن تخليه - عام 1938 في طرطوس - عن التعليم، مورده الأوحد، مقرراً ودون أي تردّد التمسك بحزبه عندما خيروه بين الأمرين، وقد نال على أثر هذا الموقف رتبة الأمانة من الزعيم، ولم يمضِ على انتمائه للحزب ثلاث سنوات. إلى تركه كلية الحقوق في الجامعة اليسوعية في بيروت ملتزماً بقرار الزعيم بتعيينه عميداً للداخلية عام 1947.

إلى جولاته الأسطورية المنتجة، على الأقدام، وعلى امتداد المناطق في الجمهورية الشامية أوائل الخمسينات، متفقداً الفروع الإدارية، مفتشاً على مدارس الحزب، منسقاً معاركه الانتخابية، ناشراً عقيدته، حكماً بين رفاقه. إلى زيارته الحزبية المطوّلة إلى الأرجنتين والبرازيل عامي 1954 و1955. إلى تفقده فروع الحزب في الأردن والقدس والضفة الغربية طوال عام 1956.

إلى تواجده الفاعل والدائم في مختلف المناطق اللبنانية ابتداءً من العام 1957 مواكباً كل أجيال النهضة.

إلى تحمّله مسؤولية المفوض العام في لبنان، الخطيرة جداً، بعد محاولة الانقلاب عام 1962، في ظل ظروف التجويع والتزويج.

إلى تلقّفه جمرة رئاسة «اللجنة القيادية» من تلميذه «أبو واجب»، ثم رئاسة الحزب بعد استشهاده «أبو واجب» عام 1975، مثبّتاً بموقفه الجريء آنذاك نهباً أخلاقياً وسياسياً كاد أن يندثر، أدى إلى محاصرة المتلاعبين بالحزب، غير مكترث بالأخطار المحدقة به.

إلى ترحيبه، كرئيس للحزب، عام 1976، بدخول الجيش الشامي إلى لبنان رغم الضغوط الشديدة التي تعرّض لها هو وحزبه، شاهراً قناعته بصوابية الدور الشامي

المُسقط ل «سايكس - بيكو»، والهادف إلى وقف النزف في لبنان وحماية الثورة الفلسطينية.

إلى إصراره على العودة من دمشق إلى بيروت مع بدايات الحصار اليهودي لها في اجتياح عام 1982 ليكون في ساحة المواجهة، وصموده فيها طوال محنتها المريعة ملاذاً لرفقائه، ودافعاً لهم على الاستمرار.

إلى تجواله في الإمارات العربية وكل مناطق الكيان الشامي عام 1987.

إلى زيارته لفروع الحزب في أميركا الشمالية عامي 1986 و1994.

إلى تنكبه رئاسة المحكمة الحزبية العليا من العام 1991 وحتى 1995، في أدق الظروف الداخلية وأخطرها، وهو ابن الثمانين عاماً.

واستمراره في العطاء والمشاركة حتى آخر رمق من حياته..

هذا الرجل الذي هو علم من أعلام النهضة، نفخر بمحبته لكم، ونعتز بمحبتكم له، نضطرب في وداعه لفداحة الخسارة، ولكن ما يخفف من وطأة الغياب مئات المواقف والأحاديث والخطب والمقالات التي سلطت الضوء على أصالة هذه الأمة وعظمة نهضتها وعبقريتها مُطلقها.

باسمه نقول شكراً من القلب، والبقاء للأمة والخلود لشهدائها.

حتى الرمق الأخير*

إلياس جرجي قنيزح

... وأتقدم إليكم بالشكر الجزيل من صميم تعلّقي بالحياة الكريمة معكم، بمناسبة احتفائكم الذي أفخر به وأعتزّ لما يمدّني به من قدرة الثبات وقوة الإقدام، لبلوغ الأفضل والأجمل، لكي أكون أكثر جدارةً بثقتكم وتقديركم وأشدّ أهلية للعطاء...

... وإني أحسب اليوم بداهةً أنّ هذا التكريم الموجه إلى شخصي ما هو في الواقع إلا التعبير الصميم عن تقديركم الصادق العميق لمعاني النهضة السورية القومية الاجتماعية ومراميتها النبيلة لخير الشعب وعزّه، والتي منحتها كلّ حياتي بفرح واعتزاز، وإني أتابع في حلتها واجب الكفاح بإخلاصٍ وأمانة كلية حتى الرمق الأخير العتيد...

... إلى اللقاء الميمون، في المناسبات المجيدة لأمتنا العظيمة، لتكون غلال مواسمنا المقبلة شفوية الغليل، بانعتاقنا من أغلالنا لنكمل معاً طريق الحياة الكريمة. والنفس الكريمة لا تكف عن العطاء.

دوموا للحق والجهاد كي نلاقي أعظم انتصار لأعظم صبر في التاريخ...

* مقاطع من كلمة ألقاها في تكريم أقامه له السيد جميل شماس في نادي خريجي الجامعة الأميركية في بيروت في 1995/3/20

فهرس الأسماء

- أ
- أبو جود، عماد: 314، 316
 - أبو رافع، أنيس: 321
 - أبو واجب: 342
 - ابي عجرم، فؤاد: 109، 127
 - إسبر رفقته، سوسن: 349
 - اسماعيل / أنيس: 190-193
 - اسماعيل أنيس، بديع: 190-194
 - الأشقر، اسد: 99، 100، 136-138
 - الأشقر، وديع: 120
 - انطون بك: 164
 - آغا، خالد، 49-51
 - إياس، فأمون: 56، 99-101، 134، 149، 150
- ب
- بابيل، نصّوح: 33
 - برديايف: 217
 - بشور، جورج: 168
 - بندقي: 74
- ت
- تاج، يوسف: 172-174
 - تويني، جبران: 33
- ت
- ثابت، نعمة: 70، 88-90، 96، 99، 100، 108، 131-134، 149، 150
- ج
- جمال، أنيس: 309
 - جمول، يمني: 333
- ح
- حاج إسماعيل، حيدر: 13
 - حافظ: 248-250، 252
 - حردان، نواف: 304، 327
 - حماده، إدماناصيف: 337
 - حمود، أحمد: 272، 274
- خ
- خبّاز: 209، 211
 - خليل جبران، جبران: 265
 - خوري، يوسف: 214
- د
- الداوق، عمر: 19، 20
- ر
- راشد، محمد: 111-113
 - رزق، حلیم: 310
- ز
- الزعيم، حسني: 261، 262، 266
 - الزين، غبراهيم: 329
- س
- سعاده، أنطون، اليسار: 291
 - سعاده أنطون: 11، 13، 14، 17-29، 31، 36، 40-42، 45، 46، 48، 63، 67، 72، 90، 92، 95، 102، 107، 115، 119، 122، 124، 130، 144، 146، 148، 153، 157، 160، 163، 168، 172، 176، 180، 184، 208، 212، 215، 216، 221، 223، 230، 234، 257، 261، 265، 266، 272، 276، 280، 284، 285، 294، 299، 300، 302، 306، 314، 317، 328، 341، 340، 338، 337، 335-332

ق

- قانصو، علي: 285
- قبرصلي، عبد الله: 305
- قنيزح، الياس جرجي: 7، 8، 11، 13-15، 191، 211، 212، 223، 241، 255، 283، 285، 288، 289، 293، 295، 296، 302، 304، 305، 307-309، 309، 312-318، 320-322، 326، 329، 331-335، 339، 341، 342، 349، 344

- قنيزح، الياس جرجي، تموز: 10، 341
- قنيزح، الياس جرجي، فداء: 349

ك

- كركيغارد: 197، 217
- كرم، عساف: 181-183، 263

م

- المالكي، عدنان: 331
- محاييري، عصام: 223، 293
- مخلوف، الياس: 324
- مردم بك، جميل: 64، 65
- معاوف، فخري: 86، 87
- المقلد، الشيخ محمد: 326
- المهتار، عجاج: 181، 182
- موصللي، بشير: 320

ن

- نبعه، ميشال: 309
- نزال، ابو علي: 315، 316
- نصر الله محسن، هيام: 297
- نقاش، زكي: 38

ي

- يازجي، جميل: 68، 69، 70

- سعاده، خليل: 19، 22، 32
- سكر، رياض: 223-225
- سلامة، أنطون: 225، 226
- سلوم، نزار: 339
- سليم: 138
- سليمان، فؤاد: 74
- سيف الدين، رفيق: 272-275

ش

- الشامي، غسان: 311
- شاهين، شاهين: 321
- شماس، شاهين: 293، 344

ص

- صايغ، فايز: 89، 195-197، 217، 218
- الصلح، رياض: 90

ع

- العاندي، منيف: 33
- عبد الرزاق، رياض: 54، 56، 57، 213-215
- عرنوق، عيسى جميل: 68
- عرنوق، نغم رزق الله: 7
- عز الدين، حسن: 302
- عوده، الياس: 288
- العيتاني، محمد: 120

غ

- غريب، أنطون: 284
- غزالة، محمود: 308

ف

- فرحه: 153-156
- فولتير: 177

الموضوعات

- 7 مقَدِّمة الطبعة الثانية: معلّم في الحوار
- 13 مقدمة الطبعة الأولى
- 16 مؤشرات مشعة كبيرة أبرزت تفوق شخصية سعادته
نشوء الحزب السوري القومي الاجتماعي
- 32 يقوم من أجل حقيقة ثابتة ومستمرة
- 37 قصة أول ندوة ثقافية في الحزب
- 40 نحن الآن مع فريق من شعبنا
- 44 ضموا سورية إلى لبنان ولا تضموا لبنان إلى سورية
- 48 نحن من الشعب ونعمل في الشعب
- 53 اللقاء الأول مع سعادته
- 60 الشخص الآدمي أزوجه ابنتي
- 63 صدقتهم يا دولة الرئيس
- 67 طَوَّل له الحبل
- 72 نحن حقاً أولاد من حيث الطهارة
- 75 محاولة فاشلة لاغتيال الزعيم
- 80 القدوة أساس كل بناء
- 84 الموت يظل واحداً
- 88 هل من الضروري أن يعود الزعيم
- 92 الانضباط لا يحول دون إبداء العواطف
- 95 لا تنتصر النهضة باعتمادها التسوية
- 102 نحن نقيم مواقفنا
- 107 لدينا، عند العقول تضيع البطون
- 110 ليس من حقيقة أقوى من فعل الثقة
- 115 احذروا مغبة خداعكم لنا
- 119 إنـت بتخلّمهم بصدقوا
- 122 الحياة مغامرة يا رفيقي

- 124 إن الأمة العظيمة يرهن انكسارها عما إذا كانت قوية في نفسها
- 130 الخجل من الرذيلة طعنة للفضيلة
- 135 الثقة بالحزب وعدالته النبيلة
- 140 حق الإقناع هو حق الاعتناق
- 144 كم مرة حيل بيني وبين ممارستي لمسؤوليات الزعامة
- 148 ما ينطبق على وداعة الخراف
- 153 لا يتفق من معه شيء مع من ليس معه شيء
- 157 قل لحضرة عميد الداخلية
- 160 موضوع الاجتماع
- 163 إذا سألك القوميون
- 168 التعيين هو شرط الوضوح
- 172 أمل أن تكون أعصابك بمتانة روحيتك
- 176 لا شك أن المال امتحان مهم
- 180 وضع النظام على قواعد حيوية
- 184 أنت تستحق العقوبة
- 188 الرابطة العائلية قسرية
- 194 هل يصح أن تكون السلطة فريقاً؟
- 199 هل الإنسان للدين أم الدين للإنسان؟
- 204 بينما تضاعف العناية
- 208 خط الفكر السوري حقيقة بارزة
- 212 هالكريسي ما بتخص الياس جرجي قنيزح
- 216 المهم أن لا يذبح المرء عجل جاره
- 221 إن العدالة وإن أخطأت لا تكابر
- 226 ليس الكرم أن تجود جزافاً بالمال
- 230 أنا لم أكلفك بالتفكير
- 234 لنقبض على ناصية الأمور
- 238 مهما بلغت النصوص

- 244 لا يمكن إقامة بناية من حجارات هي في عالم الخيال
- 248 الزواج انعتاق من الوحدة
- 253 لا رئيس ولا مرؤوس في التعامل القومي
- 257 لا يزال القوميون الاجتماعيون يلبّون لتضميد جراح المصابين
- 261 ليست حياة الزعيم ضماناً
- 265 لم يُعطَ لامرئٍ أن يهين سواه
- 268 على كُلِّ يا أستاذ
- 272 تعجز مرارة الخيبة
- 276 إن إبداء الرأي واجب في محله
- 280 قد انتصرنا انتصارات غير منظورة
- 283 شموخ السنديان
- 284 شهادة في مصدر الشهادات أنطوان غرّيب
- 286 قامة مديدة علي قانصو
- 289 مبدع في خلق نفسه المتروبوليت إلياس عوده
- 292 كانت لك فرادتك أليسا أنطون سعادة
- 294 استعدّوا! جميل شمّاس
- 296 غادرنا محتفظاً بالفرح عصام المحاري
- 298 الحاضر في صفوفنا هيام نصر الله محسن
- 301 المُطَيّف بـ «سعادة» نزار سلّوم
- 303 إنه الأمين الأمين حسن عز الدين
- 305 سيرة خالدة نواف حردان
- 306 السنديانة عبد الله قبرصي
- 309 مذيع مديرية شتورة محمود غزاله
- 311 نتوق لسماعه حليم رزّوق
- 312 أوقف الحوار.. ورحل غسان الشامي
- 314 رحيل السنديان «البناء»

- أجيال نضال عماد أبو جود 315
- صفاء الرسل سهام بشير جمال 319
- «نكبة» إلياس جرجي بشير موصلي 321
- الأمين «القديس» إلياس مخلوف 325
- الإنسان الجديد محمد مقلد (الشيخ) 327
- قدوة نضالية مميزة إبراهيم الزين 330
- عبر وجه الحياة متمماً واجباته النهضوية يمى جمول 334
- كأنك في أول الطريق أدما ناصيف حماده 338
- منذ أول الدرب أول القافلة نزار سلوم 340
- يرافقنا، ولم يفارقنا تموز إلياس قنيزح 342
- حتى الرmq الأخير إلياس جرجي قنيزح 345

الأمين الياس جرجي قنيزح (1913-1997)

- ولد في طرطوس الشام في 18-3-1913.
- أنهى دروسه الثانوية في بلده وأكمل التخصص في الرياضيات ودرس هذه المادة في مدرسة البلدة.
- انتهى إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي في طرطوس يوم 22-8-1935.
- تدرّج في مسؤوليات مذب مديرية طرطوس، ناظر الإذاعة لمنقذية طرطوس، ثم منقذ عام طرطوس ومندوب مركزي لمنقذيات طرطوس ومحافظة اللاذقية.
- نال رتبة الأمانة عام 1938.
- بعد عودة الزعيم من مغتربه في آذار 1947 بشهر واحد اختاره عميداً للداخلية. ثم مديراً لمكتب الزعامة وناموسها الأول.
- شكّل الزعيم عام 1948 «لجنة التحقيقات الإدارية» وأسند رئاستها إليه وهي بمثابة «محكمة حزبية عليا».
- بعد استشهاد الزعيم عين عميداً للداخلية. ثم عضواً في اللجنة الرئاسية عام 1974، وعضواً في لجنة قيادية مركزية. وانتخب عضواً في المجلس الأعلى لأكثر من مرة.
- انتخب رئيساً للحزب عام 1975.
- رئيس المحكمة الحزبية العليا من 1991-1995.
- تزوج من الرفيقة سوسن إسبر رفقه في 22-8-1951 ورزقا بابنة أسمياها «فداء» وابن حمل اسم «تموز». عرف بين رفقائه بلقب «أبي فداء».
- له أبحاث ومقالات قومية مختلفة، وكتاب بعنوان «مآثر من سعاده».
- حائز على «وسام سعاده».
- ثابر على نشاطه القومي بعزيمة الشباب وحكمة الشيوخ وروحية المعرفة، حتى وفاته في 29-10-1997 في بيروت.



سعادة يتفقد الوحدات الحزبية - وبدا خلفه الأمين الياس جرجي قنيزح وبعض الرفقاء .



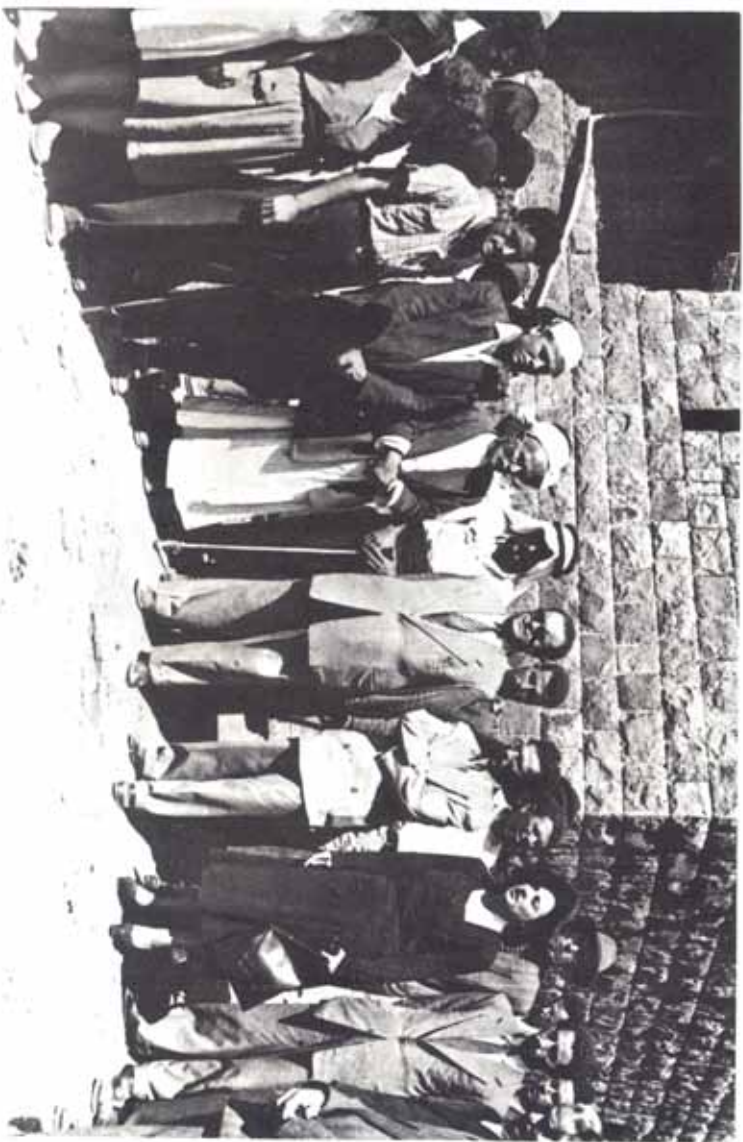
سعادة يعقوب به عميد الداخلية الأمين الياس جرجي قنبرج - الأمين انيس فاخوري وعدد من الرفقاء .

القلمون - طرابلس



سماعة في زيارة دمشق - 1948 يحيط به الأمين جورج بلدي - الأمين الياس جرجي قنبرج -
الأمين عصام المحاري منفذ عام دمشق - الرفقاء مظهر الشوفي - اديب قدورة - وآخرون .





في بادا - صافيتا - الرفيق الشيخ ابراهيم عبد الرحيم - الأمين الياس جرجي قنبرج - الرفيق عيسى سلامة -
الرفيق فاضل بس - الامية الاولى - الرفيق مصطفى سليمان .

